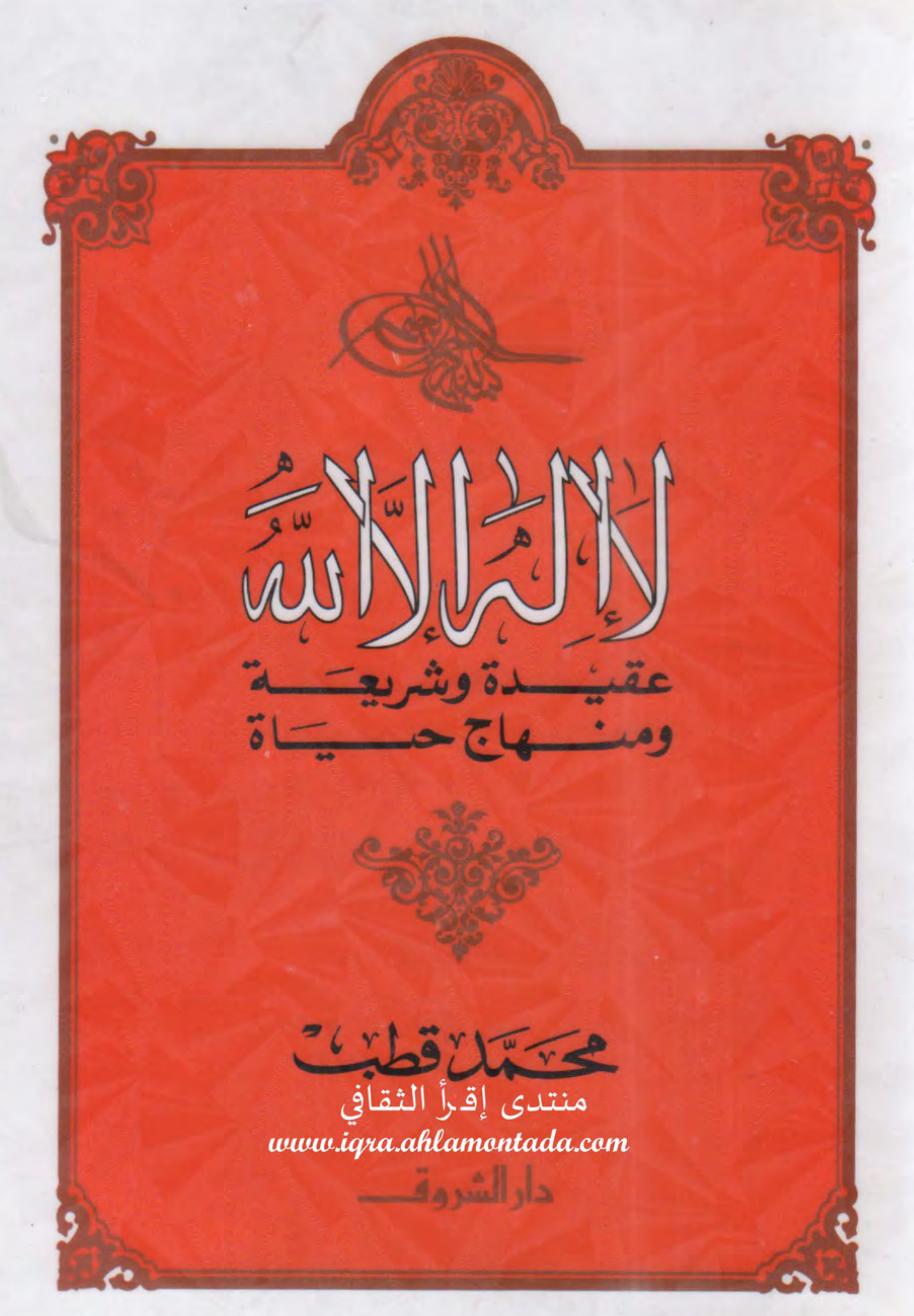

لا إله إلا الله
عقيدة وشريعة
ومنهاج حياة
محمد قطب
منتدى إقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com
دار الشروق


لا إله إلا الله
عقيدة وشريعة
ومنهاج حياة

الطبعة الأولـى ١٩٩٥
الطبعة الثانيـة ٢٠٠٦
الطبعة الثالثـة ٢٠١٠

رقم الإيداع ٣٥٧٠/ ٩٣
ISBN 977-09-0139-3

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢) +
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

محمد قطب



دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين ﴾

صدق الله العظيم

مُقـــدمـــة

كتبتُ من قبل أكثر من مرة عن « لا إلَه إلا الله » . . ما مدلولها الذى جاءت به من عند الله ؟ وكيف فهمها الجيل الذى رباه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على مفهومها الصحيح ؟ وكيف انحسر مفهومها خلال الأجيال المتعاقبة حتى صارت فى حس كثير من المتأخرين مجرد كلمة تنطق باللسان ؟ وكيف ينبغى أن تعاد إليها شحنتها الكاملة وحيويتها الشاملة ، لكى تعود الأمة إلى حقيقة الإسلام ، وتحقق رسالتها التى أخرجها الله من أجلها ، فيتحقق لها موعود الله ؟ :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[1] .

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا﴾[2] .

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدوننى لا يشركون بى شيئًا ﴾[3] .

كتبت عن ذلك مبكرًا فى كتاب «هل نحن مسلمون »[4] ثم فى كتاب « واقعنا

---

(١) آل عمران : ١١٠ .

(٢) البقرة : ١٤٣ .

(٣) النور : ٥٥ .

(٤) صدرت طبعته الأولى عام ١٣٧٩ هـ (١٩٥٩ م)

المعاصر»[1] وكتاب « مفاهيم ينبغى أن تصحح »[2] ثم مرة أخرى فى كتاب « رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر »[3].

ولكنى مازلت أجد فى نفسى رغبة فى مزيد من الحديث عن « لا إلّه إلا الله » ؛ لأن ماكتبته كله لم يستنفد كل ما أريد أن أقوله فى مدلول لا إلّه إلا الله ، ومقتضياتها ، وواجب الصحوة الإسلامية تجاهها . . ولست أزعم بطبيعة الحال أن ما أضفته فى هذه الصفحات يستنفد كل ما ينبغى أن يقال فى هذا الصدد ، فمازال الباب مفتوحًا ، وسيظل مفتوحًا أبدًا لكل من يفتح الله عليه بجديد فى هذا الموضوع الهائل العظيم . . وإنما حسبى فى هذه الصفحات أن أركز على بعض نقاط لم تأخذ حظها من التركيز فيما كتبت من قبل ، أو ألفت النظر إلى مزيد من جوانب الشمول فى مفهوم لا إلّه إلا الله لم تكن قد تبينت من قبل .

وإن الذى دفعنى إلى معاودة الكتابة فى مفهوم لا إلّه إلا الله هو مواقف كثير من الناس فى هذه القضية ، بعضهم من الدعاة الإسلاميين أنفسهم ، وبعضهم من الشباب المتعجل ، فضلاً عن بعض العلمانيين الذين يتظاهرون بالدعوة إلى الإسلام ، والدفاع عن قضايا المسلمين ، ثم يبثون من الأفكار ما يضللون به الناس ؛ ليبعدوهم عن خط الإسلام الأصيل .

فأما العلمانيون فموقفهم واضح مهما حاولوا أن يتزيوا بزى الإسلام ، سواء منهم من أراد حصره فى الاعتقاد القلبى وحده ، أو كان من « المتساهلين ! » الذين قد يسمحون ـ على مضض ـ بشىء من الشعائر التعبدية إلى جانب الاعتقاد القلبى بشرط ألا يتجاوز الأمر ـ فى جميع الأحوال ـ ذلك النطاق المحدود إلى أمور الحياة الواقعية ، والسياسة بصفة خاصة ، فهى أخصّ ما يجب أن يُبْعَدَ عن الدين ، ويبعد الدين عنه ! منعًا من « التطرف » ومنعًا من الرجوع إلى « الأصول » التى أنزلها الله ؛ ليلتزم بها عباده المؤمنون !

وأما الإسلاميون ـ والشباب المتعجل خاصة ـ فكثير منهم قد دفعته ظروف الصراع

---

(١) صدرت طبعته الأولى عام ١٤٠٧ هـ (١٩٨٧ م) .
(٢) كتب سنة ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠ م) ونشر سنة ١٤٠٨ هـ (١٩٨٨ م) .
(٣) صدر سنة ١٤١٠ هـ (١٩٩٠ م) .

الفكرى الدائر بين الإسلام والمذاهب العلمانية إلى التركيز على قضية تحكيم الشريعة ، على أنها هى التى تنقص المجتمعات الحالية ؛ لتصبح مجتمعات إسلامية ، وحتى هؤلاء فكثير منهم تنحصر قضية الشريعة فى حسهم فى وجوب تطبيق الحدود ، ولا يلتفتون إلى سعة الشريعة وشمولها آفاقًا كثيرة أخرى غير تطبيق الحدود ، فاعتقدوا أن الناس بمجرد تطبيقهم لتلك الحدود يكونون قد استكملوا كل ما يلزمهم ؛ ليعيشوا حياة إسلامية صحيحة، ولو كانت مناهج تعليمهم ووسائل إعلامهم وأنماط حياتهم على ما هى عليه اليوم، أو بتعديلات « بسيطة » تضفى عليها صفة الإسلام ! ومروا مرورًا سريعًا على الجانب الآخر من « الحاكمية » المتعلق بالاعتقاد والعبادة . . أو بعبارة أخرى ركزوا كثيرًا على شرك التشريع، ومروا سريعًا على شرك الاعتقاد والعبادة ، مع أهمية الجوانب الثلاثة كلها فى هذا الدين ، ودخولها كلها فى مفهوم لا إلّه إلا الله ، ووقوع الخلل فيها جميعًا فى حياة « المسلم المعاصر » !

وليس التركيز على أحد الجوانب أكثر من غيره أمرًا يعاب على أحد من المفكرين ؛ أو الدعاة ، إذا التفتوا إلى الجوانب الأخرى وأعطوها حقها من البيان ، فهذا التركيز أمر بشرى، يقع من المفكرين والدعاة بغير قصد منهم ، بحكم أنهم يجابهون مشاكل معينة تبرز فى عصرهم ، فيجاهدون لرد الناس فيها إلى حكم الله فيركزون عليها أكثر . . فقد ركز ابن تيمية رحمه الله كثيرًا على قضية الصفات ؛ لأن الفرق الضالة كانت قد انحرفت فيها انحرافًا شديدًا أفسد العقيدة ، فكانت تلك هى « أزمة العصر » فى زمنه ، ولكنه وفّى بقية الجوانب حقها فى كتبه وفتاواه ، وركز الشيخ محمد بن عبد الوهاب على قضية الأولياء والأضرحة وعبادة القبور ؛ لأنها كانت « أزمة العصر » فى زمنه ، ولكنه تحدث عن بقية الجوانب فوفاها حقها فى مختلف كتبه ، وركز سيد قطب على حاكمية الشريعة ؛ لأنها « أزمة العصر » فى الوقت الحاضر ، ولكنه وفّى الحديث عن الجوانب الأخرى خاصة فى «الظلال» و « خصائص التصور الإسلامى » و « مقومات التصور الإسلامى » . ولكن الذين يتتلمذون على فكر أولئك الشيوخ ينسون ! فقد ركز كثير من تلاميذ ابن تيمية على قضية الصفات وحدها كأنها هى وحدها « العقيدة » ! وركز كثير من تلاميذ الشيخ محمد بن عبد الوهاب على شرك القبور وحده كأنما هو وحده الشرك ! وركز كثير من تلاميذ سيد قطب على حاكمية الشريعة وحدها كأنما هى وحدها هى أصل الدين! والأولى بهؤلاء جميعًا

أن يعاودوا التتلمذ على فكر شيوخهم كله ، ولا يقتصروا منه على الجوانب التى ركز عليها شيوخهم لظروف عصرهم الخاصة !

* * *

والذى أردت إبرازه فى هذه الصفحات أن « لا إلّه إلا الله » لا تنحصر فى تلك المجالات التى تعودنا أن نتحدث فيها ، سواء مجال الاعتقاد ، أو الشعائر التعبدية ، أو تحكيم الشريعة ، على كل الأهمية التى جعلها الله لهذه المجالات الثلاثة ـ إذ جعل نقضها أو نقض أى واحد منها نقضًا لأصل لا إلّه إلا الله ـ إنما هى ـ كما أنزلها الله ـ شاملة شمولاً حقيقيًا لكل مجالات الحياة ، ما كبر منها وما صغر ، وما بدت صلته ظاهرة بلا إلّه إلا الله ، وما خفيت صلته على بعض الناس ، أو على كثير من الناس ! وتكفى هذه الآية الكريمة وحدها للدلالة على ذلك :

﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له . . ﴾ [1].

وأننا لا نستطيع أن نزعم أننا وفينا لا إلّه إلا الله حقها ـ وإن اعتقدنا الاعتقاد الصحيح ، وإن نجونا من الوقوع فى شرك العبادة ، وإن حكمت محاكمنا بشريعة الله ـ إذا كنا متخلفين علميًا ، أو متخلفين اقتصاديًا ، أو متخلفين حضاريًا [2] ، أو متخلفين أخلاقيًا ، أو متخلفين اجتماعيًا ، أو متخلفين فكريًا ثم سكتنا عن ذلك ولم نعمل على إزالته . . لأن هذه الأمور كلها من مقتضيات لا إلّه إلا الله ، ولله ولرسوله فى شأنها تعليمات واضحة ، ملزمة للأمة المسلمة ، سواء أكانت « فروض » عين ، أو « فروض » كفاية ، فهى لا تسمى «فروضًا » إلا إذا كانت من صلب الدين ، ومن مقتضيات لا إلّه إلا الله [3].

وإن كثيرًا من « الإسلاميين » ليسألوننى : إلى متى نظل نتحدث فى لا إلّه إلا الله ؟ أما آن الأوان أن « ننتقل » إلى المرحلة التالية . . مرحلة « الحلول العملية » ؟!

وربما كان هذا التساؤل هو الدافع الأول لهذا الكتاب !

فالقضية أولاً ليست قضية « التحدث » عن لا إلّه إلا الله ! إنما التحدث عنها وعن

---

(١) الأنعام : ١٦٢ ـ ١٦٣ .

(٢) سيأتى الحديث فى أثناء الكتاب عن المفهوم الإسلامى للحضارة .

(٣) من العجب أن الغزالى فى القرن الخامس الهجرى كان يتحدث عن فروض العين وفروض الكفاية وعلاقاتها بأصل الدين ، ونحن فى القرن الخامس عشر نجادل فى شمول لا إلّه إلا الله للعلم والحضارة والقوة الحربية والخبرة التقنية !

مقتضياتها هو الخطوة الأولى فى الطريق الطويل ، الذى سلكه من قبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ويسلكه الدعاة من بعده . ويأتى بعد ذلك تربية الأمة على هذه المقتضيات، بدءًا بتربية قاعدة صلبة تكون نموذجًا لبقية الأمة تهتدى على ضوئه . وهذا ما فعله رسول الله ـ صلى عليه وسلم ـ ثلاثة عشر عامًا فى مكة ، وعشر سنوات فى المدينة ، وما يجب أن يفعله الدعاة من بعده ، وهو أمر لم يتم بعد ، ويحتاج إلى أمد لتحقيقه ، وجهد بالغ للقيام به ، ولا ينقطع « الحديث » فى أثنائه عن مقتضيات لا إلّه إلا الله ؛ لأن القرآن الكريم لم ينقطع الحديث فيه عن لا إلّه إلا الله فى كل مراحل التربية والإعداد ، بل فى كل المراحل على الإطلاق ! ولأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكفّ عن الحديث عن مقتضيات لا إلّه إلا الله حتى لقى ربه !

والقضية ثانيًا أن « الحلول العملية » التى يتحدثون عن ضرورة « الانتقال » إليها ، ليست شيئًا قائمًا بذاته خارج دائرة لا إلّه إلا الله ، حتى نحتاج أن « ننتقل » من لا إلّه إلا الله ؛ لنتوجه إليها بالدراسة والبحث ! إنما هى من صميم لا إلّه إلا الله ، ومن ثم لانحتاج أن ننتقل من لا إلّه الله ؛ لنتوجه إليها ! بل نحن دائمًا ـ أيًا كان بحثنا وأيًا كان توجّهنا ـ فى داخل الدائرة الشاملة ـ دائرة لا إلّه إلا الله ـ لا نخرج منها إلى غيرها ؛ لأنه لايوجد غيرها فى دين الله ولا فى واقع الحياة ، إذ أنه لا شىء يمكن أن يوجد خارج «**صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى**» التى هى بعينها دائرة لا إلّه إلا الله !

إنما الذى يمكن أن يحدث فى الحياة الواقعة أن ننتقل من مجال من مجالات لا إلّه إلا الله إلى مجال آخر ، أو من طور من أطوارها إلى طور آخر ، كما انتقلت الجماعة الأولى من طور الجماعة المستضعفة فى مكة إلى الجماعة الممكنة فى المدينة ، إلى الدولة المتمركزة فى المدينة ، إلى الدولة الشاملة للجزيرة العربية ، إلى الدولة الممتدة فى الأرض ، وكما انتقلت من طور ترسيخ العقيدة فى نفوس الأفراد إلى طور قيام التجمع الحركى ، إلى طور مواجهة هذا التجمع للجاهلية من حوله ، إلى طور التنفيذ العملى للمنهج الربانى فى مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والداخلية والخارجية ، والسلمية والحربية . . ولكنها فى جميع الأحوال كانت داخل دائرة لا إلّه إلا الله ، لا « تنتقل » منها إلى غيرها ، ولا تتوقف كذلك عن الحديث الدائم عن مقتضياتها !

* * *

ولقد غلب على حس كثير من الناس فى واقعنا المعاصر أن قضايا العلم والحضارة و«التكنولوجيا » والأدب والفن والفكر والاجتماع والسياسة ، هى قضايا « موضوعية » بحتة ، أو « فنية » بحتة ، أو حتى قضايا « علمانية » بحتة خارجة عن إطار الدين ، يستوى فيها المؤمن والكافر؛ وأن سعى الأمة الإسلامية إلى حيازة التقدم فيها يجب أن يكون موضوعيًا بحتًا لا علاقة له بالعقيدة ، إنما ينبعث فقط من واجب « إزالة التخلف » و«اللحاق بركب الحضارة » والسعى إلى إيجاد « دولة حديثة » و « معايشة العصر » الذى نعيش فيه !

ويمكن إرجاع ذلِك الأمر إلى سببين رئيسيين ، أو ثلاثة .

السبب الأول هو تأثير الغزو الفكرى على « المسلم المعاصر » . . فأوربا ـ التى يتخذها «المسلم المعاصر » هاديًا له ودليلاً فى قضايا العلم والحضارة والتكنولوجيا ـ قد حصرت الدين فى العقيدة وحدها ثم نبذته ، وتناولت هذه الأمور كلها بروح « علمانية » تبعدها إبعادًا كاملاً عن إطار الدين .

والسبب الثانى هو أن الأمة الإسلامية ـ فى تخلفها العقدى ـ ظلت تنحسر بلا إلّه إلا الله حتى أفرغتها من مضمونها الحقيقى ، وأحالتها مجرد كلمة تنطق باللسان ، أو على الأكثر وجدانًا يصاحب الكلمة ، وشعائر تعبدية ، هى ـ فى حسهم ـ أقصى ما تتحقق به لا إلّه إلا الله فى واقع الحياة .

وبالتأثيرين معًا ـ تأثير الغزو الفكرى وتأثير التخلف العقدى ـ تخرج أمور العلم والحضارة والقوة التكنولوجية وغيرها من مجال لا إلّه إلا الله ، ويحتاج الأمر فى حس الناس ـ إذا أردنا أن نحرز شيئًا من التقدم فى تلك المجالات ـ أن « ننتقل » من لا إلّه إلا الله إلى تلك المجالات !

أما السبب الثالث الذى يمكن أن يضاف إلى السببين السابقين وإن كان من نتاجهما فى الحقيقة ، فهو الوهم الذى يتردد صداه عند كثير من الناس ، من أن « ثورة التكنولوجيا » قد حوّلت العالم إلى « قرية صغيرة » ، يجب أن يتعايش سكانها بمفاهيم موحدة ، أو متقاربة ؛ لكى يتمكنوا من الحياة . ومن ثم يصبح التقدم العلمى والحضارى والتكنولوجى . . الخ، قالبًا واحدًا ، موحد الحجم والصورة والمضمون ، ينتجه الغرب الظافر ، «وتستورده» بلدان « العالم الثالث » للاستهلاك ، لا مناص لها من ذلك ولا خيار !

وكل الثلاثة أوهام وأباطيل . .

فمسلك أوروبا الخاطئ تجاه الدين ليس هو النموذج الذى يحتذى . . وقد انهار نصف الجاهلية المعاصرة المعادية للدين ، والنصف الآخر في طريقه للانهيار . . ومن الحماقة بالنسبة إلينا أن نتشبث بالنموذج المنهار ونحن نشهد انهياره أمام أعيننا . . بل إنه من الحماقة أن نتشبث بذلك النموذج ولو كان ثابتًا ممكّنا إلى يوم القيامة ، مادام الله قد أخبرنا أنهم قد خسروا الآخرة بكفرهم ، فكيف وقد خسروا الدنيا كذلك ، ومنّ الله علينا بأن أرانا الآية الكبرى فى انهيارهم : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ [1] .

والتخلف العقدى الذى أخرج « فروض الكفاية » بل بعض « فروض العين » ذاتها من دائرة لا إلّه إلا الله ، هو من الأمور التى قامت الصحوة الإسلامية لتصحيحها ، فلا ينبغى «للإسلاميين » بصفة خاصة أن يقعوا فيها ، ولا ينبغى لهم أن يتضجروا من الحديث عن «لا إلّه إلا الله » ، وشمولها لكل مجالات الحياة ، وعن معاودة الحديث فى هذا الشأن والاستمرار فيه ، على الأقل حتى يصبح واقعًا ملموسًا يخرج الأمة من تخلفها العقدى ، الذى ترتب عليه فى حياة الأمة كل ما ترتب من تخلف حضارى وعلمى وتكنولوجى ، وفكرى وأخلاقى . . وفى كل الميادين . وإن كان ربنا قد علّمنا فى كتابه الكريم أن هذا الحديث لا يكف أبدًا ولو تحققت كل مقوماته واقعًا ملموسًا ، فقد نزل فى المدينة ـ بعد قيام المجتمع المسلم والدولة المسلمة وتحقق المنهج الربانى فى أمة قائمة بالفعل ـ قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذى نزل على رسوله . . ﴾ [2] وفى ذلك دلالة واضحة على أن الحديث فى « لا إلّه إلا الله » لا ينقطع أبدًا ولو تحققت مقوماته فى واقع فعلى ، لأنه يحتاج دائمًا إلى تذكير ، ويحتاج دائمًا إلى ترسيخ !

وأما القرية الواحدة فما أعجبها فِرية !

تلك القرية التى يقوم الوثنيون فيها والمشركون واليهود والنصارى بتذبيح المسلمين فى وحشية يتعفف عنها كثير من الوحوش . . فى البوسنة والهرسك ، وبورما ، والفلبين ، والهند ، وكشمير ، وفلسطين ، وكل مكان على ظهر الأرض ! فما نصيبنا نحن المسلمين فى تلك القرية إلا التذبيح والتقتيل لمجرد كوننا مسلمين ؟ وصدق الله :

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ [3] .

---

(١) العنكبوت : ٤٣ . (٢) النساء : ١٣٦ . (٣) البقرة : ١٢٠ .

﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ [1] .

فهل يريد أصحاب فكرة « القرية الواحدة » أن نرتد عن ديننا ؛ لننسق أمورنا مع أصحاب السلطان فى القرية ؟ أو ليست هذه حقيقة دعوتهم لنا أن نأخذ حضارة القوم وعلومهم وتقنياتهم على صورتها التى يقدمونها بها ؛ لنتعايش معهم ؟ أى نمسخ أنفسنا ونتخلى عن مقوماتنا التى ميزنا الله بها ، من أجل أن نحصل على منزل « بالإيجار » من جبابرة القرية الظالمة المتعصبة ضدنا بعصبيات الجاهلية ؟!

وأين هى الوحدة المزعومة فى تلك القرية ؟!

ولماذا يباح لفرنسا ـ أو فرنسا وألمانيا ، أو أوروبا المتحدة ـ أن تناوئ أمريكا فى داخل «القرية الواحدة » ، ويباح للصين أن تسكن خارج القرية ، ويباح لليابان أن تسكن ضاحية خاصة على مشارف القرية ، ويطلب من المسلمين وحدهم أن يتنازلوا عن ذاتيتهم ، لكى يساكنوا أصحاب القرية الظالمين ؟!

هذا من جهة التعايش مع سكان القرية . .

ومن جهة أخرى فإن الظن بأن « التكنولوجيا » تصنع الإنسان ، إنما هو استخذاء من «إنسان العصر » أمام « المادة » بعد أن فقد ذلك الإنسان مقومات إنسانيته !

لقد خلق الله الإنسان ؛ ليكون هو السيد فى الأرض بإذنٍ من الله :

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ [2] .

وكلفه عمارة الأرض ، ويسّرها له ، وسخر له من أجل القيام بهذه المهمة ما سخّر من طاقات السموات والأرض : ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ [3] .

﴿ وسخّر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه ﴾ [4] .

وكل « التكنولوجيا » التى صنعها الإنسان كانت من أجل تحقيق عمارة الأرض؛ ليكون هو السيد فيها بإذن ربه . . ولكن الإنسان المعاصر استخذى أمام ما صنعه بيديه ، فصار عبدًا للآلة ، كما كان فى الجاهليات الوثنية القديمة ينحت الصنم بيديه ثم يعبده !

وهكذا الإنسان حين يفقد صلته بالله ، فإنه يستعبد نفسه للآلهة المزعومة ، ويفقد

---

(١) البقرة : ٢١٧ . (٢) البقرة : ٣٠ .

(٣) هود : ٦١ . (٤) الجاثية : ١٣ .

حريته إزاءها ، فتحكمه الأوهام والأهواء والشهوات ، سواء كانت أوهامه الذاتية ، وأهواءه وشهواته الذاتية ، أم كانت مفروضة عليه من الذين استكبروا فى الأرض من أصحاب السلطان .

أما صاحب العقيدة فلا تستعبده الآلة ، ولا تستعبده الأهواء والشهوات ، لأنه يعبد الله وحده بلا شريك ، فيتحرر بذلك من ذل العبوديات الزائفة لغير الله .

أفيريد الذين يرغبون فى مساكنة أصحاب القرية الظالمة أن تستعبدنا « ثورة التكنولوجيا» كما استعبدتهم وتأكل إنسانيتنا كما أكلت إنسانيتهم ، من أجل أن نحصل على نصيب من « التقدم » و « الحضارة » وننفضَ عن أنفسنا وصمة التخلف ، ونعيش « بروح العصر » ؟

أما أننا متخلفون فى جميع الميادين . . فنعم !

وأما أن طريقنا لإزالة التخلف هو اتباع منهجهم . . فلا !

إنما طريقنا أن ننطلق من « لا إلّه إلا الله » ، ثم نسعى لاكتساب كل أدوات التقدم العلمى والتكنولوجى بعد إخضاعها لمقتضيات لا إلّه إلا الله ، فنكون أولاً أحرارًا فى الأرض، مستمدين تحررنا من عبادة الله وحده بلا شريك ، ثم نكون بعد ذلك هداة لسكان القرية الظالمة ، نهديهم إلى سبيل الرشاد ، بدلاً من أن نكون تبعًا لهم فيسحقوننا بأقدامهم كما يفعلون الآن .

وفى جميع الأحوال لابد لنا بادئَ ذى بدء أن نؤمن إيمانًا راسخًا أن لا إلّه إلا الله بمقتضياتها الشاملة ، هى ـ دون غيرها ـ التى تحقق الفلاح والخير فى الدنيا والآخرة بالمعايير الحقيقية الصحيحة ، ولابد لنا ثانيًا أن نتحرك نحو الإصلاح المنشود بدافع من تحقيق لا إلّه إلا الله فى واقع الأرض ، وليس انطلاقًا من أى دافع آخر ، قد يختلط فيه الإيمان بلون من ألوان الشرك كما قال تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ [1] . ولابد لنا فى الوقت ذاته أن نقوم بما نقوم به منضبطين بالضوابط الشرعية التى تفرضها ـ وتبينها ـ «لا إلّه إلا الله » كما وردت فى كتاب الله :

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ [2].

---

(١) يوسف : ١٠٦ . (٢) الأحزاب : ٣٦ .

وبهذا وحده نحقق الوجود الذى نرجوه للأمة الإسلامية ، ونحقق الخيرية التى كتبها الله لهذه الأمة حين تقوم برسالتها على وجهها الصحيح :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾[1] .

ومن أجل بيان هذه الحقيقة ، حقيقة الشمول فى المنهج الربانى المتمثل فى لا إلّه إلا الله ، كتبت هذه الصفحات . .

اللهم إن يتحقق بها شىءٍ من النفع فهو فضلك الذى أنعمت به علىّ ، وإلا فبحسبى نيتى أحتسبها عند الله :

﴿ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ﴾[2] .

محمد قطب

---

(١) آل عمران : ١١٠ .

(٢) هـــــود : ٨٨ .

تمهيـــد

كانت دعوة الرسل جميعًا إلى أقوامهم دعوة واحدة ، هى دعوة التوحيد : لا إلّه إلا الله . . اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره . .

وفى أكثر من سورة من سور القرآن (وبخاصة سورة الأعراف وسورة هود وسورة الشعراء) يأتى تسلسل مقصود لتاريخ الرسل الذين أرسلوا إلى أقوامهم ، كل رسول يقول الكلمة ذاتها ، ويمضى ، فيجىء الرسول الذى يأتى بعده فيقول ذات الكلمة ، حتى لكأنهم رسول واحد على اختلاف الزمن واختلاف لغات الأقوام :

﴿ ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه إنى لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ [١] .

﴿ وإلى عاد أخاهم هودًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره . . ﴾ [٢] .

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره . . ﴾ [٣] .

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره . . ﴾ [٤] .

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إلّه إلا أنا فاعبدون . . ﴾ [٥] .

وتشير الآية الكريمة من سورة الحاقة إلى أن الأقوام كلهم عصوا « رسول ربهم » والمقصود بطبيعة الحال أن كل أمة عصت رسولها الذى أرسل إليها ، ولكن توحيد لفظ الرسول له دلالة واضحة : أن الرسل جميعًا كأنهم رسول واحد ؛ لأنهم كلهم جاءوا بدعوة واحدة ، لااختلاف فيها :

﴿ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ، فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾ [٦] .

---

(١) هود : ٢٥ ـ ٢٦ . (٢) هـــود : ٥٠ . (٣) هــود : ٦١ .

(٤) هود : ٨٤ . (٥) الأنبياء : ٢٥ . (٦) الحاقة : ٩ ـ ١٠ .

ويلفت النظر فى هذه الآيات ـ ومثلها فى القرآن كثير ـ أن الرسل الكرام لم يرسلوا إلى أقوامهم ليقولوا لهم إن هناك إلـهًا . . فالفطرة تعرف ذلك دون رسول ! ولا ليقولوا لهم : اعبدوا الإلّه الذى تعرفون وجوده ، فالفطرة تتوجه إلى عبادة الإلّه الذى تعرفه، تلقائيًا بغير رسول ، وإن غشيتها الغواشى واجتاحها الضلال !

﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ! شهدنا ! ﴾ [1].

إنما كانت مشكلة الجاهليات كلها أنها تشرك مع الله آلهة أخرى ، وتجسد الإلّه فى صورة محسوسة تلمس وترى ، فيجىء الرسل فيدعون قومهم إلى عبادة الله الواحد ، الذى يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار .

وحتى الدهريون الذين قالوا : ﴿ ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ [2] ـ يقصدون بالدهر مرور الزمن ، كما قال المتنبى فى شعره : « إذا قلت شعرًا أصبح الدهر منشدًا » يقصد أن شعره باق على الزمن ترويه الأجيال المتعاقبة ـ حتى هؤلاء لانستطيع أن نجزم من لفظ الآية أنهم أنكروا وجود الله . . فقد نسبوا الإهلاك للدهر ـ بمعنى مرور الزمن كما أسلفنا ـ فآمنوا ـ كالجاهلية المعاصرة ـ بالأسباب الظاهرة ، وجعلوها هى الفاعلة بذاتها ، ولكن هذا لا يلزم منه حتمًا أنهم ينكرون وجود الله . فكثير من مشركى الجاهلية المعاصرة اليوم لا ينفون وجود الله ، ولكنهم ينسبون الفاعلية فى الكون « لقوانين الطبيعة » ! ويتحدثون عنها كأنها هى ذات قوة حتمية !

أما الذى نجزم به من كلام أولئك الدهريين فهو أنهم ينكرون البعث إنكارًا جازمًا ويقولون « ما هى إلا حياتنا الدنيا » ، وهم فى هذا لا يختلفون عن سائر مشركى العرب الذين كانوا ينكرون البعث مع أنهم مؤمنون بوجود الله . فقد أثبت القرآن عليهم إقرارهم بوجود الله سبحانه وتعالى ، وأنه هو الخالق ، وهو رب العرش الكريم ، وهو الذى بيده ملكوت كل شىء :

﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ! قل : أفلا تذكَّرون ؟ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله ! قل : أفلا تتقون ؟ قل من

---

(١) الأعراف : ١٧٢ .　　(٢) الجاثية : ٢٣ .

بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ! قل : فأنى تسحرون ؟ ﴾ [1] .

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ﴾ [2] .

﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها؟ ليقولن الله﴾ [3] .

ومع إقرارهم بهذا كله فقد كانوا لا يؤمنون بالبعث ، بل لا يكادون يتصورون وقوعه ! وكانوا يعجبون من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؛ لأنه يحدثهم عنه ، ويقول بعضهم لبعض .

﴿ هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ؟! أفترى على الله كذبا أم به جنة ؟! ﴾ [4] .

وإذا افترضنا جدلاً أن الدهريين كانوا ينكرون وجود الله ، مستدلين بكونهم ينسبون الإهلاك للدهر لا لله سبحانه وتعالى ، وهى دلالة غير جازمة إذا نظرنا إلى أحوال كثير من الناس فى الجاهلية المعاصرة ، فمن الواضح من تتبع آيات القرآن ومن استقراء التاريخ أنهم لم يكونوا هم الصورة الغالبة للجاهليات ، إنما كثر هذا النوع المنكر لوجود الله فى الجاهلية المعاصرة لظروف غير طبيعية أشرنا إليها فى غير هذا الكتاب [5] . وقد رأينا ـ على سبيل المثال ـ أنه بمجرد انهيار الشيوعية عاد الناس فى أوربا إلى دينهم ـ وإن كانوا فيه على ضلالة ـ مما يدل على أن الإلحاد الذى نشرته الشيوعية لم يكن أصيلاً فى النفوس ، إنما كان عارضًا فرضته الدولة على الناس بالحديد والنار والتجسس !

* * *

الضلال الأكبر الذى تقع فيه الجاهليات كما أسلفنا هو الشرك ، وتجسيم الإله فى صور محسوسة ، بالإضافة إلى إنكار البعث [6] . ويرسل الله الرسل صلوات الله وسلامه عليهم

---

(١) المؤمنون : ٨٤ـ٨٩ .
(٢) العنكبوت : ٦١ .
(٣) العنكبوت : ٦٣ .
(٤) سبأ : ٧ـ٨ .
(٥) اقرأ إن شئت فصل « الإلحاد » من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » .
(٦) ليس كل الجاهليات كانت تنكر البعث . فقد كانت الجاهلية الفرعونية تعرفه وتعرف تفاصيل كثيرة عنه ، مما يرجح أنه أرسل إليها رسول فنسيت تعاليمه ولكنها ظلت تذكر البعث ، وإن اختلط علمهم به بجهل الجاهلية ، فكانوا يحنطون الجثث لتظل سليمة إلى يوم البعث ، لتجدها الروح وتحل فيها مرة أخرى !

ليرتفعوا بالبشرية إلى مستوى التوحيد ، وتنزيه الله ـ عز وجل ـ عن الشبيه . .

ولقد خلق الله الناس على الفطرة موحدين :

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [١] .

« ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » [٢] .

فالفطرة تعرف التوحيد ولكن البيئة المنحرفة هى التى تفسد الفطرة . . وتلك قصة الإنسان على الأرض . .

الفطرة فى أحسن تقويم . . والبيئة المنحرفة تردها أسفل سافلين . . إلا أن تكون من المؤمنين :

﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ [٣] .

إن الإنسان الذى أسجد الله له الملائكة وفضله على كثير ممن خلق ، قد ميزه الله بمزايا كثيرة منها القدرة على الإيمان بالغيب ، والإيمان بما لا تدركه الحواس ، فصار يؤمن بالله على الغيب ، ويؤمن به سبحانه على غير شبيه مما تدركه الحواس :

﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ [٤] .

﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ [٥] .

ولكن الإنسان لا يحافظ على مزاياه تلك إلا أن يظل على فطرته السوية ، لا تفسده البيئة المنحرفة . فإذا أفسدته البيئة ظل يهبط من القمة العالية التى خلقه الله عليها ، حتى يغشّى روحه الضباب والغبش، فتفقد صفاءها الذى خلقها الله عليه، وتعجز عن الإيمان بالغيب، والإيمان بما لا تدركه الحواس ، فتطلب إلهًا محسوسًا تراه وتلمسه ، وتتعبد إليه!

أو تهبط هبوطًا من نوع آخر . .

إنها ـ بسبب هذا الغبش الذى يغشّى على صفائها ـ تستهول المدى الذى « يفصلها » عن ربها فتشعر بالوحشة ! فتروح تطلب أنيسًا قريبًا تأنس إليه ، تراه وتلمسه ؛ ليكون وكيلاً عن الله ، أو شفيعًا يقربها من الله ، أو واسطة بين العبد ومولاه ! وهى حالة مرضية

---

(١) الروم : ٣٠ .　　(٢) متفق عليه .　　(٣) التين : ٤ ـ ٦ .

(٤) الشورى : ١١ .　　(٥) الأنعام : ١٠٣ .

تصيب الأرواح فتعميها عما كانت تدركه فى صحتها ، فتقع فى الشرك الذى هو السمة العامة للجاهلية .

أو يأتيها الشرك من طريق آخر . .

طغاة يتجبرون فى الأرض ، يستضعفون أولئك الذين غشى الغبش أرواحهم ، فيستعبدونهم ، فيحلون لهم ويحرمون بغير ما أنزل الله ، فيطيعونهم ، فيتخذونهم أربابًا من دون الله . .

ويبعث الله الرسل ليجلوا عن أرواح البشر غبشها ، ويردوها إلى صفائها الفطرى ، فتؤمن بالله على الغيب ، وتؤمن بما لا تدركه الحواس ، وتعبد الله وحده بلا شريك ، فلاتعتقد فى إلّه غيره ، ولا توجه عبادتها لإلّه غيره ، ولا تحل ولا تحرم شيئًا من دونه .

ويحتاج البشر فى كل مرة إلى معجزة تهزهم . . تهزهم هزة عنيفة تسقط الران الذى غشّى على أرواحهم ، فيعود إليها صفاؤها ، فتتصل بالله بلا وسيط ، وتأنس إليه على بعد «المدى» بين الخالق والمخلوق ، فإنه سبحانه قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه :

﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ [1] .

وما كان خاتم النبيين ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدعا من الرسل :

﴿ قل : ما كنت بدعا من الرسل ، وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ، إن اتبع إلا مايوحى إلىّ ، وما أنا إلا نذير مبين ﴾ [2] .

غير أنه أرسل إلى البشر كافة وكان الرسل قبله يرسلون إلى أقوامهم خاصة ، وجاء بالرسالة التى اكتمل بها الدين فلا رسالة بعدها ، وكانت معجزته فريدة فى بابها : قرآنا يتلى إلى يوم القيامة .

* * *

جاء الرسل كلهم بلا إلّه إلا الله . .

ولكن الكتب السماوية السابقة حرفت ، ولم يبق إلا القرآن على حاله كما كان يوم أنزل ، وكما هو فى اللوح المحفوظ ، لأن الله هو الذى تكفل بحفظه ، ولم يكل حفظه للبشر كالكتب السابقة :

---

(١) البقرة : ١٨٦ .   (٢) الأحقاف : ٩ .

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون ﴾[1] .

وما ندرى كيف كانت « لا إلّه إلا الله » معروضة فى الكتب السابقة قبل تحريفها . ولكنا نراها فى القرآن ملء الساحة كلها ، مشرقة وضيئة ، تدخل إلى النفس من جميع أقطارها ، وتخاطب الوجدان والعقل معًا ، حتى يمتلئ القلب البشرى بلا إلّه إلا الله .

إن الله لم ينزل « لا إلّه إلا الله » ؛ لتكون مجرد كلمة تنطق باللسان . إنما أنزلها ؛ لتشكل واقع الكائن البشرى كله ، لترفعه إلى المكان اللائق به . . الذى فضله الله به على كثير ممن خلق . . ترفعه من كل ثقلة تقعد به عن الصعود إلى تلك المكانة العالية ومحاولة الاستقامة عليها ، سواء كانت ثقلة الشهوات اللاصقة بالطين ، أو ثقلة « الران » الذى يرين على الأرواح ، أو ثقلة « الضرورات » التى تقهر الإنسان وتذله لطغاة الأرض المتجبرين . . ترفعه فردًا وجماعة وأمة ، ليتكون فى الأرض المجتمع الصالح الذى يريده الله ، وتقوم فى الأرض أمة لا إلّه إلا الله .

ولا يتم هذا كله بكلمة تنطق باللسان . . إنما يتم بحقيقة حية تملأ الكيان البشرى كله وتسرى فى أعماقه ، وتنبض نبضًا حيًا يحرك كل ذرة فيه ، فتنطلق شحنته كاملة ، تجتث الفساد من الأرض وتستنبت الخير . .

* * *

تعنى « لا إلّه إلا الله » عبادة الله وحده دون شريك ، والالتزام بما جاء من عند الله .

فالألوهية فى جانب الله تقتضى العبودية فى كل من سواه . وإذا انتفت الألوهية عن كل شىء وكل أحد وكل كائن فى هذا الوجود كله ، وثبتت لله وحده ، فمعنى ذلك أن الإلّه الذى يعبد بحق هو الله ، ولا يعبد سواه ، لأن كل من سواه ليس إلهًا ، فلا تجوز له العبادة التى يجب أن تتمحض لله وحده بلا شريك . .

وتلك القضية على بساطتها ، هى قضية القضايا فى حياة الإنسان . . هى المحور الذى ترتكز إليه حياته كلها ، وتقوم عليه . . ولم يكن بسطها فى القرآن الكريم ـ كما أشرت فى غير هذا الكتاب[2] ـ بسبب أن المخاطبين الأوائل بهذا القرآن كانوا مشركين ، فقد خوطب بها المؤمنون فى المدينة كذلك :

---

(١) الحجر : ٩ .

(٢) فى كتاب « دراسات قرآنية » وكتاب « واقعنا المعاصر » وكتاب « مفاهيم ينبغى أن تصحح » .

﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزّل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل. ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيدًا﴾[1] .

﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا . . . ﴾ [2] .

﴿ ومن أحسن دينًا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا ؟! ﴾ [3] .

﴿ ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البَأس . أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون﴾[4] .

إنها السبب أن الإنسان عابد بفطرته . . وهو إما أن يعبد الله وحده بلا شريك ، وإما أن يعبد آلهة أخرى غير الله ، معه ، أو من دونه سواء !

إنه لا يوجد من لا يَعْبُد . . . وحين يدعى ذلك إنسان ، ويتوهم أنه « طليق » من كل عبادة ، فهو الذى قال الله عنه :

﴿ أفرأيت من اتخذ إلَهه هواه ؟! ﴾ [5] .

إنه حتى فى هذه الحالة « عابد » . . ولكنه عابد لغير الله .

وحين يكون الأمر على هذا النحو ، فالقضية ليست قضية « العبادة » فى ذاتها ، فكل الناس عابد ! وإنما هى قضية « العبادة الصحيحة » . . أو قل إنها قضية « المعبود » !

من المعبود ؟! آلله الذى لا إلَه إلا هو ؟ أم آلهة أخرى ـ معه أو من دونه ـ لا ألوهية لها فى الحقيقة ، ومن ثم فلا تجوز لها العبادة ولا الطاعة ولا الانصياع ؟

وتلك قضية البشرية فى التاريخ كله ، وستظل هى القضية حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وبقدر ما تصغِّر الجاهلية المعاصرة من هذه القضية ؛ لتدارى سوأتها ، وتبرر انحرافاتها . . يتركز الحديث فى كتاب الله على هذه القضية ذاتها ، بقدر مالها من الأهمية

---

(١) النساء : ١٣٦ . (٢) النساء : ٣٦ . (٣) سورة النساء : ١٢٥ .
(٤) البقرة : ١٧٧ . (٥) الجاثية : ٢٣ .

فى واقع حياة الإنسان ، لا فى الحياة الدنيا وحدها ، ولكن فى الآخرة كذلك ، وهى الأطول والأدوم وهى « الحيوان » ، أى الحياة الدائمة التى تستحق أن تعاش . .

﴿ . . وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ [1] .

فعلى أساس هذه القضية يتحدد منهج حياة الإنسان فى الأرض : اعتقاده وفكره ، أخلاقه وسلوكه ، تصوراته وتصرفاته ، علاقته بربه وعلاقته بنفسه ومجتمعه ، وعلاقته بالكون كله من حوله . . حربه وسلمه ، سياسته و اقتصاده ، علومه وفنونه . . وكل شىء فى حياته .

وعلى أساس هذه القضية ذاتها يتحدد مصيره فى الآخرة : إلى الجنة أو النار . . إلى نعيم مقيم أو عذاب مقيم . .

هل يمكن أن يوجد فى حياة الإنسان أخطر من هذه القضية التى تجمع فى طياتها قضايا الوجود كله ؟!

ومع ذلك تصغّر الجاهلية المعاصرة من شأنها حتى لتكاد تطمس آثارها . . ؛ لتخرج الناس من عبادة الله إلى عبادة الشيطان ، وتخرجهم من النور إلى الظلمات :

﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ؟ وأن اعبدونى ، هذا صراط مستقيم ﴾ [2] .

﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [3] .

* * *

« لا إله إلا الله » معناها عبادة الله وحده ، والالتزام بما جاء من عند الله .

فأما مبدأ الالتزام فلم يتغير ـ وليس من طبيعته أن يتغير ـ من رسالة إلى رسالة خلال التاريخ ، لذلك جاءت قصص الأنبياء فى القرآن الكريم موحدة الصورة موحدة الألفاظ : « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » .

أما تفاصيل الالتزام ـ أو قل تفاصيل المقتضيات المترتبة على لا إله إلا الله ـ فقد تغيرت

---

(١) العنكبوت : ٦٤ . (٢) يس : ٦٠ ـ ٦١ .

(٣) البقرة : ٢٥٧ .

من رسالة إلى رسالة ، حتى جاءت الرسالة الأخيرة التى أنزلت على الرسول الخاتم ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وقد ورد فى القرآن الكريم إشارة إلى بعض هذه المقتضيات التى أنزلت لإصلاح انحرافات معينة فى سلوك تلك الأمم ، وهى ليست بالضرورة كل ما نزل من عند الله على هؤلاء الأقوام .

فقد قيل لعاد : ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ؟ وإذا بطشتم بطشتم جبارين ؟ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ [1] .

وقيل لثمود : ﴿ أتتركون فيما هاهنا آمنين ، فى جنات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتًا فارهين ؟ فاتقوا الله وأطيعون ، ولا تطيعوا أمر المسرفين ، الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴾ [2] .

وقيل لقوم لوط : ﴿ أتأتون الذكران من العالمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ؟ بل أنتم قوم عادون ﴾ [3] .

وقيل لأصحاب الأيكة : ﴿ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ [4] .

فاختلفت التوجيهات الربانية باختلاف انحرافات تلك الأقوام ، وإن كانت ـ بالنسبة لكل قوم ـ داخلة فى المقتضى العام للا إله إلا الله ، وهو الالتزام بما جاء من عند الله .

وعند هذا الحد نلحظ ملاحظة مبدئية : أن « لا إله إلا الله » لم تكن قط عقيدة فحسب، إنما كانت دائمًا ـ إلى جانب العقيدة ـ توجيهات ربانية تتناول جوانب الحياة المختلفة . ومع أنه لم يرد عنها ذكر مفصل فى القرآن الكريم بالنسبة للأقوام الأولى، إلا أنه قد ورد منها ما يكفى لبيان « نوعيتها » . فهى تارة توجيهات اجتماعية خلقية (كما هو الحال مع قوم لوط) وتارة اجتماعية « نفسية » لمعالجة الكبر والطغيان فى الأرض والاعتزاز بالقوة المادية (كما هو الحال مع عاد) وتارة اجتماعية اقتصادية (كما هو الحال مع أصحاب الأيكة) .

كما نلحظ ملاحظة أخرى : أن تلك الأقوام الجاهلية قد استنكرت من رسولها أن

---

(١) الشعراء : ١٢٨ ـ ١٣١ .

(٢) الشعراء : ١٤٦ ـ ١٥٢ .

(٣) الشعراء : ١٦٥ ـ ١٦٦ .

(٤) الشعراء : ١٨١ ـ ١٨٣ .

يتدخل « الدين » الذى جاء به فى شئونهم الدنيوية ، التى خيَّل لهم الوهم الجاهلى أنها من شئون البشر ، يحلون فيها ويحرمون كما يحلو لهم ، وليس « للدين » أن يتدخل فيها !

وأبرز نموذج لهذه القضية اعتراض قوم شعيب على رسولهم : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ، إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولاتبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ [1] إذ أنهم لم يعترضوا على الجانب العقدى من الدعوة وحده ، حين دعاهم رسولهم إلى نبذ الآلهة الزائفة وعبادة الله وحده ، إنما اعترضوا بروح « علمانية » على تدخل الدين فى شئونهم « الحياتية » !

﴿ قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء؟! إنك لأنت الحليم الرشيد !﴾ [2].

* * *

وفى مرحلة أخرى من مراحل نموالبشرية أنزل الله التوراة على بنى إسرائيل :

﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشونِ ، ولا تشتروا بآياتى ثمنًا قليلاً . **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** . وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له . **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ [3].

ثم بعث الله عيسى ابن مريم رسولاً إلى بنى إسرائيل ، مصدقًا لما بين يديه ، وليحل لبنى إسرائيل بعض الذى حرم عليهم بكفرهم : ﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقًا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ، ومصدقًا لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾ [4].

---

(١) هـود : ٨٤ـ٨٥ . (٢) هـود : ٨٧ .

(٣) المائدة : ٤٤ـ٤٥ . (٤) المائدة : ٤٦ـ٤٧ .

﴿ ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله ، وأبرئُ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم . إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . ومصدقًا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون ﴾ [1] .

ونلاحظ هنا ملاحظات . .

إننا هنا أمام مقتضياتَ للا إلّه إلا الله لم تنزل لمواجهة انحرافات معينة وقع فيها القوم الذين أرسل إليهم الرسول ، إنما هى توجيهات ابتدائية ، هدفها إقامة « أمة » على نهج ربانى ؛ أمة لها مشخصات خاصة ، يقوم بناؤها على رابطة العقيدة : رابطة لا إلّه إلا الله (وإن اجتمعت لها روابط أخرى قومية ، أو عرقية وأو لغوية . . إلخ) ويكون أساس حياتها التشريع الربانى والتوجيهات الربانية ، لتكون « أمة ربانية » ، ووُصِلَتْ لها هذه التشريعات والتوجيهات بأصل العقيدة ـ بلا إلّه إلا الله ـ فقيل لها فى وضوح وصراحة : «**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**» فاتصل الحكم بما أنزل الله فى حياتها بأصل الاعتقاد : بقضية الكفر والإيمان . ومن ثم فهى ليست « توجيهات أخلاقية ، يأخذ الناس بها أو لا يأخذون ، ويأخذون منها ما يعجبهم ، أو يتركون ، إنما هى إلزام ، وإلزام متصل بأصل الإيمان . . فلا إيمان إلا بالحكم والتحاكم إلى ما أنزل الله .

وقد نلاحظ كذلك أن هذا الأمر : وهو ارتباط التشريع بالعقيدة ، ونزول مقتضيات للاإلّه إلا الله تشتمل على « دستور » كامل [2]، قد ارتبط به قيام « أمة » قدّر الله لها فى علمه أنها أمة باقية فى الأرض إلى قيام الساعة [3] . .

ثم انحرفت هذه الأمة انحرافات كثيرة عن مقتضيات لا إلّه إلا الله التى أنزلها الله عليها

---

(١) آل عمران : ٤٩ ـ ٥٠ .

(٢) كان هذا الدستور وافيًا بمتطلبات تلك الأمة فى الأمد الذى قدره الله لبعث رسول جديد بدستور أكمل .

(٣) ورد فى شأن اليهود فى القرآن الكريم : ﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ [الأعراف : ١٦٧] وفى ذلك إشارة إلى بقاء هذه الأمة إلى يوم القيامة رغم انحرافاتها التى أخرجتها من رحمة الله فى الدنيا والآخرة .

لتكون « أمة ربانية » . . فحولت رسالتها ، لتكون أمة عرقية منحصرة فى داخل نفسها [(١)]، وخَيَّل لها الوهم الشيطانى أنها « شعب الله المختار » بذاتها ، ولصفات معينة فيها ليست فى غيرها ، وليس لأنها كانت ـ وقت اختيارها ـ مؤمنة بالله على بصيرة . . وحرفت عقيدتها فقالت عزير ابن الله ، وحرفت شريعتها فأبقت منها ما أبقت وأزالت ما أزالت ، ولوت أعناق ما نزل إليها ، ليوافق أهواءها [(٢)]. . فأرسل الله لها أنبياء لا يحصيهم العد ، ثم أرسل إليها فى النهاية رسولاً جديدًا ، ليستحيى منها من يصلح للاستحياء ، وتكتب اللعنة على الكافرين . .

وجاء عيسى ـ عليه السلام ـ ؛ لينقى لمن استحياهم من الأمة الأولى عقيدتهم ، ويردها إلى التوحيد الخالص ، ويربط بالتوحيد التحاكم إلى ما بقى معتمدًا من أحكام التوراة ، مع التعديلات التى جاء بها الإنجيل ، وليكون هذا وذاك من أصل الإيمان بلا إلّه إلا الله ، ولتكون « الأمة الربانية » الجديدة هى « الذين قالوا إنا نصارى » ، أمة تؤمن بالله على بصيرة، وتحكم بما أنزل الله . .

ولكن « الذين قالوا إنا نصارى » لم يستقيموا طويلاً على طريق الله . .

فمن ناحية العقيدة قالوا إن المسيح ابن الله ، وقالوا إن الله ثالث ثلاثة ، فأفسدوا عقيدة التوحيد الصافية . ومن ناحية أخرى فصلوا العقيدة عن الشريعة فلم يحكموا بما أنزل الله ، وإنما بما قرر قيصر ، زاعمين أن المسيح ـ عليه السلام ـ هو الذى وجههم لذلك إذ قال لهم : أدّ ما لقيصر لقيصر وما لله لله! وجعلوا أحكام الشريعة « توجيهات أخلاقية » يأخذ بها الأتقياء بدافع التقوى ، وليست إلزامًا كما قررها الله ؛ ليلتزم بها كل الذين قالوا إنا نصارى بلا خيار .

---

(١) يدعى اليهود نقاء « دمائهم » وكونهم كلهم من بنى إسرائيل ، وهى دعوى يكذبها الواقع . فاليهود الشقر ، الزرق العيون ، ليسوا بالتأكيد من بنى إسرائيل ، ولا من الجنس السامى الأسمر البشرة ذى العيون الداكنة ، ولكنهم من يهود دولة الخزر الذين تهودوا فى القرن العاشر الميلادى ثم دهمهم الروس فى القرن الرابع عشر فشتتوهم فى بقاع أوربا المختلفة . كما أن تقرير الدستور اليهودى أن اليهودى من كانت أمه يهودية ، معناه ضرب الصفح عن الآباء . . من أى جنس كانوا !!

(٢) فى التوراة المنزلة نص يحرّم الربا ولكنهم حرفوه ؛ ليجعلوا التحريم مقصورًا على التعامل بين اليهود بعضهم وبعض ، أما « الأميون » ـ أى كل الأمم من غير اليهود ـ فقد أباحوا كل أموالهم بالربا وغيره ، وقالوا « ليس علينا فى الأميين سبيل » [آل عمران : ٧٦].

وجاء شاول اليهودى ـ الذى زعم الإيمان بالمسيح بعد أن كان من أشد أعدائه ، ومن أقساهم على أتباعه ـ فنشر هذا « الدين » المحرف زاعمًا أنه هو الدين السماوى المنزل من عند الله ، وأذاعه فى رقعة واسعة من الأرض ، بينما هو ـ فى أصله المنزل ـ لم يكن رسالة عالمية ، إنما كان موجهًا إلى الأمة الأولى لاستحياء من يصلح للاستحياء منها ، ليحملوا الشعلة المقدسة ـ شعلة التوحيد والإيمان ـ حتى يحين الوقت المقدر فى علم الله لإرسال الرسول الخاتم ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وكان فى قدر الله أن تبقى هذه الأمة ـ رغم انحرافاتها ـ إلى يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ، فنسوا حظًا مما ذكروا به ، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى **يوم القيامة** ، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾[1] .

ولكن « الدستور » الذى نزل إليهم فى الإنجيل ـ والذى أمروا أن يحكموا بما أنزل الله فيه ـ كان معدًا ـ بعلم الله ـ ؛ ليفى بمتطلبات تلك الأمة فى الأمد المحدود الذى قدر الله بعده أن ينزل الدستور الكامل الشامل الذى يبقى محفوظًا بحفظ الله ، ليحكم حياة البشرية كلها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . .

وذلك هو القرآن . .

﴿ كتاب فصلت آياته قرآنًا عربيًا لقوم يعلمون ﴾ [2] .

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [3] .

﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ [4] .

﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرًا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ [5] .

وفى الرسالة الأخيرة اتسعت « مقتضيات لا إله إلا الله » ؛ لتستوعب كل متطلبات المجتمع الصالح ، ولتقوم عليها حياة « الأمة الربانية » التى أخرجها الله لتكون خير أمة

---

(١) المائدة : ١٤ . (٢) فصلت : ٣ .
(٣) سبأ : ٢٨ . (٤) التكوير : ٢٧ .
(٥) المائدة : ١٥ـ١٦ .

أخرجت للناس ، ولتكون شاهدة على الناس إلى يوم القيامة :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ،تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[1] .

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا﴾ [2] .

وفى الفصول التالية تفصيلٌ لمقتضيات لا إلّه إلا الله كما جاءت في رسالة الرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام .

---

(١) آل عمران : ١١٠ .

(٢) البقرة : ١٤٣ .

مقتضيات
لا إلّه إلا الله
فى الرسالة المحمدية

﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ [1] .

كان فى تقدير الله أن تكون الأمة التى تحمل الرسالة الخاتمة هى أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأن تكون هذه الرسالة موجهة إلى البشرية كافة ، وأن يكتمل فيها الدين ، وأن تتسع لكل احتياجات البشرية إلى قيام الساعة . . وأن يكون هذا كله مرتبطًا فى حياتها بلاإلّه إلا الله . .

إن لا إلّه إلا الله ـ كما رأينا فى التمهيد السابق ـ تعنى عبادة الله وحده بلا شريك ، والالتزام بما جاء من عند الله . ورأينا فى التمهيد كذلك أن مقتضيات هذا الالتزام قد ظلت تنمو مع نمو البشرية ـ وإن بقى المبدأ واحدًا لا يتغير ـ حتى جاءت الرسالة الخاتمة ، فبلغت المقتضيات نموها الأخير ، وقال تعالى :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾[2] .

فتعددت هذه المقتضيات وتشابكت ، لتشمل جوانب الحياة كلها ، ولتشملها متكاملة مترابطة ، فأصبحت هى منهاج الحياة الذى يريد الله للبشرية أن تسير عليه ، لتنعم به فى الدنيا ، وتنال رضوان الله فى الآخرة ، يوم يقول الله لهم : ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ، لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك الفوز العظيم ﴾ [3] .

---

(١) الأنعام : ١٢٤ . (٢) المائـدة : ٣ . (٣) المائـدة : ١١٩ .

ولأن « لا إلّه إلا الله » ـ فى الرسالة الأخيرة ـ قد حملت من المقتضيات ـ أو سَمِّها التكاليف ـ مالم تحمله فى أية رسالة سابقة ، فقد لزم فى تقدير الله أن تكون وثيقة جدًا وعميقة جدًا فى حس الأمة التى تحملها ، حتى تكون كفئًا للمهمة الضخمة المنوطة بها ، لا فى حياة الأمة المسلمة ذاتها فحسب . . بل فى حياة كل البشرية ، حيث عُلِمَ من كتاب الله أن هذه الأمة لم تُخْرَجْ ؛ لتستقيم على أمر ربها فى ذات نفسها فحسب ـ كما كان المطلوب من الأمم السابقة كلها ـ ولكن لتكون رائدة وشاهدة على كل البشرية .

من أجل هذا يوثّق القرآن « لا إلّه إلا الله » فى قلب هذه الأمة ، ويعمّق غرسها ، ويُمَتِّن ارتباطاتها ، ويجعل هذا جزءًا من خيريتها التى كتبها الله لها : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس . . ﴾ [1] .

بكل الوسائل والأدوات يتم التوثيق ، ويتم التعميق . .

مرة بعرض آيا ت الله فى الكون ، الدالة على عظمته وقدرته وعظيم سلطانه :

﴿ قل : أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادًا ؟! ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينّا السماء الدنيا بمصابيح وحفظًا ، ذلك تقدير العزيز العليم﴾ [2] .

﴿ وإلّهكم إلّه واحد لا إلّه إلا هو الرحمن الرحيم . إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ [3] .

﴿ وهو الذى يريكم البرق خوفًا وطمعًا وينشئ السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال . له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا

---

(١) آل عمران : ١١٠ . (٢) فصلت : ٩ ـ ١٢ .

(٣) البقــــرة : ١٦٣ ـ ١٦٤ .

كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾ [1].

﴿ إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحيّ من الميت ومخرج الميت من الحى . ذلكم الله فأنى تؤفكون ؟ فالق الإصباح وجعل الليل سكنًا والشمس والقمر حسبانًا ، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ، فمستقر ومستودع . قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرًا نخرج منه حبًا متراكبًا ، ومن النخل من طلعها قنوانٌ دانيةٌ وجناتٍ من أعنابٍ والزيتون والرمان مشتبهًا وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ [2].

﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخّر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارًا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ [3].

ومرة بتذكير الإنسان بنعم الله التى أفاضها عليه :

﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم ، وسخّر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخّر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخّر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ [4].

﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفًا ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكّرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحمًا طريًا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك

---

(١) الرعد : ١٢ ـ ١٤ . (٢) الأنعام : ٩٥ ـ ٩٩ .

(٣) الرعد : ٢ ـ ٣ . (٤) إبراهيم : ٣٢ ـ ٣٤ .

مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم، وأنهارًا ، وسبلاً لعلكم تهتدون ، وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون ﴾ [1] .

ومرة بعرض مشاهد القيامة ، من بعث وحشر وحساب وميزان ، وثواب وعقاب :

﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون . ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون . وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرًا ، حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بلى ! ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين . وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين. وترى الملائكة حافِّين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ [2] .

﴿ هذان خصمان اختصموا فى ربهم ، فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها . وذوقوا عذاب الحريق ﴾ [3] .

﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ، فى جنات النعيم ، ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ، على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون ﴾ [4] .

وتارة من خلال إخبات الرسل الكرام إلى ربهم ، واستسلامهم لأمره ، وطاعتهم له ، ودعائهم وتضرعهم ، واستجابة الله لدعائهم :

---

(١) النحل : ١٠ ـ ١٦ . (٢) الزمر : ٦٧ ـ ٧٥ .

(٣) الحج : ١٩ ـ ٢٢ . (٤) الواقعة : ١٠ ـ ٢٤ .

﴿ كهيعص . ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، إذ نادى ربه نداء خفيا ، قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ، ولم أكن بدعائك رب شقيا . وإنى خفت الموالى من ورائى ، وكانت امرأتى عاقرًا ، فهب لى من لدنك وليا ، يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا . يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا ﴾ (١) .

﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ؟ ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ (٢) .

﴿ فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى قال : يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى . قال : يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما ، وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم ﴾ (٣) .

﴿ وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثله معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾ (٤) .

وتارة من خلال الجدل الذى يجرى بين الرسل وأقوامهم المعاندين ، ثم نصرة الله لأنبيائه والتدمير على الكافرين :

﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين . قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم ، وأعلم من الله ما لا تعلمون . أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون . فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قومًا عمين . وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أفلا تتقون ؟ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين . قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم

---

(١) مريم : ١ ـ ٧ .
(٢) البقرة : ١٣٠ ـ ١٣١ .
(٣) الصافات : ١٠١ ـ ١٠٩ .
(٤) الأنبياء : ٨٣ ـ ٨٤ .

ناصح أمين . أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم؟ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا: أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟! فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب . أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزّل الله بها من سلطان ، فانتظروا إنى معكم من المنتظرين . فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ [1] .

وتارة من خلال علم الله المحيط بالغيب، ورقابته على أعمال البشر ومحاسبتهم عليها فى الآخرة:

﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ [2] .

وتارة من خلال بيان الدقة المعجزة فى بناء الكون، والنظام الدقيق الذى تجرى به أفلاكه، مما يستحيل أن يصدر عن آلهة مختلفين، لكل واحد منهم تدبير ، ولكل واحد منهم مشيئة:

﴿ ألم تر إلى ربك كيف مدَّ الظل ولو شاء لجعله ساكنًا ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً . ثم قبضناه إلينا قبضًا يسيرًا . وهو الذى جعل لكم الليل لباسًا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا . وهو الذى أرسل الرياح بشرًا بين يدى رحمته ، وأنزلنا من السماء ماء طهورا ، لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعامًا وأناسِيَّ كثيرًا . . ﴾ [3] .

﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾ [4] .

---

(١) الأعراف : ٥٩ ـ ٧٢ . (٢) الأنعام : ٥٩ ـ ٦٢ .

(٣) الفرقان : ٤٥ ـ ٤٩ . (٤) يـس : ٣٦ ـ ٤٠ .

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ [1] .

﴿ ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذًا لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون ﴾ [2] .

وتارة من خلال قصة آدم والشيطان ، وتحذير البشر من عدوهم الأكبر ، الذى يجرهم إلى الكفر والشرك :

﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قالِ : ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال : فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين . قال أنظرنى إلى يوم يبعثون . قال : إنك من المنظرين . قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال : اخرج منها مذءومًا مدحورًا ، لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ [3] .

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ، قال : أأسجد لمن خلقت طينًا ؟! قال : أرأيتك هذا الذى كرمت على ؟ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً . قال اذهب ، فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفورًا . واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا ﴾ [4] .

وتارة من خلال تعريف الناس بربهم بأسمائه الحسنى :

﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم ﴾ [5] .

---

(١) الأنبياء : ٢٢ . (٢) المؤمنون : ٩١ . (٣) الأعراف : ١١ ـ ١٨ .
(٤) الإسراء : ٦١ ـ ٦٥ . (٥) الحشر : ٢٢ ـ ٢٤ .

وتتعدد الأسماء والصفات ، ويتكرر ورودها فى آيات القرآن ؛ لتحيط بالقلب البشرى من جميع اتجاهاته وفى جميع أحواله . فحيثما فكر ، وكيفما قدّر ، وأينما توجه ، وجد الله تجاهه . . يريد الرزق ؟ فالله هو الرزاق ذو القوة المتين . يريد السلامة والعافية ؟ فالله هو الذى يقدر الأقدار وينشئ الأحداث ، وعِنْدَه ـ ومِنْ عِنْدِه ـ ترجى العافية . يريد النجاة من المخاوف ؟ فالله هو المنجى ، وما ملجأ من الله إلا إليه . يريد الذرية ؟ فالله هو الذى يهب الذرية ، ويهب لمن يشاء إناثًا ويهب لمن يشاء الذكور ، ويجعل من يشاء عقيمًا . يريد العزة ؟ فالله هو المعز المذل . يريد النصر على الأعداء ؟ فالله هو الناصر . يريد العون على الخير ، فالله هو المعين . يريد التيسير ؟ فالله هو الميسر . يريد البركة والطمأنينية ؟ فبيد الله البركة والخير ، وبذكر الله تطمئن القلوب [1] . .

* * *

وخلال ثلاثة عشر عامًا فى مكة ، وعشر سنوات فى المدينة كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوثق فى قلوب أتباعه « لا إلّه إلا الله » . .

كان عليه الصلاة والسلام يعيش مقتضيات لا إلّه إلا الله أمام أتباعه ، ويوجههم إليها ، ويعلمهم كيف يعيشونها . . كان يعلمهم كيف يعيشون كل لحظة من حياتهم مع الله . .

فإذا أصبحوا قالوا : « اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور » وإذا أمسوا قالوا « اللهم بك أمسينا وبك أصبحنا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير » [2] .

أو قالوا : « أصبحنا وأصبح الملك لله ، والحمد لله ، لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . رب أسألك خير ما فى هذا اليوم وخير ما

(١) تؤدى الأسماء والصفات الواردة فى كتاب الله (وفى سنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ) ، مهمة كبيرة فى هداية القلب البشرى ، وربطه بالله سبحانه وتعالى . ولكن « المتكلمين » أفسدوا هذه المهمة حين حولوا الأسماء والصفات إلى قضايا ذهنية باردة جافة يدور حولها الجدل الذهنى ولا تحرك القلب ، ولا تربطه بالله .

(٢) أخرجه مسلم .

بعده ، وأعوذ بك من شر ما فى هذا اليوم وشر ما بعده ، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكِبَر ، رب أعوذ بك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر » [١] .

وكان عليه الصلاة والسلام يردد ، ويعلم أصحابه أن يرددوا :

« اللهم أنت ربى ، لا إلّه إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت . أبوء لك بنعمتك علىّ وأبوء لك بذنبى . فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » [٢] .

« اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة . اللهم أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى . اللهم استر عوراتى ، وآمن روعاتى ، واحفظنى من بين يدى ، ومن خلفى ، وعن يمينى وعن شمالى ، ومن فوقى ، وأعوذ بك أن أغتال من تحتى » [٣] .

« اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه ، أشهد ألا إلّه إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه ، وأن اقترف على نفسى سوءًا أو أجره إلى مسلم » [٤] .

« أصبحنا على فطرة الإسلام وعلى كلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين » [٥] . ،

« اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك ، فلك الحمد ولك الشكر » [٦] .

« يا حى يا قيوم ، برحمتك استغيث . أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين » [٧] .

« اللهم عافنى فى بدنى . اللهم عافنى فى سمعى . اللهم عافنى فى بصرى . لا إلّه إلا أنت . اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، لا إلّه إلا أنت» [٨] .

---

(١) أخرجه مسلم . (٢) البخارى .

(٣) ابن ماجة .

(٤) أحمد أبو داوود الترمذى والنسائى وأخرجه البخارى فى الأدب المفرد .

(٥) الإمام أحمد . (٦) أبو داود .

(٧) النسائى . (٨) أبو داود .

وكان يقول لأصحابه إذا آووا إلى فراشهم أن يقولوا :

« اللهم إنى أسلمت نفسى إليك ، ووجهت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك . لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت » (١) .

ويقولوا : « باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » (٢) .

وإذا استيقظوا أن يقولوا :

« الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا ، وإليه النشور » (٣) .

وإذا لبسوا ثوبًا جديدًا أن يقولوا :

« اللهم لك الحمد أنت كوتنيه ، أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » (٤) .

وإذا خرجوا إلى المسجد فى الصباح أن يقولوا :

« اللهم اجعل فى قلبى نورًا ، وفى لسانى نورًا ، واجعل فى سمعى نورًا ، واجعل فى بصرى نورًا ، واجعل من خلفى نورًا ومن أمامى نورًا ، واجعل من فوقى نورًا ومن تحتى نورًا . اللهم أعطنى نورًا » (٥) .

وإذا أصاب أحدهم هَمٌّ أن يقول :

« لا إلّه إلا الله العظيم الحليم ، لا إلّه إلا الله رب العرش العظيم . لا إلّه إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم » (٦) .

أو يقول :

« اللهم إنى عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماضٍ فىّ حكمك ، عدل فىّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتبك ، أو علمته أحدًا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى ، وذهاب همى » (٧) .

---

(١) الشيخان . (٢) متفق عليه . (٣) مسلم .
(٤) الترمذى . (٥) مسلم . (٦) الشيخان .
(٧) البخارى .

كان عليه الصلاة والسلام يعلمهم ـ بالقدوة فى شخصه الكريم ـ كيف يحيا الإنسان فى معية الله ، وكيف يكون فى كل لحظة ذاكرًا لله . . صابرًا إن أصابه ضر ، شاكرًا إن أصابه خير ، متطلعًا دائمًا إلى عون الله ، لاجئًا إليه ، مستعينًا به ، مستغفرًا إياه ، مسلمًا بقضائه وقدره ، مستعيذًا من غضبه ، راجيًا رضاه ، فكانوا كما وصفهم الله :

﴿ يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ﴾ [1] .

وتجردوا لله ، حتى خلت نفوسهم من حظ نفوسهم كما وصفتهم كتب السيرة ، وكان هذا كله ـ فى فترة التربية فى مكة خاصة ـ هو مدلول لا إلّه إلا الله فى نفوسهم ، كما تعلموها من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكما أنزلت فى كتاب الله . .

وهكذا ـ بكلِّ الأدوات والوسائل ـ توثّقت لا إلّه إلا الله فى قلوبهم وتعمقت ، فتعلقت قلوبهم بالله برباط متين ، يحبونه ويخشونه ، ويتطلعون إليه ويرجونه ، ويتهيأون لطاعته فيما يأمر . فقامت فى قلوبهم القاعدة التى تحمل البناء . . تحمل التكاليف ، وتتحرك للوفاء . .

* * *

ثم اتسعت رويدًا رويدًا مقتضيات لا إلّه إلا الله بعد أن استعدت النفوس لتلقى التكاليف ، واستعدت للأداء . . ويلفت نظرنا هنا أمور . .

لقد كانت فى حياة العرب ـ الذين اختارهم الله ؛ ليكونوا قاعدة الانطلاق للدعوة الجديدة ـ عدة مشكلات تحتاج إلى حل ، وعدة انحرافات تحتاج إلى تقويم . إلى جانب القضية الكبرى : قضية الشرك بالله فى صورة اعتقاد ، وفى صورة عبادة ، وفى صورة تشريع . .

كانت هناك النزاعات القبلية تبدد طاقات القوم ، وتمنع تجمعهم فى « أمة » .

وكانت هناك الانحرافات الخلقية من خمر وميسر وفاحشة مستعلنة ، بالإضافة إلى الظلم المتفشى فى البيئة بجميع ألوانه ، سواء الظلم السياسى ، أو الظلم الاجتماعى ، أو الظلم الاقتصادى ، مع الحمية القبلية التى تقول : انصر أخاك ظالمًا ، أو مظلومًا [2] ، والحمية الجاهلية التى تقول :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... إلى القتال على ما قال برهانًا !

---

(١) آل عمران : ١٩١ .

(٢) لا يرده عن الظلم كما قال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولكن بالقتال إلى جانبه وإن كان ظالمًا كما كانت تفعل الجاهلية !

والتى ترتب عليها أن يقول القائل :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم !

ويقول الآخر :

إذا أنت لم تنفع فضرّ ! فإنما يُرَجّى الفتى كيما يضر وينفعا !

وكان هناك الاحتلال الفارسى لجزء من الجزيرة فى الجنوب ، والاحتلال الرومانى لجزء آخر من الجزيرة فى الشمال . .

وكان يمكن ـ بالتفكير البشرى ـ أن يبدأ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأى من هذه القضايا ، لو أنهِ زعيم بشرى يتطلع إلى السيادة والزعامة ، أو يتطلع إلى خدمة قومه لينقذهم مما هم فيه من مشاكل وانحرافات . .

كان يمكن أن يبدأ بالمشكلة الداخلية فيسعى إلى توحيد القبائل وإزالة ما بينها من خلافات ، ثم يتجه لحل المشكلة القومية بإخراج الفرس والروم من أرض الجزيرة .

أو يبدأ بالمشكلة الأخلاقية ، فيدعو إلى تطهير « المجتمع » من المفاسد الخلقية ، وتربية النفوس على النظافة والتطهر والارتفاع .

أو يبدأ بالمشكلة الاجتماعية المتمثلة فى فوارق الطبقات ، وطغيان أصحاب الثروة واستعبادهم للمستضعفين ، واستغلال جهدهم ، ليزدادوا فقرًا وذلاً ويزدادوا هم ثراء وطغيانًا . .

ولكنه وهو نبى مرسل ـ وليس زعيمًا من « عظماء » الأرض ـ لم يوجهه ربه أن يبدأ بشىء من ذلك الذى يمكن أن يتجه إليه زعماء البشر حين يتطلعون إلى « الإصلاح » . .

إنما وجهه ربه أن يبدأ بلا إلّه إلا الله ، ويدعو قومه إلى الإيمان بها ، ويربى من استجاب منهم على مقتضياتها .

ولكن القضية التى نريد أن نبرزها هنا أن هذه المشاكل والانحرافات كلها قد عولجت فيما بعد . . فهى ليست خارجة من الحساب ، وليست مما لا يجوز توجيه الاهتمام إليه ، وليست أمرًا ثانويًا فى حياة الأمة التى يراد لها أن تكون خير أمة . .

ولكنْ فرقٌ بين علاج وعلاج . .

إنها ـ حين عولجت ـ لم تعالج على أنها قضايا سياسية ، أو اجتماعية ، أو اقتصادية ، أو أخلاقية . . الخ .

إنما عولجت ـ حين جاء دورها ـ على أنها من مقتضيات لا إلّه إلا الله ! حين اتسعت مقتضيات لا إلّه إلا الله فشملت كل شئون الحياة .

فهل ثمت فرق بين تناولها على أنها قضايا سياسية ، أو اجتماعية ، أو اقتصادية ، أو أخلاقية . . إلخ وتناولها على أنها من مقتضيات لا إلّه إلا الله ؟

نعم هناك فرق ولا شك . . فرق فى الطريقة ، وفى النوعية ، وفى التوقيت . .

ولعل مثلاً واحدًا يغنينا عن مزيد من الشرح ، هو ما حدث فى تحريم الخمر ، وما يحدث اليوم فى الدول « المتقدمة » . . الدول « العصرية » !

تروى كتب السيرة ـ كما ألمحنا فى أكثر من كتاب ـ أنه حين نزل تحريم الخمر ، أرسل رسول اللهـ صلى الله عليه وسلم ـ مناديًا ينادى فى طرقات المدينة : أيها الناس ! ألا إن الخمر قد حرمت . . وما زاد على ذلك . . وتقول كتب السيرة : فمن كان فى فمه شربة خمر أراقها ، ومن كان فى بيته زق خمر أراقه ، حتى ظلت المدينة أيامًا تفوح طرقاتها برائحة الخمر . .

والدول « العصرية » المتقدمة ، تسن القوانين ، وتجند الشرطة ، وتشغل المحاكم ، وتشغل السجون ، وتقول تقريراتها إن نسبة الإدمان فيها آخذة فى الازدياد . .

ثم إن هناك فرقًا فى النوعية : بين أن يكون دافع الطاعة هو الخوف من سطوة القانون ، وأن يكون الدافع مخافة الله ، النابعة فى القلب من الإيمان بلا إلّه إلا الله . . ومع أن الله «يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » كما قال عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ ، ولكن يظل الفارق قائمًا بين وجود القاعدة الإيمانية ، وكونها الدافع الأول للسلوك ـ بأى درجة من الدرجات ـ وبين عدم وجود تلك القاعدة أصلاً ، وانحصار الوازع فى السلطان .

أما فارق التوقيت فله كذلك شأن . .

إن البدء بأى من المشاكل السالفة الذكر كان يمكن أن يحلها حلاً جزئيًا بصورة من الصور . . ولكن المشكلة الجذرية التى أنشأت كل المشاكل الأخرى كانت ستظل قائمة فى النفوس . . ويظل « الإنسان » على ما هو عليه بغير إصلاح حقيقى . .

يمكن أن تسترد الأرض ، وتُرْضَى « العزة القومية » . .

يمكن أن يخف الظلم الاجتماعى ويتحرر الإنسان من « الاستغلال » ، أو يتوهم أنه تحرر !

يمكن أن تقوم دولة مركزية لها شرطة ومحاكم وسجون ، بدلاً من الحكومات القبلية التى تحكم كل منها قبيلتها ، وتعبد فيها القبيلة ربًّا فيقول قائلها [١]:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت ، وإن ترشد غزية أرشد !

كان يمكن أن يحدث كل ذلك ، أو شيء منه ، ويبقى « الإنسان » عبدًا لغير الله ، تتناوشه خرافات الآلهة الزائفة ، وينفق طاقته فى التعبد للوهم الذى يعبده ، وتستعبده شهواته ، ويشرع له البشَر فينقلب الناس إلى سادة وعبيد . . سادة يملكون ويشرعون ، وعبيد يقع عليهم عبء التشريع . . كما يحدث فى كل جاهلية فى التاريخ ، بما فى ذلك الجاهلية المعاصرة ، وإن أوهمت أهلها أنهم يشاركون فى التشريع [٢] . . وهذا كله فى حساب الأرض . . حساب الحياة الدنيا . . أما حساب الآخرة . . . !

كلا ! لم يتوجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى حل أى من هذه المشاكل فى بدء عمله فى الدعوة . إنما توجه بأمر ربه إلى الدعوة للا إلَه إلا الله ، حتى إذا قامت لا إلَه إلا الله فى قلوب العصبة المؤمنة التى يعدها الله ، لتكون نواة « الأمة الربانية » ، وتكون هى «القاعدة الصلبة » التى تحمل البناء ، وعلم الله من هذه القلوب أنها تجردت له . . أخذت تتنزل التكاليف ، وبدأت « مقتضيات لا إلَه إلا الله » تتسع حتى شملت الحياة كلها ، بما فيها تلك القضايا ذاتها ، التى لم يبدأ بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والتى كان لابد من حلها ؛ لكى تقوم الأمة الربانية على أسس قوية صامدة . . ولكن كان لابد ـ فى المنهج الربانى ـ أن تتحول تلك القضايا إلى « متطلبات إيمانية » مرتبطة بلا إلَه إلا الله ، لامجرد اهتمامات بشرية تخضع لأهواء البشر ومعايير البشر ، وأن يكون الجهد الذى يبذل فى حلها قد بذل ابتغاء مرضاة الله ، لا لمجرد المنفعة الدنيوية التى قد تنتج عنها . . وحين حدث ذلك بالفعل كان الأداء على نسق غير مسبوق فى البشرية ، وكانت النتائج شيئًا يشبه المعجزات !

وفيما يلى نتحدث عن أبرز مقتضيات لا إلَه إلا الله ، سواء منها المقتضى الإيمانى الذى

---

(١) هو دريد بن الصمة .

(٢) اقرأ إن شئت فصل « الديمقراطية » من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » .

تحدثنا عنه مرارًا من قبل ، أو المقتضيات الأخرى ، التى قد يبدو بعضها ـ حتى عند فريق من الإسلاميين أنفسهم ـ أمورًا خارجة عن نطاق لا إلّه إلا الله .

أولاً : المقتضى الإيمانى

أشرنا من قبل إلى الأهمية البالغة التى يوليها كتاب الله لقضية الإيمان بالله الواحد ، ونبذ الآلهة الزائفة كلها ، وإخلاص العبادة لله وحده بلا شريك . وأنه لم يكن السبب فى التركيز عليها أن المخاطبين الأوائل بهذا القرآن كانوا مشركين ، إنما بسبب الأهمية الذاتية لهذه القضية ، النابعة من كون الإنسان عابدًا بفطرته ، وأنه إما أن يعبد الله وحده ، وإما أن يعبد غيره ، معه أو من دونه سواء . وأنه لابد من تطهير النفس البشرية من كل عبودية زائفة لغير الله ، وتوجيه العبادة بكل أنواعها إلى الإلّه الحقيقى ، الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ، ليرتفع الإنسان إلى المقام الذى كرمه الله به وفضله على كثير من خلقه ، ولكى ينجو فى الحياة الدنيا من الهبوط الذى يتمثل فى الشرك بكل أنواعه ، وينجو فى الآخرة من النار . .

وقلنا : إن الفطرة بذاتها ـ كما خلقها الله ـ عابدة لله على استقامة . ولكنها عرضة للمرض والانحراف بتأثير البيئة الفاسدة التى تفسد صفاءها واستقامتها . .

وحين تختل الفطرة ، وتنحرف عن استقامتها ، يصيبها كثير من الأمراض . .

أمراض فى الرؤية ، وأمراض فى السلوك . أمراض فى الفرد وأمراض فى المجتمع . . أمراض فى الكيان النفسى ، والكيان الاجتماعى ، والكيان السياسى ، والكيان الاقتصادى، والكيان الأخلاقى . . وفى كل جانب من جوانب النفس ، وكل جانب من جوانب الحياة .

يهبط الإنسان مع الشرك دركات من الهبوط . .

وإذا أخذنا الجاهلية المعاصرة نموذجًا ، لأنها تحسب نفسها شيئًا فريدًا فى التاريخ ، وأنها أعلى ما وصل إليه الإنسان فى التاريخ كله ، فلننظر أنواع الهبوط التى ابتلى بها «الإنسان» فى هذه الجاهلية . .

لأسباب بيناها فى غير هذا الكتاب [١]، حصر الإنسان نفسه فى محيط ما تدركه الحواس فحسب ، وألغى من عالمه الإيمان بما لا تدركه الحواس .

ومن ثم فقد معنى وجوده !

إن الإنسان حين يفقد الإيمان بالله واليوم الآخر ، لا يستطيع أن يرى الصورة فى تمامها الذى أنشأه الله « بالحق » ، وخلق من أجله السموات والأرض « بالحق » ، فيراها عندئذ شوهاء مبتورة غير ذات معنى ولا حكمة ولا قيمة .

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ ﴾ [٢] .

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار ؟ ! ﴾ [٣] .

﴿ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ [٤] .

وحين يفقد الإنسان معنى وجوده ينطلق هائمًا كما انطلق الشاعر الجاهلى المعاصر [٥] يقول :

جئت لا أعلم من أين ولكنى أتيت !

ولقد أبصرت قدامى طريقًا فمشيت !

وسأمضى فى طريقى شئت هذا أم أبيت

كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقى ؟ لست أدرى !

ويمضى يتخبط . . يقطع الطريق كالسائمة . .

فإنه حين لا يدرك لحياته معنى ولا حكمة ، يستحيل عليه أن يؤمن « بالقيم » التى ترفعه عن عالم الحيوان ، فينتكس إلى أسفل ، فيصبح أضل من الحيوان :

﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ﴾ [٦] .

---

(١) اقرأ إن شئت فصل « العلمانية » من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » .
(٢) المؤمنون : ١١٥ .   (٣) ص : ٢١ـ٢٢ .   (٤) يونس : ٤ .
(٥) إيليا أبو ماضى .   (٦) الأعراف : ١٧٩ .

وفى عالم الحيوان يكون الهمّ الأكبر ـ إلى جانب قضاء الشهوات ـ هو صراع البقاء . فتلتقى أنواع الحيوان المختلفة لتتصارع وتكون الغلبة للأقوى ، فيأكل القوى الضعيف ، أو يزيحه من الطريق .

أما فى عالم « الإنسان » فقد جعل الله للحياة هدفًا آخر ، ومعيارًا آخر :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[1] .

والصراع الذى كتبه الله فى عالم الإنسان ليس صراع الغلبة من أجل الغلبة ، ولكن من أجل إصلاح الأرض :

﴿ ولولا دفع الله الناسَ بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾[2] .

فإلى أى درك يهبط الإنسان حين يفقد معنى وجوده ، ويتعامل بعضه مع بعض على مستوى الحيوان ؟ وهو فاعل ذلك لا محالة إذا هبط عن الإيمان بما لا تدركه الحواس ، ففقد الإيمان بالله واليوم الآخر . .

إن الإيمان بالله وحده بلا شريك هو حق الله على العباد كما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« قال : أتدرون ما حق الله على العباد ؟ حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا . . »[3] .

ولكن الله لا يزيد فى ملكه شيئًا أن يكون الناس كلهم على قلب أعبد رجل منهم ، ولاينقص فى ملكه شيئًا أن يكونوا كلهم على قلب أفجر رجل منهم .

يقول تعالى فى الحديث القدسى :

« يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك فى ملكى شيئًا . . »[4] .

---

(١) الحجرات : ١٣ . (٢) البقرة : ٢٥١ .
(٣) أخرجه مسلم . (٤) أخرجه مسلم .

« فالمستفيد » فى هذه القضية هو الإنسان ذاته ، حين يؤمن بالله واليوم الآخر ، والخاسر فيها هو الإنسان ذاته ، حين تقعد به ثقلة الهبوط عن الإيمان .

﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ [1] .

﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، إن الله لغنى عن العالمين ﴾ [2] .

و « الفساد » الذى يسرى فى الأرض حين يهبط الإنسان عن الإيمان بما لاتدركه الحواس ، فيفقد الإيمان بالله واليوم الآخر ، ويفقد معنى وجوده ، ألوان شتى لا يدركها الحصر.

ففوق انطفاء القبسة المضيئة فى روح الإنسان ، المستمدة من النفخة العلوية من روح الله فى قبضة الطين ، وبروز قبضة الطين بعتامتها وثقلها ، وانتشار الصراع الوحشى فى الأرض ، الذى يؤكل فيه الصغار ، أو يداسون بالأقدام . . تظل « القيم » هى القيم المادية ، ويظل الصراع بين البشر على امتلاك المتاع الحسّى والاستزادة منه على حساب المستضعفين ، فى شكل استعمار و « إمبريالية » وطغيان ، وإن أخذ شكل حضارة وتمدن وتقدم ورقىّ !

ينشغل الإنسان بذاته ، لأنها محور استمتاعه ، فإذا امتد اهتمامه فلقومه ، لأن الخير الذى يعود عليهم يعود عليه فى النهاية بمزيد من الاستمتاع . ولكنه لا يمتد إلى ما وراء ذلك ، لأن ما وراء ذلك يحتاج إلى « إنسانية الإنسان » التى يفقدها حين يفقد القدرة على الإيمان بما وراء العالم المحسوس .

وحتى فى داخل ذاته ، وفى محيط قومه ، فما حدود اهتماماته ؟ وما محيط القدر الذى « يستثمره » مما وهب الله له من مزايا تفرد بها ، وفضله الله بها على كثير ممن خلق ؟

إنه يستثمر ولا شك جوانب من هذه المواهب ، وقد يستثمرها ببراعة تثير الإعجاب . . تلك التى تحقق له المتاع الحسّى ، وتحقق له الغلبة على الآخرين فى صراع البقاء الوحشي . . ولكنه يترك بقية المساحة الموهوبة له يبابا مقفرًا ، لا يضيع هباءً فحسب ، بل تأوى إليه الهوام والحشرات التى تفسد فى النهاية المساحة التى يستثمرها ، فتزدهر حينًا من الوقت بما يبذل فيها من الجهد ، ثم تنتهى بالبوار . .

والذى يفتن الناس عن هذه الحقيقة أن كثيرًا ممن لا يؤمنون بلا إلّه إلا الله ممكنون فى الأرض و « ناجحون » بالمقاييس الدنيوية ، فيخيل لكثير من الناس فى الجاهلية المعاصرة أن

---

(١) الإسراء : ١٦ . (٢) العنكبوت : ٦ .

« لا إلَه إلا الله » لا تأثير لها فى واقع الحياة ، وأنه يستوى أن يكون الإنسان مؤمنًا ، أو كافرًا . . فمعايير النجاح « فنية » و « علمية » و « موضوعية » ولا علاقة لها بالاعتقاد . بل قد يجدون فى الواقع المعاصر ما يغريهم بالظن بما هو أسوأ من ذلك ، وهو أن الكفر بلا إلَه إلا الله من مستلزمات النجاح . . والعياذ بالله !

والسبب فى هذا الوهم الذى يسيطر على الجاهلية المعاصرة خاصة ـ أو من أسبابه ـ الجهل بالسنن الربانية ، وسطحية التفكير ، وغلبة الشهوات ، وانطماس البصيرة عن رؤية الحق ، والغفلة التامة عن اليوم الآخر :

﴿ يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ [1] .

فأما الجهل بالسنن الربانية فإنه يجعل الناس فى غفلة عن حقيقة مذكورة فى كتاب الله فى أكثر من سورة ، وهى أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل التمكين فى الحياة الدنيا خاصًا بفريق من الناس دون فريق ، بل قال سبحانه :

﴿ كلا نمد ـ هؤلاء وهؤلاء ـ من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورًا ﴾ [2] .

فالدنيا ـ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لا تساوى عند الله جناح بعوضة ، لذلك يعطى الكافر منها بقدر ما يجتهد فى الحصول عليها :

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لايبخسون ﴾[3] .

والدنيا ـ من ناحية أخرى ـ هى محل الابتلاء الذى خلق الله الإنسان من أجل أن يخوضه :

﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ، فجعلناه سميعًا بصيرًا ﴾ [4] .

﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ [5] .

فلو أعطاها الله لفريق من البشر دون فريق ، لم يعد للابتلاء معنى . . إنما يكون له معنى حين تتاح للبشر جميعًا ، ثم يختبر الناس : أيهم تفتنه الحياة الدنيا فتشغله عن ربه ، وعن اليوم الآخر ، وأيهم يأخذ قسطه من متاع الأرض وهو عابد لربه ، ملتزم بأوامره ، ومن ثم فإن التمكين فى ذاته يمكن أن يتم للمؤمنين وللكافرين سواء ـ إذا اتخذوا

---

(١) الروم : ٧ . (٢) الإسراء : ٢٠ . (٣) هود : ١٥ .
(٤) الإنسان : ٢ . (٥) الكهف : ٧ .

الأسباب ـ دون أن يتعلق ذلك بالإيمان ، أو الكفر . . ومع ذلك فهناك فروق يغفلها الناس حين تصيبهم سطحية التفكير ، وغلبة الشهوات ، والغفلة عن الآخرة . .

يقول تعالى عن الكفار والمعاندين :

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء . . ﴾ [1] .

ويقول في موضع آخر :

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ [2] .

فأبواب التمكين المادي مفتوحة كلها ـ أو يمكن أن تفتح كلها ـ للكفار المعاندين . ولكن باب البركة لا يفتح عليهم ، لأن الله اختص به المؤمنين ، فلا يناله الكفار ولو فتح عليهم الرخاء المادي ، الذي يظنه أصحاب الشهوات غاية الغايات في الحياة الدنيا . . ومن أراد مثالاً فلينظر إلى الغرب اليوم ـ بكل ما فيه من تقدم علمي ومادي وتكنولوجي وحربي ـ ولينظر إلى ما يعانيه الناس فيه من القلق والجنون والانتحار والأمراض النفسية والعصبية ، والخمر والمخدرات والجريمة ، واللهاث الدائم وراء تحقيق الشهوات . . دون بركة في الوقت ولا المال ولا الأسرة ولا الذرية ، ولا المعاني التي تليق بالإنسان ،

ولا الطمأنينة كذلك ، فإنها وقف على المؤمنين الذين يذكرون الله :

﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ [3] .

وهذا وذاك فضلاً عن كون هذا التمكين ـ الذي يتاح للكفار في الأرض للاستدراج ـ موقوت مهما طال :

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين ﴾ [4] .

فالظن ـ السطحي ـ بأن الإيمان بلا إله إلا الله لا تأثير له في حياة الإنسان في الحياة الدنيا ، ظن لا يصدر إلا عن الذين لم يذوقوا حلاوة الإيمان ، ولم تخالط بشاشته قلوبهم ، ويحسبون في غفلتهم أن ما هم فيه من المذاقات الدنسة هو أحلى ما يتاح للإنسان تذوقه في الحياة الدنيا ! وإذ لم يؤمنوا به فلن يتصوروه ولن يصدقوه !

---

(١) الأنعام : ٤٤ . (٢) الأعراف : ٩٦ .

(٣) الرعد : ٢٨ . (٤) الأنعام : ٤٤ ـ ٤٥ .

﴿ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ [1] .

﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ، ويسخرون من الذين آمنوا . . ﴾ [2] .

وقد كان المسلمون ـ وقت أن كانوا مستمسكين بما أمرهم الله أن يستمسكوا به ـ يستمتعون بالتمكين فى الأرض على أعلى مستوى تحقيقًا لوعد الله لهم :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئًا ﴾ [3] .

وكانوا بالإضافة إلى ذلك ينعمون بالبركة فى حياتهم . وليس أقل البركة صلة قلوبهم بالله ، التى تشعرهم بالقرب من الله ، وبرعاية الله لهم ، واستجابته لدعواتهم ، ونقاء المجتمع من الفاحشة [4] ، واطمئنان الناس إلى أنسابهم ، واستقرار الأسرة ومتانة روابطها ، وروح المودة والوئام التى تربط الناس كأنهم أهل ، والسعى إلى الرزق مع طمأنينة القلب . . وفرق بين ذلك كله وبين متاع الكفار الذى قال الله فيه :

﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام . . ﴾ [5] .

وهذا كله فى أمور الحياة الدنيا . .

أما الآخرة فلها شأن آخر . . ففيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وهى خالصة للذين آمنوا :

﴿ قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ﴾ [6] .

فأما الذين لا يؤمنون بها ، ويقولون : دعونا من ذكرها ، وحدثونا عن الحياة الدنيا . . فما أصبرهم على النار !

* * *

---

(١) الأعراف : ٣٠ .　　(٢) البقرة : ٢١٢ .　　(٣) النور : ٥٥ .

(٤) قلنا مرارًا إن نقاء المجتمع من الفاحشة لا يعنى خلوه التام منها ، فهذا لم يحدث فى أى مجتمع فى التاريخ ، ولا مجتمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه ، إنما يعنى ندرة وقوعها ، وأنها حين تقع تكون فى حس الناس شذوذًا يستنكر .

(٥) محمد : ١٣ .　　(٦) الأعراف : ٣٢ .

كلا ! لا تستوى حياة الإنسان بالكفر والإيمان فى الحياة الدنيا ولا الآخرة . .

﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار ؟ ﴾ (١) .

﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون ! ﴾ (٢) .

وحَسْبُ الذين آمَنوا أن يحسوا بالتحرر من الطواغيت التى يخضع لها الناس فى الجاهلية . .

ويستوى أن يكون الطاغوت إلهًا يعبد ، أو شرعًا يتّبع ، أو عرفًا يستعبد الناس له ، أو شهوة مستبدة بصاحبها ، أو طغيانًا سياسيًا أو اقتصاديًا ، أو اجتماعيًا ، أو فكريًا . .

كلها طواغيت تستعبد الناس فى الجاهلية . .

ومرة أخرى قد تحسبُ الجاهلية المعاصرة أنها حررت الإنسان ، وحطمت الطواغيت ! فلننظر إلى الواقع ولا ندع العناوين الخلابة تخدعنا عن الحقيقة . .

إن هذا القرن هو الذى شهد ـ فى أوروبا ذاتها ـ أعتى طغاة التاريخ : هتلر فى ألمانيا ، وموسولينى فى إيطاليا ، وفرانكو فى أسبانيا ، وتيتو فى يوغوسلافيا ، أما « الاتحاد السوفييتى» الذى هوى فهو عالم وحده ، فريد فى طواغيته ، وعلى رأس قائمتهم السوداء «الزعيم الأوحد » ستالين ، الذى قال عنه خروشوف ـ بعد أن مات ! ـ إنه كان سفاحًا مجرمًا متعطشًا للدماء ، وغلطة لا يجوز أن تتكرر ! (٣) .

فإذا تركنا طواغيت « الأنظمة الجماعية » ونظرنا إلى « العالم الحر » فهو حر فعلاً فى ناحيتين عظيمتين : الفساد الخلقى والإلحاد ! أما واقع حياته ، برغم كل المسرحية الجميلة التى تحكمه ـ مسرحية « الديمقراطية » – فالذى يحكمه فى الحقيقة هو طاغوت رأس المال ،

---

(١) ص : ٢٨ . (٢) الجاثية : ٢١ .

(٣) من الطرائف التى حدثت فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى الذى ندد فيه خروشوف بستالين ـ بعد موته ـ أن تقدم أحد الموجودين بسؤال مكتوب إلى خروشوف يقول له فيه لقد كنت عضوًا بارزًا فى اللجنة المركزية العليا للحزب فى أيام ستالين ، فلماذا سكت على هذه الجرائم ؟ وكان خروشوف سريع البديهة فقال : من الذى أرسل هذه الورقة ؟ فلم يجب أحد بطبيعة الحال من الخوف . فقال خروشوف مخاطبًا السائل المجهول : لقد عرفتَ السبب ! لقد كنتُ خائفًا مثلك !!

والذى يتربع على عرش رأس المال هو اليهود ، بكل ما فى جبلتهم من طغيان [1] . .

وأيًّا كان نوع النظام ، وأيا كانت وسائله ، فأساس المشكلة فى الجاهلية أن البشر هم الذين يشرعون ، وليس الله الحكم العدل ، اللطيف الخبير . . وحيثما شرع البشر ـ مدّعين لأنفسهم حقًّا من حقوق الألوهية ـ انقسم الناس إلى سادة وعبيد ، أو إلى طغاة وعبّاد يعبدون الطغاة ، إذ يكلون إليهم حق التحليل والتحريم من دون الله . .

وذلك فضلاً عن الطواغيت الأخرى المعبودة من دون الله ، والتى تطاع فى معصية الله ؛ طاغوت « الوطن » ، أو « المصلحة القومية » ، أو « الرأى العام العالمى » ، أو « المودة » ، أو «ثورة التكنولوجيا » ، أو « العلم » ، أو طاغوت الشهوات .

حسب الذين آمنوا أن يتحرروا من تلك الطواغيت كلها ، بإخلاص العبادة لله وحده ، ونزع الألوهية عن كل الآلهة الزائفة فى الأرض ، وإخضاعها كلها لمنهج الله .

* * *

وما بنا أن نعيد الحديث عن أثر الإيمان باليوم الآخر ، والبعث والحشر والحساب والجزاء والجنة والنار ، فى حياة الإنسان . ولكنا نقول : ما أضيق أفق الإنسان ، وما أضل تصوراته حين يحصر اهتمامه وإيمانه بالحياة الدنيا وحدها ، منقطعة عن الآخرة . . وما أوسع أفقه ، وما أصوب تصوراته حين يؤمن بالآخرة ، ويضع الحياة الدنيا فى وضعها الصحيح ، وحجمها الحقيقى . .

أرأيت لو أغمضت إحدى عينيك وقرّبت أصبعك من عينك الأخرى حتى لتكاد تلمسها . . كم ترى حجم أصبعك ؟! وكم تحجب عنك أصبعك من مساحة الأفق من حولك ؟! ثم جرّب أن تجعل أصبعك على آخر مدّ ذراعك . . كم ترى الآن حجمها ؟! وكم من مساحة الأفق تستطيع أن ترى وراءها ؟!

ذلك مثل الإنسان حين يلصق بالأرض . . بالطين . . تبدو الأرض أمامه هائلة هائلة ، وتحجب عنه الرؤية لما وراءها من آفاق . . أما حين يجعلها من نفسه على آخر مد الذراع ، فهو يراها على حقيقتها ، ويرى فى الوقت ذاته ما وراءها من آفاق :

---

(١) اقرأ إن شئت فصل « الديمقراطية » من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » .

﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون﴾[1] .

ومع ذلك فإن الله لم يطلب من الناس ـ فى منهج لا إلّه إلا الله ـ أن يهملوا الأرض ويحتقروا شأنها فلا يعمروها . بل أمرهم أمرًا بعمارتها [2] . . ولكنه وجههم فقط إلى رؤيتها فى حجمها الحقيقى ، لكى لا تحجب عنهم اليوم الآخر ، وفى وضعها الصحيح ، فلايفتنهم متاعها الزائل عن المتاع المقيم . .

* * *

يشتمل « المقتضى الإيمانى » للا إلّه إلا الله على أمور بيّنها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حديث « هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم » ، « قال : وما الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره » [3] .

ولكل واحدة من هذه المفردات مهمة تؤديها فى « المقتضى الإيمانى » ليس هنا مكان تفصيلها ، إنما نشير إشارة عابرة إلى الإيمان بالقدر ، ودوره فى طمأنينة قلب المؤمن لما يصيبه فى الحياة الدنيا من صروف . .

إنه لا شىء يسكب الطمأنينة فى قلب الإنسان أكثر من أن يؤمن « بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه . . » [4] وأن مقادير الأمور بيد الله وحده ، يصرفها كيف يشاء سبحانه . . ثم أن يؤمن أن إرادة الله به كلها خير : « إن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرًا له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له ، وليس ذلك إلا للمؤمن » [5] .

وفى مقابل القلق والجنون والانتحار والأمراض النفسية والعصبية والخمر والمخدرات والجريمة ، فى الجاهلية التى لا تؤمن بالله واليوم الآخر ، ولا تؤمن بقضاء الله وقدره توجد الطمأنينة فى القلب المؤمن ، ويوجد الرضا الذى يحمل عن الأعصاب إصرها . .

ولكن الإيمان بقضاء الله وقدره ـ فى منهج لا إلّه إلا الله ـ ليس هو التواكل السلبى ، وليس هو القعود عن اتخاذ الأسباب ، وليس هو التنصل من مسئولية الإنسان عن أعماله

---

(١) العنكبوت : ٦٤ .

(٢) سيأتى الحديث عن عمارة الأرض عند الكلام عن « المقتضى الحضارى » للا إلّه إلا الله .

(٣) أخرجه مسلم . (٤) أخرجه مسلم .

(٥) أخرجه مسلم .

حين يخطئ فتصيبه نتائج خطئه . . إنما هو نسيج فريد عرفته الأجيال الأولى من المسلمين حق المعرفة ، ويعرفه على مدار التاريخ كل من آمن بالله على بصيرة [1] .

ثانيا : المقتضى التعبدى

إذا كان المقتضى الإيمانى قد اقتضى الإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، واقتضى التوحيد الخالص لله : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات ؛ فإن المقتضى التعبدى يقتضى توجيه كل ألوان العبادة لله وحده بلاشريك ، كما يقتضى أن يعبد الله بما أمر سبحانه أن يعبد به ، لا بما يعنّ للعباد أن يعبدوه به .

ومحور القضية أنه إذا كان الله هو الإلّه الذى لا إلّه غيره ، فتوجيه كل ألوان العبادة إليه وحده هو الأمر الطبيعى والمنطقى ، كما أن التلقى من عند الله وحده فى أمر العبادة ـ ككل أمر آخر ـ هو الأمر الطبيعى والمنطقى كذلك .

وقد ركز المنهج القرآنى كثيرًا على هذه القضية ، لأنها تتصل اتصالاً مباشرًا بقضية العقيدة . فليست العقيدة فى هذا الدين أمرًا مستسرًا فى داخل الضمير ، هُلاَمِىّ الصورة غير محدد السمات . . إنها فى أعماق القلب ، نعم . وإنها أمر متصل بالجانب الروحى ، نعم . وإنها لا تكون فى صورتها الحقيقية حتى تملأ الوجدان ، نعم . . ولكنها مع كل ذلك ليست شعاعًا هائمًا فى الفضاء . . إنما هى نور محدد المسار ، مهمته الكبرى أن يضبط مسار كل شىء ، ويحدد له وضعه الصحيح .

إنها تصور معين ، تصحبه مشاعر معينة ، تصدر عنه أعمال معينة . .

تصور معين لحقيقة الألوهية ، بقدر ما يطيق الكيان البشرى أن يتصور . .

إن الفانى لن يحيط علمًا بالأبدى الأزلى . . وإن الجزئى لن يحيط علمًا بالكلى . . وما كلف البشر أن يحيطوا علمـا بكنه الألوهية ، وهم الذين حُجِبَ عنهم كنه كل شىء حتى الماديات المحسوسة التى يتعاملون معها فى كل لحظة ، يعرفون صفتها ولا يعرفون

---

(١) راجع إن شئت « مفهوم القضاء والقدر » من كتاب « مفاهيم ينبغى أن تصحح » .

كنهها . . وها هو ذا « العلم » بعد أن فجر نواة الذرة وحلل محتوياتها ، وقف عاجزاً أمام «الكنه » الذى تتكون منه ، واكتفى بالصفات !

كلا ! لم يكلف الله البشر أن يحيطوا بكنه الألوهية ، وهو يعلم أنهم عاجزون . .

ولكنه عرفهم بنفسه بالطريقة التى يعلم سبحانه أنهم يستطيعون أن يعرفوه بها ، لأنه هو الذى خلق فيهم سبحانه هذه القدرة وأودعها فيهم ؛ ليعرفوه . .

﴿ ألا يعلم من خلق ؟ وهو اللطيف الخبير ؟ ﴾ [1] .

عرفهم بنفسه بصفاته وأسمائه . . وعلم سبحانه أنهم حين يعرفون هذه الأسماء والصفات حق المعرفة ، فقد عرفوا ربهم ، بالقدر المتاح لكيانهم ، وبالقدر الذى تصلح به نفوسهم وحيواتهم ، وينالون به الخير فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . .

لذلك كانت أسماء الله الحسنى وصفاته من صلب العقيدة ، لأنها وسيلة البشر لمعرفة إلههم وخالقهم . .

وللروح مسارها إلى الله . . تعرفه ، وتؤمن بوجوده ، وتتصل به ، وتتلقى منه ، بطريقة قد يعجز العلم عن إدراكها ، ولكن عجز العلم لا ينفى أنها موجودة وفاعلة ، فقد عجز العلم أن يدلنا كيف نفكر ، وكيف نتذكر ، ونحن فى كل لحظة نفكر ، وفى كل لحظة نتذكر ، ولم يقل أحد إن عجز العلم عن إدراك الطريقة التى يتم بها التفكير والتذكر تنفى وجود أيهما ، أو تنفى فاعليته ، لأن « آثار » التفكير والتذكر بارزة فى كل لحظة .

وأمر الروح كذلك . . فإنّ عَجْزَنَا عن إدراك طريقتها فى التعرف على الله والاتصال به ، لا ينفى وجودها وفاعليتها . . ولكن الفرق أن البشر كلهم ـ ماداموا فى وضعهم الطبيعى ـ يفكرون ويتذكرون ، وليس كل البشر تتفتح أرواحهم لتنطلق فى مسارها الطبيعى ، وهو الاتصال بالله . . لا لأن الله لم يخلق فيهم الحاسة . . فقد خلق الله كل عباده حنفاء ، ولكن لأن المرض يصيب هذه الحاسة أكثر مما يصيب سائر الحواس . . وحين تمرض الروح تنطمس البصيرة وينقطع الإشعاع . .

وما بنا هنا أن نتحدث عن عالم الروح وما فيه من عجائب . . وإنها لعجائب حقًا . .

كيف يحس الإنسان فى لحظة معينة ـ لحظة توهج معينة ـ أنه قد اتصل بخالقه ، فدعا

---

(١) الملك : ١٤ .

ربه ، فاستجاب ربه له ، فأحس بالاستجابة وأيقن . . وإذا هى حقيقة . . وإذا الله قد استجاب بالفعل !

كيف يتصل الإنسان بعالم الغيب فى رؤيا صادقة تتحقق بذاتها أو برموزها بعد حين من الوقت قد يكون أيامًا وقد يكون ساعات !

كيف يتم التخاطر عن بعد (التليباثى) من وراء الحدود التى تدركها الحواس ؟ !

وبعض الناس تبهرهم هَذه العجائب فيتركون عالم الشهادة كله ، ليغرقوا أنفسهم فى سبحات الروح ! بدعوى التقرب إلى الله ، والسعى إلى رضاه . .

وما هكذا أمر الله البشر أن يعبدوه !

إنما حدد الله لهم طرقًا معينة يعبدونه بها ، للروح فيها مكانها ، فى خشوع القلب ، والإخبات إلى الله . . وللوعى فيها مكانه ، فى التفكر والتدبر فى خلق الله وآياته . . وللجسم فيها مكانه ، فى القيام والقعود ، والركوع والسجود ، والتحرك بالطاعة فى شتى الاتجاهات . .

وتصبح العبادة بذلك أمرًا شاملاً لكل ما يحبه الله ويرضاه . . وأمرًا شاملاً لكل حياة الإنسان :

﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له . . ﴾ [(1)].

* * *

لا نتحدث هنا فى هذه العجالة عن أنواع العبادة ، فذلك شأن الدراسة المتخصصة . . ولكنا نتحدث عن أمور حولها ، تتعلق بها ، وتدخل فى « المقتضى » التعبدى للاإلّه إلا الله .

لقد ركز المنهج القرآنى كثيرًا على قضية العبادة ، لشدة ما كان قائمًا فى الجاهلية من انحراف فى تلك القضية ولاتصالها المباشر بقضية العقيدة . . فحين تنحرف العقيدة تنحرف العبادة بالضرورة ، وحين تستقيم العقيدة فالمفروض أن تستقيم العبادة على وضعها الصحيح .

تنحرف الجاهلية فى أمر العقيدة وأمر العبادة لأسباب شتى . .

---

(١) الأنعام : ١٦٢ ـ ١٦٣ .

فالتعظيم الزائد عن الحد آفة من آفات القلب البشرى حين يتوجه بالحب إلى شخص معين ، أو شيء معين ، فينقلب التعظيم إلى تقديس ، وينقلب الحب إلى عبادة !

وليس الحب والتعظيم فى ذاته انحرافًا ، فهو من « إفرازات » النفس السوية ، خلقه الله ليؤدى مهمة معينة فى حياة الإنسان . فلولا الحب والتعظيمُ الذى يتوجه به الناس إلى أنبيائهم ، ما تلقوا منهم ، ولا استقامت حياتهم على مقتضى التعليمات الربانية المنزلة عليهم . ولولا الحب والتعظيم الذى أوجبه الله ورسوله للعلماء ، ما كان لهم فى أممهم تأثير. ولولا الحب والتعظيم الذى يحسه الأبناء لآبائهم ما تربوا على أيديهم ، ولا تلقوا منهم مقومات حياتهم . .

ولكن الغلوّ فى الحب والتعظيم هو الانحراف الذى يؤدى إلى التقديس ، فيؤدى إلى العبادة . .

وفى شرح ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ لانحراف الجاهلية فى أمرالعبادة قال عن ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر : « أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد [١] ، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت » [٢].

وما زالت البشرية تدور فى رحى ذلك الانحراف ، فيؤدى بها إلى لون من ألوان الشرك بالله .

* * *

أشرنا فى التمهيد إلى انغلاق البشر فى دائرة المحسوس ، وأثر ذلك فى العقيدة ، فنشير هنا إلى أثره فى العبادة كذلك .

إن الصنم الذى يعبد تجسيدًا للإله فى صورة محسوسة ، لا يسمع ولا يرى ولا يتحرك ، وإن ظن عبّاده أن روحًا خفية تسكن فيه ، فتمنحه الحياة والقوة والبطش والهيمنة والجبروت! وهم يتعبدونه ويقدمون له القرابين ، لترضى عنهم تلك الروح التى تسكنه ، وتقضى لهم حوائجهم ، وتكف غضبها عنهم ! ولكن الصنم لا يتكلم ! ولا تتكلم كذلك الروح الموهومة التى تسكنه ، ومن ثم يحتاج الأمر إلى « كهنة » يقومون بالترجمة بين العبّاد

---

(١) أى فى تلك المرحلة .　　　(٢) أخرجه البخارى .

وإلههم ، وبين الإلّه والعبّاد ! فيصدر الكهنة التعاليم باسم الإلّه ، ويتلقون النذور والقرابين بحجة توصيلها إلى الإلّه ، ثم يقولون للناس ـ إن شاءوا ـ إن الإلّه قد رضى ، أو يقولون لهم : إنه يطلب المزيد ؛ لأنه ما يزال غضبان !

ويستمتع الكهنة بسلطان عظيم على الناس فى الجاهلية ، لأنهم هم « الوسطاء » الذين تتم من خلالهم عملية العبادة ، وتتم عن طريقهم عملية « التسليم والتسلم » بين العبّاد وبين الإلّه !

وكثيرًا ما كان أولئك الكهنة يمارسون إلى جانب الكهانة ألوانًا من السحر ، ككهنة فرعون الذين قابلوا موسى ـ عليه السلام ـ بحبالهم وعصيهم ، فخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . ويقومون ـ من خلال كهانتهم وسحرهم ـ بتعبيد البشر لغير ربهم الذى خلقهم ، سواء لبشر ـ مقدس ـ يحكمهم ، أو صنم ـ مقدس ـ يتأله عليهم . . كلاهما طاغوت . .

ويعلم الله كم يسخر أولئك الكهنة فى دخيلة أنفسهم من أولئك العبّاد الذين يهرعون لتنفيذ أوامرهم وتعليماتهم كأنها حقيقة ! ولكنهم يجيدون التمثيل ! فيتظاهرون بالجد الصارم فى أداء طقوس العبادة ؛ ليستديموا سلطانهم على الناس ، ولينتفشوا هم ويتضخموا على حساب غفلة الناس !

وفى الجاهلية يأنس الناس للوسطاء ؛ لأنهم ـ فى هبوطهم وانغلاقهم ـ يحسون بالوحشة من الإلّه المنزه الذى لا تدركه الأبصار ، فيأنسون للكائنات الوسيطة ، التى يتصورونها ذات طبيعة مزدوجة : ناسوت ولاهوت . . جانب بشرى وجانب إلهى . . يلتقون مع البشر بجانبهم البشرى ، ويلتقون بجانبهم الإلهى مع الإلّه ! ويكونون « محطة » فى الطريق ، يتزود الناس فيها بالطاقة اللازمة لرحلة « الفضاء » ، إلى الأزلى اللانهائى الذى لا تدركه الحواس ولا تحده الحدود ! !

من أجل هذه الانحرافات كلها ، التى تشمل العقيدة والشعيرة والشريعة [1] . . ركز المنهج القرآنى على تحديد هذه القضية تحديدًا حاسمًا ، وتنزيه العبادة من كل لون من ألوان الشرك يمكن أن يهجس فى بال الإنسان . .

---

(١) سنتكلم فى الفقرة القادمة (ثالثًا) عن المقتضى التشريعى للا إلّه إلا الله .

وقد رأينا ـ من تجربة الواقع ـ أن هذه الهواجس قد ألمت بالأمة الإسلامية ذاتها ، بعد فترة من تنزيه العبادة ، والارتفاع بها إلى المستوى اللائق بجلال الله ، واللائق بالإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم . .

فقد جاءت الصوفية ببدع كثيرة تفسد صفاء العقيدة وصفاء العبادة . .

ولا نتحدث هنا عن الخبل الواضح فى فكرة الاتحاد ، والحلول ، ووحدة الوجود ، مما يتنافى تنافيًا كاملاً مع التوحيد الذى جاء به الرسل جميعًا ، وعلى رأسهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهذا التفكير ـ فى حقيقته ـ نتاجٌ وثنى صريح ، سواء جاء من الهند أو من فارس أو من أى مكان فى الأرض . .

إنما نتحدث عن بدع أخرى نشأت مع الصوفية ، هى عبادة الأضرحة والأولياء ، وتضخم الشيخ فى حس المريد حتى يصبح وسيطًا بينه وبين الله . . وتوجيه ألوان من العبادة إلى أولئك « المشايخ » أحياء وأمواتًا لا يجوز توجيهها لغير الله .

إنها ردة جاهلية . .

صحيح أن الناس اليوم لا يعبدون صنمًا منحوتًا كما كان يفعل المشركون يومذاك . . ولكن كيف نسمى التمسح بالضريح التماسًا للبركة ، والدعاء عنده رجاء الاستجابة ، وطلب المعونة من صاحب الضريح ، والاستغاثة به من الكرب ، والإيمان بأنه ذو حظوة عند الله ، يستطيع بها أن يغير مجرى الأقدار ؟! أو الإيمان بأن الله قد عهد إلى الأقطاب والأبدال أن يتصرفوا فى ملك الله ، فإذا استعطفهم مريدوهم وتضرعوا إليهم صرّفوا الأمور لصالحهم ، وحموهم من الأخطار . .

ألم يكن مشركو الجزيرة يقولون : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[1]؟! أى : لانعبدهم لذواتهم ولكن لما لهم من حظوة عند الله ؟!

أما الشيخ والمريد فبدعة أخرى من بدع الصوفية الخطيرة . .

ولا يعنينا هنا أن نذكر كيف بدأت البدعة ، ولا أن العامة قد ارتموا فى أحضان الصوفية لقلة العلماء المربين الذين يعلمون الناس دينهم على النهج القرآنى الواضح السهل البليغ المؤثر ، وعلى منهج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى يقرب الحقائق للناس حتى

---

(١) الزمر : ٣ .

يتشربوها فى يسر ، وترسخ فى نفوسهم فلا يمحى أثرها . . إنما وجد العامة بدلاً من ذلك من يتكلم عن العقيدة كأنها معاظلات ذهنية تجريدية فلسفية ـ وخاصة فيما يتعلق بالذات الإلهية والأسماء والصفات ـ تجهد الذهن ولا تحرك القلب ، ووجدوا المتخصصين فى الفقه يتحدثون فيه لا على أنه « دين » نزل لينظم حياة البشر على الأرض ، ويربط قلوبهم بالله وهم يأتمرون بأمره وينفذون تعاليمه ، ولكن كأنه قضايا جافة مبتوتة الصلة بالوجدان الحى . . لذلك هرب العامة من معاظلات علم الكلام فى العقيدة ، ومن جفاف الدراسات الفقهية ، إلى الملجأ الذى رأوه يشبع وجدانهم الروحى الظامئ ، ووجدوا فيه راحتهم النفسية التى افتقدوها هنا وهناك . .

ذلك يفسر ولا يبرر . . فلا شىء يبرر الانحراف عن طريق الله القويم :

﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ [1] .

جاء الإسلام ؛ ليلغى كل وساطة بين البشر وربهم ، وليعقد الصلة مباشرةً بين العبد والرب :

﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ﴾ [2] .

﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دعان ﴾ [3] .

وجاءت الصوفية ؛ لتجعل بين العبد وربه وسطاء وشفعاء ، سواء كانوا من الأموات أو الأحياء .

وجاء الإسلام ؛ ليخرج من هذه الأمة « علماء » و « فقهاء » يعلمون الناس أمر دينهم :

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [4] .

﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ [5] .

وجعل أولئك العلماء والفقهاء أئمة ومعلمين ومربين ، وقدوة للناس ، ولم يجعلهم « كهنة » يختصون « بالطقوس » . . ذلك أنه لم يكن عقيدة وشعائر فحسب . . إنما كان عقيدة وشريعة ومنهجًا كاملاً للحياة ، لذلك يحتاج الناس فى ظله إلى علماء وفقهاء يعلمونهم أصول دينهم ومحتوياته ومتطلباته . . أما حين يكون الدين عقيدة فحسب ،

---

(١) الأنعام : ١٥٣ . (٢) غافر : ٦٠ . (٣) البقرة : ١٨٦ .
(٤) فاطر : ٢٨ . (٥) التوبة : ١٢٢ .

وطقوسًا تتعلق بالعقيدة ، فهنا يظهر « الكهنة » ؛ ليكونوا وسطاء بين الناس وربهم ، ويظل الوسيط يتضخم فى حسهم حتى يخرج عن طبيعته البشرية الخالصة ، ويصبح فى حسهم مزدوج الطبيعة فيه ناسوت ولاهوت !

جاء الإسلام ؛ ليجعل الدين خالصًا لله ، وجاءت الصوفية ؛ لتحوّل الشيخ فى حس المريد إلى وسيط بين الناس وربهم ، بحجة أنه مبارك عند الله ، ترجى بركته ؛ ليقرب الناس إلى الله زلفى ، ولَيجعل الله يحيطهم برحمته ، فكأنما له شركة فى الأمر مع الله ، مع أن الله قال لرسوله الحبيب ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ﴿ ليس لك من الأمر شىء ﴾ [(١)]!

وجاء الإسلام ؛ ليقرر بشرية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، بشرية خالصة ، لايخالطها شىء من «اللاهوت»، فغلت الصوفية فى حبه وتعظيمه ، حتى جعلت كأنما خلق الله الخلق ؛ ليشاهدوا الأنوار المحمدية ، وليس أن الله بعث رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهداية البشرية :

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [(٢)].

ثم جعلوا من هذا التعظيم ذاته وسيلة لتضخيم الشيخ فى حس المريد ، بدعوى أن الشيخ يرى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى منامه ، ويتلقى منه مباشرة كلامًا يقوله للناس !! [(٣)].

* * *

منهج العبادة فى هذا الدين واسع شامل ، لا يقتصر على الشعائر التعبدية التى تواضع الناس على أن يسموها « العبادة » . . إنما هذه الشعائر ـ على كل أهميتها التى جعلتها تمثل « الأركان » فى هذا الدين ـ هى جزء فقط من العبادة المفروضة :

﴿ قل إن صلاتى ونسكى ، ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له . . ﴾ [(٤)].

فالصلاة والنسك تمثل الشعائر . . ولكن المطلوب أكبر من هذا . . المطلوب أن تكون

---

(١) آل عمران : ١٢٨ .   (٢) الأنبياء : ١٠٧ .

(٣) ينبغى أن نذكر ـ للحق ـ أنه ليس كل من ينتمى للصوفية تقع منه هذه الانحرافات ، وأن هناك ممن ينتسبون للصوفية من كان سليم العقيدة وعاملاً فى الأرض بمقتضى الشريعة ومجاهدًا فى سبيل الله ، وهؤلاء فى الحقيقة من « الزهاد » وإن أخذوا سمت الصوفية .

(٤) الأنعام : ١٦٢ ـ ١٦٣ .

الحياة كلها حتى الموت ، بل الموت ذاته ، عبادة موجهة إلى الله الذى لا شريك له . أى أن يشمل المنهج التعبدى كل لحظة وكل عمل وكل فكر وكل شعور . .

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (1) .

فإذا كان هدف خلق الجن والإنس محصورًا ـ بالنفى والاستثناء ـ فى عبادة الله ، فهل تكفى الشعائر المفروضة أن تملأ مساحة الحياة كلها حتى الموت ؟!

إنما يتحقق ذلك حين تكون العبادة شيئًا شاملاً لكل جوانب الحياة . .

وهى كذلك بالفعل فى الإسلام . .

الشعائر تستغرق وقتها المكتوب لها ، إن كانت صلاة أو زكاة أو صيامًا أو حجًا ، وقد يزيد الإنسان مساحتها بالنوافل ، ولكنها لا تبلغ أن تملأ مساحة الحياة كلها ، ولا يستطيع الإنسان كذلك أن يملأ بها مساحة الحياة ، فإنما ذلك شأن الملائكة الذين خلقهم الله من نور ، فهم ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ (2) ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ (3) . أما الإنسان الذى خلقه الله من قبضة من طين الأرض ثم نفخ فيه من روحه ، فإن له جسدًا يفتر وعقلاً يشرد ، فلا يطيق أن يسبح الليل والنهار دون فتور . .

ولم يكلفه الله ذلك ، لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها ، وهو الذى خلقه على الهيئة التى خلقه بها ، ويعلم سبحانه حدود طاقاته ، فلا يكلفه ما لا طاقة له به . .

ومع ذلك كلفه أن تكون حياته كلها لله ، وقال سبحانه إنه لم يخلقه إلا للعبادة فحسب . .

فهل يتحقق ذلك إذا كانت العبادة المطلوبة هى الشعائر التعبدية فحسب ؟

كلا ! إنما يتحقق حين يتسع معنى العبادة فيدخل فيه كل نشاط الإنسان فى الأرض . .

وذلك حين يرتبط العمل كله بلا إله إلا الله ، وتصبح لا إله إلا الله ـ بكل مقتضياتها ـ هى منهج الحياة . .

السياسة عبادة . . حين تكون تطبيقًا لشريعة الله ، وتطبيقًا للعدل الربانى فى واقع الأرض ، وتنمية للخير فى نفوس الناس ، وكبتًا للشر ، وتعبيدًا للناس لربهم وحده ، وتحريرًا لهم من الطواغيت . .

---

(1) الذاريات : 56 .　　(2) الأنبياء : 20 .　　(3) التحريم : 6 .

النشاط الاقتصادى عبادة . . حين يكون جمعًا للمال من الكسب الحلال ، وإنفاقًا فى الطيب من الأمور . . سواء كان نشاطًا فرديًا أو جماعيًا ، أو كان نشاط الدولة . .

التعبير الفنى عبادة . . حين يكون دعوة ـ بالأساليب الفنية المشروعة ـ إلى الخير ، ومحاربة للشر ، وحثًا للناس أن يجاهدوا لتعمير الأرض بمقتضى المنهج الربانى ، وإعلاءً لكلمة الله . .

بل « حتى اللقِمة يضعها فى فى زوجته » عبادة كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ [1] ، ليعلّم الناس أن العبادة تشمل كل كبيرة وصغيرة فى حياة الإنسان .

* * *

والعبادات كلها أمر مقصود للدنيا والآخرة معًا فى المنهج الربانى . . سواء كانت شعائر تعبدية أو نشاطًا حيويًا يقوم به الإنسان . .

ليست هناك عبادة للآخرة وحدها كما يسبق أحيانًا إلى ظن بعض الناس . فقد نزل هذا الدين لإصلاح أمر الناس فى الحياة الدنيا ، سواء عقيدته وشريعته . . سواء عباداته ومعاملاته . . وكل شىء فيه :

﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط . .** ﴾[2] .

ولذلك ترتبط الدنيا بالآخرة فى هذا الدين فى كل جزئية من جزئياته ، ويعيش الناس فى ظله بجوارح عاملة فى الحياة الدنيا وقلوب متعلقة بالآخرة . .

﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ [3] .

تنهى عن الفحشاء فى الدنيا . . والأجر فى الآخرة . فيصلى المؤمن ابتغاء وجه الله ، ولينال أجره فى الآخرة ، وفى الوقت ذاته ينتهى عن الفحشاء والمنكر ، فتصلح الحياة الدنيا . .

﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾[4] .

---

(١) أخرجه البخارى وأحمد .

(٢) الحديد : ٢٥ .

(٣) العنكبوت : ٤٥ .

(٤) البقرة : ١٨٣ .

تتقون فى الدنيا ، فتصلح حياتكم فى الأرض . . والأجر فى الآخرة .

﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ (١) .

﴿ والذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم ﴾ (٢) .

﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السَبيل ﴾ (٣) .

فالتطهير والتزكية ومواساة الغنى للفقير من مال الله الذى آتاه ، وقيام ولى الأمر بأخذ الزكاة و إنفاقها فى أبوابها التى حددها الله . . كل هذا يتم فى الدنيا . . والأجر فى الآخرة .

﴿ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾ (٤) .

يتم هذا كله فى الدنيا ، والأجر فى الآخرة ، فتكون العبادة للدنيا والآخرة فى آن .

ومن الجانب الآخر ليس هناك عمل فى حياة المسلم الملتزم بلا إلّه إلا الله - بكل مقتضياتها - يكون للدنيا وحدها منقطعًا عن الآخرة . . حتى علاقة الجنس التى قد ينظر بعض الناس إليها على أنها جسدية بحتة ، أرضية بحتة ، يقول فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

« وإن فى بضع أحدكم لأجرًا » قالوا : يا رسول الله ! إن أحدنا ليأتى زوجه شهوة منه ثم يكون له عليها أجر ؟! « قال أرأيتم لو وضعها فى حرام ، أكان عليه فيها وزر ؟ فإذ وضعها فى حلال فله عليها أجر » (٥) .

فتصبح من ثم أمرًا دنيويًا وأخرويًا فى ذات الوقت . .

وهكذا يشمل المقتضى التعبدى للا إلّه إلا الله كل نشاط الحياة ، ويصبح الإنسان عابدًا لله فى كل لحظة ، سواء كان قائمًا بشعيرة من الشعائر ، أو ذاكرًا لله فى سره أو جهره ، أو مستغرقًا فى عمل يقوم به ابتغاء وجه الله ، أو كافًّا نفسه عن شهوة من شهواتها أو

---

(١) التوبة : ١٠٢ . (٢) المعارج : ٢٤-٢٥ .

(٣) التوبة : ٦٠ . (٤) الحـج : ٢٧-٢٨ .

(٥) أخرجه مسلم .

هاجس شرٌّ ألم بها ، حياء من الله وابتغاء مرضاته . . ويصبح عندئذ من الذين قال الله فيهم :

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون . نزلاً من غفور رحيم ﴾ [1] .

ثالثًا : المقتضى التشريعى

أشرنا من قبل إلى أن « لا إلَه إلا الله » لم تكن قط عقيدة فحسب ، وإنما ارتبط بها فى جميع الرسالات السماوية توجيهات لتنظيم حياة الناس فى الأرض ، وإن كان لم يصلنا عنها إلا إشارات فى القرآن الكريم . وأنه منذ الرسالة التى أنزلت على موسى ـ عليه السلام ـ على الأقل ـ ارتبطت لا إلَه إلا الله « بدستور » كامل للحياة ، وأن هذا الدستور كان دستورًا مؤقتًا فى حالتى اليهود والنصارى ، وافيًا بحاجات بنى إسرائيل فى ذلك الوقت ، سواء الذين آمنوا بموسى ـ عليه السلام ـ أو الذين استحياهم عيسى ـ عليه السلام ـ من تلك الأمة وقالوا « إنا نصارى » . . حتى جاءت الرسالة الأخيرة ، المقدرة فى علم الله ؛ لتكون هى الرسالة الخاتمة ، الموجهة إلى البشرية كافة ، والتى اكتمل فيها التشريع ، ليبقى وافيًا بحاجات البشرية إلى يوم القيامة .

ولن نتحدث هنا عن تفصيلات هذه الشريعة ، فذلك مبحث متخصص ليس مكانه هذه العجالة . إنما الذى نحن بصدده هنا هو تأكيد الصلة الوثيقة بين لا إلَه إلا الله وبين التحاكم إلى شريعة الله ، حيث طغى الغزو الفكرى وضغط « الأمر الواقع » على بعض أبناء هذه الأمة فصارت هذه البديهية المسلمة فى حاجة عندهم إلى بيان . .

يقول تعالى عن المشركين إنهم يقولون :

﴿ أجعل الآلهة إلهًا واحدًا ؟! إن هذا لشىء عجاب ﴾ [2] .

---

(١) فصلت : ٣٠ـ٣٢ .

(٢) ص : ٥ .

﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من دونه من شيء ﴾ [1] .

وتحدد هاتان الآيتان الكريمتان جذور الشرك الثلاثة التى جاء الإسلام ؛ ليجتثها اجتثاثًا ويجعل الدين كله لله . إنها ـ على وجه التحديد ـ عدم الإيمان بوحدانية الله سبحانه وتعالى ، وتوجيه العبادة لغير الله ، والتحريم والتحليل من دون الله ، أى أمر العقيدة ، وأمر العبادة ، وأمر التشريع .

ويقابل تلك الجذور الثلاثة للشرك جذور ثلاثة للإيمان : الإيمان الجازم بوحدانية الله سبحانه وتعالى ، وتوجيه العبادة كلها لله وحده دون شريك ، والتحاكم إلى شريعة الله وحدها دون كل الشرائع ، أى مرة أخرى : أمر العقيدة وأمر العبادة وأمر التشريع ، وتلك هى المقتضيات الرئيسية للا إلّه إلا الله ، التى يعتبر نقضها أو نقص أى واحد منها نقضًا للا إلّه إلا الله [2] .

وخلال ثلاثة عشر قرنًا كاملة من عمر هذه الأمة لم يدر فى خلدها قط أن المسلم يمكن أن يتحاكم إلى شريعة غير شريعة الله ، أو أنه يظل مسلمًا إذا تحاكم عالمًا راضيًا إلى شريعة غير شريعة الله .

ولكن القرن الأخير غيّر من أحوال هذه الأمة أمورًا كثيرة ، ما كان يخطر على بال أحد أن تتغير !

لقد ظل خط الانحراف يتزايد خلال القرون ، وتبعد الأمة رويدًا رويدًا عن حقيقة الإسلام التى عاشتها فترة من الزمن غير قصيرة [3] . . ولكنها على الرغم من كل تراجعها لم تفكر فى التراجع عن أمرين اثنين : الصلاة ، والتحاكم إلى شريعة الله ، بوصفهما سمة لايمكن للمسلم أن يخرج عنهما لتظل له صفة الإسلام .

وفى القرن الأخير . . حين تزايد تراجع الأمة ، واشتد ضغط الأعداء عليها ، حربيًا وسياسيًا واقتصاديًا ، واشتد الغزو الفكرى حتى بلغ غاية مداه . . حدث ما لم يكن يخطر

---

(١) النحل : ٣٥ .

(٢) سنتكلم فى فصل قادم عن نواقض لا إلّه إلا الله .

(٣) اقرأ إن شئت فصل « خط الانحراف » من كتاب « واقعنا المعاصر » .

فى بال أحد ، وتراجعت الأمة عن آخر نقطتين كانت تتشبث بهما ، وزين لها الشياطين أنه الآن . . الآن فقط . . أخذت الأمة تدرج على مدارج الرقى ، وتتقدم إلى الأمام ! !

وقال الشياطين للأمة التى كانت قد نسيت حظًا كبيرًا من دينها : انظروا إلى أوربا ! إنها لم تتقدم إلا بعد أن نبذت الدين وأبعدته عن أن يحكم واقع الحياة !

وقالوا لها كذلك : كيف تحكم الشريعة التى نزلت قبل أربعة عشر قرنًا واقعًا مختلفًا تمام الاختلاف عن الواقع الذى نزلت له ؟ أليست الدنيا تتطور ؟ لابد من تطوير الشريعة لتلائم ما حدث فى الحياة من تطور !

وبسبب الجهالة التى كانت الأمة قد وقعت فيها بالنسبة لدينها ، وبسبب التخاذل أمام الغزو الفكرى وأمام ضغط « الأمر الواقع » الذى أحدثه الأعداء فى بلاد الإسلام . . صدّق هذه الأباطيل جيل كامل من الناس . . إلا ما رحم ربك !

لم يكونوا يجدون أنفسهم ؛ ليناقشوا تلك الأباطيل . . فإن الخواء الذى أصابهم من التخلف العقدى والإيمانى ، لم يترك لهم شيئًا من استعلاء الإيمان ، الذى أخبرهم ربهم أن المؤمن يحس به ولو كان منهزمًا فى المعركة أمام الأعداء :

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ [1] .

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ [2] .

كما أن التخلف الحربى والعلمى والاقتصادى و « التكنولوجى » الذى نشأ عن التخلف العقدى والإيمانى [3] ، جعلهم ينسحقون فى داخل نفوسهم فى مواجهة التفوق الغربى فى كل هذه الميادين . . فلا يجرؤ أحدهم أن يهمس ـ ولو فى سره ـ أنْ ربما كان النموذج الغربى غير صالح فى ذاته ، أو غير صالح لنا على أقل تقدير !

وى ! وهل يجوز للقزم أن ينتقد العملاق ؟ أى جرأة ! بل أى جنون ؟!

* * *

فأما أوربا ودينها ، وتقدمها بعد أن نبذت دينها ، فقد تحدثت عنه فى أكثر من كتاب[4] .

---

(١) آل عمران : ١٣٩ .　　(٢) المنافقون : ٨ .

(٣) اقرأ إن شئت فصل « آثار الانحراف » من كتاب « واقعنا المعاصر » .

(٤) « مذاهب فكرية معاصرة » و « رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر » و « حول تطبيق الشريعة » .

وخلاصة القول أن أوربا لم تعرف قط دين الله كما أنزل ، إنما الذى عرفته وتشبثت به اثنى عشر قرنًا كاملاً هو دين بولس ـ الذى كان اسمه شاول أيام يهوديته قبل أن يعلن الدخول فى النصرانية ـ وهو دين مدخول ، جمع من النقائض ما يعجب الإنسان من قوم صدقوه ، وتشبثوا به ، ورفضوا كل محاولة لتصحيحه ، وقاتلوا قتالاً وحشيًا من أجله . . ثم أخيرًا نبذوه [١] !

ليس العجب أنهم نبذوه . . بل العجب أنهم صدقوه ، وتشبثوا به كل هذه القرون . .

أفيجىء مسلم يعرف دين الله حقًا فيقول : أريد أن أنبذ دينى كما نبذت أوربا دينها لأتقدم ؟ !

﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ﴾ [٢] .

وأما لوثة التطور التى أصابت أوربا فما كان ينبغى لها أن تتدسس إلى قلوب الناس وعقولهم فى العالم الإسلامى ، لو أنهم عرفوا دينهم حق المعرفة ، وقرأوا تاريخهم ، واطلعوا على تراثهم !

إن أوربا ظلت حياتها كلها تتخبط من طرف إلى طرف دون أن تتوقف عند نقطة الوسط الموزونة ، لأن حياتها كلها كانت ردود فعل متوالية لمظالم وانحرافات يقع أمثالها فى كل جاهلية من جاهليات التاريخ .

ونشهد أن أوربا فيها حيوية ، وجلد ، ومثابرة ، وعزيمة . . ولكن هذا كله بغير هدى الدين الصحيح يذهب هباء فى الدنيا والآخرة . . فأما فى الدنيا ؛ فلأن ما فيه من انحرافات يقضى عليه فى النهاية وإن طال الأمد [٣] ، وأما فى الآخرة فلقوله تعالى :

﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورًا ﴾ [٤] .

وفى واحدة من هذه التخبطات ، انتقلت أوربا من فكرة الثبات المطلق فى كل شىء إلى فكرة التطور المطلق فى كل شىء ، ولم تقف عند نقطة الوسط الموزونة التى تدرك أنه ليس كل شىء فى حياة الإنسان ثابتًا ، أو ينبغى له أن يثبت ، وليس كل شىء متغيرًا ، أو ينبغى

---

(١) مما ينبغى تذكره أن أوربا نبذت الدين ولكنها حافظت على عصبيتها الصليبية ضد الإسلام .

(٢) فاطر : ١٩ ـ ٢٠ .

(٣) كما انهارت الشيوعية أخيرًا .

(٤) الفرقان : ٢٣ .

له أن يتغير . إنما فى حياة الإنسان ثوابت ومتغيرات . . لا الثوابت ينبغى لها أن تتغير ، ولاالمتغيرات ينبغى لها أن تثبت ، وإلا فسدت حياته ولم يعد لها « ميزان » . . والله يقول :

﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ (١) .

* * *

قضية التِشريع قضية ذات صلة مباشرة بقضية الألوهية . .

وهى ليست مرتبطة بها برباط واحد ، وإنما برباطين اثنين فى آن واحد . .

فأما الرباط الأول فهو أن التشريع حق خالص للخالق سبحانه وتعالى بمقتضى أنه هو الخالق :

﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ (٢) .

فهو صاحب الأمر ، أى الذى يحق له أن يقرر . . أن يقول هذا يكون وهذا لا يكون . هذا صواب وهذا خطأ . هذا حسن وهذا قبيح . هذا حلال وهذا حرام . . كل ذلك ؛ لأنه هو الخالق . هو الذى خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان ، ووهب له ما وهب من عقل مفكر وحواس مدركة ونعم لا تحصى . وهذا الإنسان ـ الذى ينازع الله حقًا من حقوقه الخالصة ـ لم يخلق نفسه ولا غيره ، ولم يرزق نفسه ولا غيره ، إنما هو عالة على خالقه فى الصغيرة والكبيرة ، حتى شربة الماء التى يشربها ، ونفس الهواء الذى يتنفسه ، فضلاً عن وجوده أصلاً ، وتيسير كل مستلزمات حياته له .

فأيهما إذن هو الذى يقرر ؟ الذى يخلق أم الذى لا يخلق ؟

لذلك يقول الله فى هذه القضية : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ؟! ﴾ (٣) .

والمقصود الأول من الآية هو لفت النظر إلى أن الآلهة المزعومة التى كان العرب يعبدونها فى الجاهلية لا تستحق العبادة لأنها لا تخلق ، كما جاء فى آية تالية : ﴿ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئًا وهم يُخلقون ﴾ (٤) .

ولكن معنى الآية ينطبق على كل مدعٍ للألوهية ، وكل من اتخذه الناس ربًا من دون الله . والأمران ينطبقان على مدعى حق التشريع من دون الله ، فهو يجعل من نفسه ندّا لله .

---

(١) الحديد : ٢٥ .　　(٢) الأعراف : ٥٤

(٣) النحل : ١٧ .　　(٤) النحــل : ٢٠ .

الله يقول : هذا حرام فيقول هو : هذا حلال ! والله يقول : هذا حلال فيقول هو : هذا حرام ! والذين يتبعونه فى التحليل والتحريم من دون الله قد اتخذوه ندًا لله ، كما قال تعالى فى حق اليهود والنصارى :

﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله . . ﴾ [1].

ولما اعترض عدى بن حاتِم لجهله لمفهوم العبادة ، وقال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ما عبدوهم ! قال له عليه الصلاة والسلام مبينًا حقيقة الأمر : ألم يحلوا لهم الحرام ويحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم ؟ فتلك عبادتهم إياهم [2]!

ذلك هو الرباط الأول الذى يربط قضية التشريع ربطًا مباشرًا بقضية الألوهية : أن حق التشريع هو لمن يخلق ، وليس للذى لا قدرة له على الخلق ، صنمًا كان أو بشرًا ، حاكمًا كان ، أو محكومًا ، فكلهم ينطبق عليه قوله تعالى :

﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له ! وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب ! ﴾ [3].

أما الرباط الآخر فمتعلق بصفات أخرى من صفات الله سبحانه وتعالى إلى جانب أنه « الخالق » ، وهى أنه « اللطيف الخبير » و « الحكيم العليم » .

إن الذى يشرع ينبغى له أن يكون حكيمًا ؛ لتكون تشريعاته صالحة ، ويكون عليمًا بأحوال البشر الذين يشرع لهم ؛ لكى تكون تشريعاته مناسبة لكيانهم وأحوالهم ، ويكون لطيفًا [4] ؛ ليعلم ما خفى من الأمور ، ويكون خبيرًا بما تحدثه تشريعاته من آثار ، لكى لا يضع تشريعات ينجم عنها الضرر فى الحاضر أو المستقبل . فمنذا الذى يزعم ـ من البشر جميعًا ـ أنه متصف بهذه الصفات ، ومتصف بها أكثر من الله ؟!

﴿ قل : أأنتم أعلم أم الله ؟ ﴾ [5].

﴿ وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ [6].

---

(١) التوبة : ٣١ . (٢) أخرجه الترمذى . (٣) الحج : ٧٣ .

(٤) وردت كلمة « لطيف » فى القرآن الكريم بمعنى عليم بما خفى من الأمور .

(٥) البقرة : ١٤٠ . (٦) البقرة : ٢١٦ .

وحين زعم الأوربى ـ بعد أن انسلخ من دين بولس ، الذى ظن خطأ أنه دين الله ـ حين زعم أنه « شب عن الطوق ، ولم يعد فى حاجة إلى وصاية الله » . . فماذا فعل بتشريعاته ؟!

ماذا فعل حين « حرر » المرأة ؛ ليزيل ما كان واقعًا عليها من ظلم فى المجتمع الأوربى ، فأفسد أخلاقها ، وأخلاق الرجل معها ، وحطم الأسرة وشرد الأطفال ، ونشر الشذوذ والجريمة ؟

وماذا فعَل حين ظل يخفف العقوبات على الجريمة حتى صارت الجريمة أمرًا عاديًا فى المجتمع ، وجزءًا من الحياة ؟!

وماذا فعل حين أحل الربا وأقام عليه اقتصادياته ، فبرز طواغيت الرأسمالية يمتصون دماء الكادحين ويستعبدونهم ؛ ليزدادوا ترفًا وثراء ويزداد الفقراء فقرًا وتعاسة ؟

وماذا فعل حين جعل سياسته العالمية مبنية على حق الوحوش ـ التى تسمى نفسها الدول العظمى ـ فى اقتراف ما يحلو لها من افتراس الصغار وإذلال كرامتهم ، والاحتماء بعد ذلك بحق « الفيتو » من أن ينالها أى عقاب على جرائمها ؟

وماذا . . وماذا . . وماذا من اختلالات واضطرابات وحروب ومجازر ومظالم على نطاق الأرض كلها ، حين زعم الأوربى أنه « شب عن الطوق ولم يعد فى حاجة إلى وصاية الله »؟!

* * *

إذا تبينت لنا العلاقة الوثيقة بين قضية التشريع وقضية الألوهية ، وأن حاكمية الله فى الشريعة إن هى إلا جزء من حاكميته سبحانه فى الكون كله ، بما أنه هو الخالق الذى لاخالق غيره ، الرازق الذى لا رازق غيره ، المدبر المهيمن ، العليم الحكيم :

﴿ إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه . . ﴾ [1] .

﴿ له الحكم وإليه ترجعون . . ﴾ [2].

﴿ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إلّه إلا هو فأنى تؤفكون؟ ﴾[3].

---

(١) يوسف : ٤٠ .
(٢) القصص : ٨٨ .
(٣) فاطر : ٣ .

﴿ وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله ، ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب . فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجًا ومن الأنعام أزواجًا يذرؤكم فيه . ليس كمثله شىء وهو السميع البصير . له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شىء عليم . **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذى أوحينا إليك ،** وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . كبر على المشركين ماتدعوهم إليه . الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ﴾ [1] .

﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ ﴾ [2] .

إذا تبينت لنا هذه العلاقة الوثيقة المباشرة ، فإننا ننتقل إلى حديث سريع عن بعض ماتفردت به الشريعة الربانية التى قال الله فى شأنها :

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون ؟ ﴾ [3] .

إن حكم الجاهلية هو حكم البشر بعضهم لبعض . . فإن الآية الكريمة تبيّن أن هناك نوعين اثنين من الحكم لا ثالث لهما . إما حكم الله وإما حكم الجاهلية . ومن ثم فكل حكم بغير ما أنزل الله هو حكم جاهلية أيًا كان مصدره وأيًا كانت صورته ومحتوياته .

وحين لا يلتزم الناس بشرع الله ، فالبشر هم الذين يشرعون ، سواء كان المشرع فردًا ، أو جماعة من الناس ، أو مجموع الناس كلهم . . فكلهم بشر ، وحكمهم كله حكم جاهلية مادام لا يلتزم بما أنزل الله .

وأول ما يلحظ الإنسان فى الشريعة الربانية هو الشمول والإحاطة .

فحين اكتمل الدين ، وقال تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ [4] كانت الشريعة الربانية قد أحاطت بكل جوانب الحياة البشرية ، وشملت كل متطلبات الإنسان فى حياته على الأرض .

وهنا ترد قضية الثابت والمتغير فى حياة الإنسان ، ويرد السؤال : كيف تمتد صلاحية الشريعة خلال القرون المتعاقبة والحياة دائمة التغير لا تثبت على صورة واحدة ؟

وهنا تبرز الجاهلية تقول : لابد أن يشرع البشر لأنفسهم ، لأن الشريعة الثابتة لا يمكن

---

(١) الشورى : ١٠ ـ ١٣ . (٢) الشورى : ٢١ .

(٣) المائدة : ٥٠ . (٤) المائدة : ٣ .

أن تتلاءم مع مستجدات الحياة ، وقد وصل الإنسان إلى القمر ، وفجر الذرة وصنع الأعاجيب !

والذين يقولون مثل هذا من « المسلمين ! » لا يعرفون شيئًا عن شريعتهم الربانية ، ولايقرءون تاريخ أمتهم ، ولا يراجعون تراثهم ؛ لأنهم أداروا ظهرهم لهذا كله منذ دخلوا فى عبودية الانبهار بما عند الغرب ، وانسحقوا تحت الغزو الفكرى ، وضغط « الأمر الواقع » الذى أحدثه الغزو الصليبى فى ديار المسلمين :

﴿ ولو جعلناه قرآنًا أعجميًا لقالوا : لولا فصلت آياته ؟! أأعجمى وعربى ؟! قل : هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ، وهو عليهم عمىً . أولئك ينادون من مكان بعيد ! ﴾ [1] .

إن فى حياة الإنسان ـ كما فى بنية الكون كله ـ ثوابت ومتغيرات . .

وفى السنوات الأخيرة من تقدم العلم تبين الناس هذه الحقيقة بالنسبة للكون المادى . تبينوا أن هناك تغيرًا دائمًا ، أو ـ كما يحلو لهم أن يسموه ـ تطورًا دائمًا فى شكل الكون : تموت نجوم وتولد نجوم . . يتجمع سديم وتتناثر كواكب . . تتحول معادن مشعة إلى أخرى غير مشعة ويتغير وزنها الذرى . . ولكن هذا كله يتم فى إطار محور ثابت قوامه تركيب الذرة الذى لا يتغير مهما تغير الشكل الخارجى للكون .

أما فى حياة البشر فقد أدرك المسلمون حقيقة الثبات والتغير منذ التزموا بهذا الدين . منذ أخلصوا قلوبهم للا إله إلا الله ، فاستنارت بصيرتهم بنور الله . .

أدركوا أن فى حياة الناس أمورًا ثابتة لا يجوز أن تتغير ، لأنها إن تغيرت تفسد الحياة ؛ وأمورًا دائمة التغير فى شكلها ، ولكنها محكومة فى تغيرها بقواعد ثابتة لا تتغير ، وإلا تحول التغير إلى فوضى لا يحكمها ضابط . .

وأدركوا أن الشريعة الربانية تلتقى التقاء كاملاً مع هذه الحقيقة الكائنة فى حياة البشر . ففيها ثوابت لا تتغير ، تحدد الأمور الثابتة فى حياة البشر . وفيها قواعد ثابتة تحكم ما هو عرضة للتغير الدائم بحكم انتقال حياة الناس من طور إلى طور . . وأن الله أنزل تفصيلات فى الأمور الثابتة ، سواء فى كتابه المنزل، أو فى سنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، بينما أنزل

---

(١) فصلت : ٤٤ .

حكمًا مجملاً فى المتغيرات ، ثم أباح للعقل المؤمن ، الملتزم بمقتضيات لا إلّه إلا الله أن «يجتهد » فى إنزال المستجدات على الأحكام الثابتة ، فكان « الفقهُ » الذى بدأ مباشرة بعد وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانقطاع الوحى . . أى منذ قام المسلمون بالتطبيق العملى لهذا الدين ، مستمدين من كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ومستندين إليهما فى كل الأمور . .

والاجتهاد هو الأداة الدائمة للتوفيق الدائم بين الثابت والمتغير فى حياة المسلمين ، والأداة التى حفظت حياة المسلمين فى إطار الشريعة الربانية عدة قرون . .

وهنا يتحفز « العلمانيون » بدعاوى ، يحسبون أنهم يبطلون بها شريعة الله !

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ [1] .

منهم من يقول : إن الحياة الإسلامية جمدت فى القرون الثلاثة الأخيرة بسبب ثبات أحكام الشريعة ، وعدم وفائها بالمستجدات الهائلة التى جدّت فى حياة البشر . .

وهؤلاء لا يدركون أنهم بهذه القولة يخرجون من دين الله أصلاً ، بل يخرجون من الباب الأكبر الذى يدخل منه المسلمون فى دين الله ، وهو باب العقيدة . لأنهم ـ وإن لم يعوا ذلك ـ ينفون عن الله جل وعلا صفة العلم وصفة الحكمة ، كأنهم يتصورون ـ فى جهالتهم ـ أن الله لم يكن يعلم ـ وهو يفرض هذه الشريعة ـ أن أحوال الناس ستتغير فى القرون التالية ، وأن الشريعة التى فرضها لن تصبح إذن وافية بما جد فى حياة الناس ! كما أن فرض شريعة غير صالحة للتطبيق فى الظروف المتجددة أمر لا حكمة فيه ، بل هو مجافٍ للحكمة تمام المجافاة !

ومنهم من يقول : إن الاجتهاد عملية بشرية . . وإن الذى يطبق ليس هو شرع الله ، إنما هو فهم البشر لشرع الله ! وإن شرع الله ـ على هذا المعنى ـ شىء لا وجود له فى الحقيقة ! إنما الموجود هو التصور البشرى لشرع الله ، وهذا قابل للتغير ، كما أن الاختلاف حاصل فيه بالفعل بين فقيه وفقيه . . فلماذا نطالب بتطبيق شىء لا وجود له فى الحقيقة ، أو ليست له صورة محددة يمكن أن يقال : إنها هى ـ وليس غيرها ـ شرع الله !!

---

(١) الصف : ٨ـ ٩ .

ويزيد على ذلك قوم آخرون فيقولون : مادامت هى عملية بشرية ، فلماذا لا نكون صرحاء مع أنفسنا ، ونكون فى الوقت ذاته من الشجاعة بحيث نتخذ قرارًا حاسمًا : أن نلغى من حسابنا تمامًا شيئًا اسمه الشريعة . ونأخذ القانون الوضعى بلا تحرج ، لأنه قانون « جاهز » و « متطور » ومساير لما حدث فى حياة الناس من مستجدات ! فوق أنه قانون لاقداسة له ، لأنه من صنع البشر فنستطيع أن نلغيه متى نشاء ، أو نعدله متى نشاء !!

وهؤلاء وهؤلاء ـ وإن كانوا « قانونيين ! »[1] ـ يغالطون أنفسهم ، أو يغالطون الناس مغالطة قبيحة مكشوفة . .

فالاختلاف فى تفسير النص وارد ، والاختلاف فى الاستمداد من القواعد الثابتة من أجل استنباط أحكام لما يجد من المصالح المرسلة وارد . . وهو أمر قديم عرفه الفقهاء منذ كان هناك فقهاء ، وأقر بعضهم بعضا على مبدأ الخلاف ، ولم يروا فيه ثَلْمًا للشريعة ولاإلغاءً لها ، ولا تحويلاً لها إلى شيء صورى لا وجود له فى الحقيقة . .

والمغالطة القبيحة المكشوفة هى إغفال الحدود التى يجتهد فيها المجتهدون ، وتصوير عملية الاجتهاد كأنها تجرى بلا ضابط ! إن الاجتهاد حدوده ألا يحل حرامًا ، أو يحرم حلالاً ، وألا يخالف مقاصد الشريعة . .

وفرق ضخم فى عالم الواقع بين اجتهاد يلتزم بهذه الحدود ـ مهما اختلف المجتهدون فيما بينهم ـ واجتهاد لا ضابط له إلا النظر البشرى ، أو قل : الهوى البشرى والقصور البشرى!

والمسألة أوضح من أن تحتمل المِحال والمماحكة . .

هل يستوى المجتمع الذى يجتهد الفقهاء فيه ، ولكنهم يلتزمون ـ مهما اجتهدوا ـ بتحريم الفاحشة ، والمجتمع الذى يؤدى فيه الاجتهاد إلى إباحة الفاحشة سوية وشاذة؟!

هل يستوى المجتمع الذى يجتهد الفقهاء فيه ، ويلتزمون ـ مهما اجتهدوا ـ بتحريم الربا، والمجتمع الذى يؤدى الاجتهاد فيه إلى إباحة الربا وجعله هو أداة النشاط الاقتصادى . . المدمِّر !

هل يستوى المجتمع الذى يجتهد الفقهاء فيه ، ويلتزمون ـ مهما اجتهدوا ـ بتطبيق

---

(١) معظمهم من القانونيين !

الحدود [1] ، والمجتمع الذى يؤدى الاجتهاد فيه إلى التخفيف المستمر فى العقوبة ، الذى أدى إلى التزايد المستمر فى الجريمة . . ؟!

أما إذا التزمنا فى الاجتهاد بمقاصد الشريعة ، فماذا يبقى للعلمانيين ؟!

* * *

يلفت نظرنا كذلك فى هذا الدين كون التشريع واحدًا من الأدوات التى يصان بها المجتمع من الفساد ، ولكن الشريعة لا تعمل وحدها . ومن ثم فليس الأمر فيها أنها «قانون » يمكن أن يستبدل به قانون آخر ! إنما هو كتاب أحكمت آياته وفصلت من لدن عليم حكيم . إنه منهج متكامل فى معالجة الأمور . . لا يأخذ الأمور فرادى ، ولا يضع العلاج لها فرادى . .

ولنأخذ نموذجًا من تطبيق الحدود . .

حد السرقة قطع اليد . .

وحين تعرض المسألة من خلال هذه الجزئية وحدها تتحفز بعض الألسنة للاستنكار باسم « إنسانية » التعامل حتى مع المجرم . . وتتململ بعض الأفكار فى بعض الرءوس : أو لم يكن الأنسب أن تكون العقوبة أقل قسوة ؛ السجن مثلاً مدة من الزمن . . ؟!

وينطلق هؤلاء وهؤلاء من جهل مطبق بالإسلام ، وانبهار بالغرب يستعبد الأرواح . .

إن الإسلام لا يأخذ الأمر من جانب العقوبة وحدها ، ولا يبدأ العلاج بتطبيق العقوبة . . إنما العقوبة آخر شيء يلجأ إليه الإسلام . .

إنما المنهج الربانى يهدف إلى منع أسباب الجريمة أولاً ؛ لكى لا تحدث ابتداء [2] . .

يبدأ بترسيخ الإيمان بالله واليوم الآخر ، وإيجاد الصلة الحية بين العبد وربه . . الصلة التى تولّد فى القلب الحياء من الله ، والحب الذى يؤدى إلى الطاعة ، والخوف الذى يؤدى إلى الامتناع عما يغضب الله :

﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ [3] .

---

(١) لا يعالج الإسلام الجريمة بالعقوبة وحدها ، ولا يبدأ بالعقوبة ، كما سيتبين فى السطور القادمة .

(٢) اقرأ إن شئت فصل « الجريمة والعقاب » من كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » .

(٣) الإسراء : ٥٧ .

ثم يقوى أواصر التواد والتراحم فى المجتمع ، وترسيخ « الأخوة » بين المؤمنين :
﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ [1] .

ثم يشد رباط الأسرة ، وهى المحضن الذى يتربى فيه الطفل صغيراً ، لينشأ على أخلاقيات الإسلام [2] .

وبالإضافة إلى هذه « المعنويات » كلها ـ وإن كانت كلها معنويات ذات واقع حسى ـ يجعل فى أموال الأغنياء فريضة يجمعها ولى الأمر ـ ويقاتل من يمتنع عن أدائها ـ وينفقها على المحتاجين إليها . .

ويجعل بيت المال فى النهاية مسئولاً عن كل من قعدت به ظروفه عن العمل ، أو جعلته دون المستوى اللائق بالنسبة لحال الأمة كلها من الغنى أو الفقر . .

فإذا كان ذلك كله فلماذا يسرق السارق ؟!

إنه ـ إن فكر فى السرقة ـ فهو غير معذور !

وعندئذ تكون قسوة العقوبة التى تنتظره وسيلة لصده عن التفكير فى ارتكاب الجريمة . .

ومع ذلك كله فإنه إن سرق بالفعل فلا يطبق عليه الحد حتى يتأكد الحاكم أنه غير معذور !

سرق غلمان لحاطب بن بلتعة ناقة لرجل من مزينة ، فأتى بهم إلى عمر ـ رضى الله عنه ـ فأقروا فأمر كثير بن الصلت بقطع أيديهم ، فلما ولّى رده وقال لحاطب : والله لولا أنى أعلم أنكم تستعملونهم فتجيعونهم ، حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه لحل له . . لقطعت أيديهم . فإذ لم أفعل فلأغرمنك غرامة توجعك . ثم التفت إلى المزنى فقال : بكم أريدت منك ناقتك ؟ قال : بأربعمائة . فقال لحاطب : اذهب فأعطه ثمانمائة !

أى روعة فى العدل الربانى ، المتمثل فى شريعة الله . . !

أين يذهب العلمانيون من وجه الله وهم يرفضون هذا الهدى الربانى الرائع ويبحثون عن قوانين ظهر فسادها فى بلادها ، وضجرت منها مجتمعاتها ؟!

---

(١) الحجرات : ١٠ .

(٢) سنتكلم فى الفقرة التالية (رابعًا) عن المقتضى الأخلاقى للا إلّه إلا الله .

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ؟! ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون ؟! ﴾[1] .

* * *

تلك إشارات عابرة إلى بعض ما تميزت به الشريعة الربانية ، ولكن هذا ليس مبحثنا فى هذه العجالة . إنما هدفنا هنا التركيز على نقطة معينة هى الصلة الوثيقة بين العقيدة والشريعة فى دين الله ، وأن الحكم بما أنزل الله هو أحد المقتضيات المباشرة للا إلّه إلا الله ، كالمقتضى الإيمانى والمقتضى التعبدى . . كلها جذور أساسية للإيمان ، لو نقضت كلها أو نقض واحد منها ذهب أصل الإيمان .

رابعًا : المقتضى الأخلاقى

استوقفنى كثيرًا حديث للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« أربع من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر »[2] .

استوقفنى لأن النفاق قضية متعلقة بالعقيدة ، والكذب والغدر وخلف الوعد والفجور فى الخصومة قضايا أخلاقية . .

سبحان الله ! كيف يتصور قوم إذن أن الأخلاق لا صلة لها بالعقيدة ؟!

لقد كانت صلة الأخلاق بالعقيدة قضية بديهية عندى . . وكنت أكتب عن «أخلاقيات لا إلّه إلا الله » مستيقنًا وجود هذه العلاقة التى لا تنفصم بين لا إلّه إلا الله وتلك الأخلاقيات . .

لذلك عجبت ذات مرة ، فى أثناء مناقشة رسالة جامعية لطالب فى قسم العقيدة ، ركز فيها على صلة الأخلاق بالعقيدة فى الإسلام ، حين قال له أحد المناقشين محتدًا : ماعلاقة الأخلاق بالعقيدة ؟! العقيدة كما تعلمناها فى دراستنا إلّهيات ونبوات وسمعيات ! أما الأخلاق فموضوع مستقل !

---

(١) المائدة : ٥٠ .   (٢) أخرجه مسلم .

دهشت لأن المناقش كان رجلاً مشهودًا له بحسن الاطلاع وسعة الأفق ، وهو داعية ذو شهرة واسعة . . وكان تعليقى يومها أن الفصل بين لا إله إلا الله ومقتضياتها هو السبب الأكبر فيما آلت إليه حال الأمة من الضياع . .

* * *

فى أول سورة أنزلت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لفتة أخلاقية واضحة ، بينما السورة أنزلت لبيان العقيدة الصحيحة التى بعث بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمواجهة الجاهلية التى تملأ يومئذ وجه الأرض .

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم . كلا ! إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى . إن إلى ربك الرجعى . أرأيت الذى ينهى ، عبدًا إذا صلى ؟! أرأيت إن كان على الهدى ، أو أمر بالتقوى ؟! أرأيت إن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى ؟! كلا ! لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة . فليدع نادية ! سندع الزبانية ! كلا ! لا تطعه ، واسجد واقترب ﴾ [1] .

إنها بداية تعريف الناس بربهم ؛ ليعبدوه وحده بلا شريك . .

وفى غير هذا الكتاب [2] أشرت إلى أن بداية التعريف كانت بذات المعلومات التى كان المشركون يعرفونها بالفعل : أن الله هو الذى خلق ، وأنه خلق الإنسان من علق . وتلك معلومات سجل الله عليهم أنهم كانوا يعرفونها ويقرون بها :

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ [3] .

﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ [4] .

﴿ كلا ! إنا خلقناهم مما يعلمون ﴾ [5] .

﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ؟! ﴾ [6] .

ولكن هذه المعرفة التى سجلها الله عليهم لم تكن تؤتى ثمارها فى قلوبهم ، لأن الشرك

---

(١) العلق . (٢) فى كتاب « دراسات قرآنية » . (٣) لقمان : ٢٥ .
(٤) الزخرف : ٨٧ . (٥) المعارج : ٣٩ . (٦) الواقعة : ٦٢ .

كان قد أفسد البذرة الحية فى تلك القلوب . . بذرة الإيمان بالله الواحد ، التى فطر الله الناس عليها :

« فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [1] .

فكان لابد من استنبات البذرة من جديد ، لتؤتى ـ فى هذه المرة ـ ثمارها الصحيحة ، فبدأ الوحى بتعريف الناس أن ربهم هو الذى خلقهم من علق ، وأنه علم بالقلم ؛ علم الإنسان ما لم يكن يعلم ، فله الفضل فى إيجاد الإنسان أصلاً ، وصيرورته إنسانًا متكاملاً بعد أن كان علقة لا تكاد ترى ، وله الفضل فيما يتحصل عليه الإنسان من العلم ، بينما الناس يولدون لا يعلمون شيئًا :

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ [2] .

ومقتضى هذا الفضل كله من جانب الله ، أن يشكر الإنسان النعمة ، ويتوجه بالعبادة إلى خالقه وحده ، لا يشرك به شيئًا . . ولكن النفوس المنحرفة « تطغى » عن الحق ، فلا تقف عنده ، بل تقتحمه وتتخطاه . .

﴿ كلا ! إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ﴾ .

ونقف هنا عند الطغيان . . إنه « خُلُق » . . خُلُقٌ جاهلى يُذْكَرُ من أسبابه هنا سببان رئيسيان : توهم الإنسان أنه استغنى عن خالقه ، بسبب ذات العطاء الذى تفضل الله به عليه ! وعدم إيمان ذلك الإنسان بأن هناك رُجْعيَ إلى الله ، يحاسب الله فيها عباده على مااقترفوا فى حياتهم الدنيا . .

ومن ثم تنبه الآيات إلى ذلك المرض الذى يصيب النفوس فى الجاهلية فتطغى ، وتقدم العلاج اللازم لذلك ، وهو التنبيه إلى أن ما يتمتع به الإنسان من نِعمٍ هو من عند الله ، وأن هناك رجعى وحسابًا وثوابًا وعقابًا . .

﴿ اقرأ باسم ربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

---

(١) الروم : ٣٠ .　　　(٢) النحل : ٧٨ .

﴿ إن إلى ربك الرجعى . . . ﴾ .

ونمضى مع الآيات حتى قوله تعالى : ﴿ كلا ! لئن لم ينته لنسفعًا بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة ﴾ .

هنا خلق آخر من أخلاق الجاهلية . . الكذب . . والكذب هنا أوسع مما اصطلح الناس فيما بينهم أن يسموه كذبًا ، إنه كذب على الله . وكذب على الفطرة التى فطرها الله . وكذب على الحق الذى خلق الله به السموات والأرض . . ولكنه أولاً وآخرًا خلق . .

وفى المقابل تُذْكَر الأخلاقيات التى يتحلى بها المؤمنون ؛ التقوى فى مقابل الطغيان . والسجود والاقتراب من الله بالعمل الصالح فى مقابل الكذب على الله وعلى الحق . .

* * *

هذه اللفتة الواضحة إلى « الأخلاق » فى أول سورة عن العقيدة ذات دلالة ولا شك . إن هناك اقترانًا واضحًا بين العقيدة الصحيحة والأخلاق الفاضلة ، وبين العقيدة المنحرفة والأخلاق المرذولة . .

وتتوالى السور القرآنية فتتضح الصلة أكثر بين العقيدة والأخلاق :

﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ (١).

﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا . والذين يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا ، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، إن عذابها كان غرامًا ، إنها ساءت مستقرًا ومقامًا ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوامًا ، والذين لا يدعون مع الله آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرّم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثامًا ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانًا ، إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحًا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان

---

(١) المؤمنون : ١ ـ ١١ .

الله غفورًا رحيمًا . ومن تاب وعمل صالحًا فإنه يتوب إلى الله متابا . والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما، والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمًا وعميانًا، والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما . أولئك يجزون الغرفة بما صبروا، ويلقون فيها تحية وسلاما، خالدين فيها حسنت مستقرًا ومقامًا﴾[1].

هل يمكن فصل العقيدة فى هذه الآيات عن الأخلاق ؟ كلا ! إنها أخلاقيات لا إله إلا الله !

* * *

يلفت النظر فى « المقتضى الأخلاقى » للا إله إلا الله أنه يجعل الأخلاق أولاً وقبل كل شىء ميثاقًا مع الله :

﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولو الألباب ، **الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق** . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرًا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ﴾ [2] .

﴿ واذكروا نعمة الله عليكم ، وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا . . ﴾[3].

هذا هو الميثاق . . « إذ قلتم سمعنا وأطعنا » وهو ميثاق لا إله إلا الله ، التى تعنى - فيما تعنى - الالتزام بما جاء من عند الله .

إن الأخلاق لابد لها من « مصدر إلزام » ، فهى كلها ضوابط على شهوات النفوس . . وقد خلق الله هذه الشهوات لحكمة ، وعمقها فى نفوس الناس :

﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا . . ﴾ [4] .

إنها - من جهة - دوافع تدفع الإنسان إلى الحركة والنشاط والسعى فى الأرض ، فتتحقق عمارة الأرض ، التى هى جزء من مهمة الخلافة ، وجزء من مهمة الإنسان فى الأرض :

﴿ وإذ قال ربك إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ [5] .

---

(١) الفرقان : ٦٣ - ٧٦ . (٢) الرعد : ١٩ - ٢٢ . (٣) المائدة : ٧ .
(٤) آل عمران : ١٤ . (٥) البقرة : ٣١ .

﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ [1] .

وهى ـ من جهة أخرى ـ محل الابتلاء الذى خلق الإنسان من أجله :

﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ [2] .

ومع ضرورتها للإنسان فى حركته لتعمير الأرض ، ولزومها للابتلاء الذى قدره الله للإنسان ، فإن الله يعلم أن الانجراف معها بلا ضوابط عمليةٌ مدمرة لكيان الإنسان ، تهبط به إلى مكانة أضل من الحيوان ، وتبدد حياته سدى . . فلابد لها من ضوابط .

والضوابط هى الأخلاق . .

وقد زعمت الجاهلية المعاصرة ـ متأثرة بفرويد مرة ، ودوركايم مرة ، وماركس مرة [3] ـ أن الأخلاق أمر مفتعل ، ليس فى فطرة الإنسان ، وإنما هى مفروضة عليه من الخارج ، وهى أقرب أن تكون قيدًا ثقيلاً من أن تكون أداة نافعة للإنسان ، وأنها ذات معايير متقلبة لا تثبت على حال . . بل لا ينبغى لها الثبات !

والحقيقة أن الإنسان كائن أخلاقى بطبعه . . بحكم فطرته التى فطر عليها :

﴿ ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾ [4] .

فالإنسان كائن مزدوج الطبيعة ، له طريقان لا طريق واحد كالحيوان . وقد أُلْهِمَ التمييز بين الطريقين ، كما أعطى القدرة على اختيار واحد منهما . . ومن ثم أصبحت لأعماله قيمة أخلاقية مصاحبة لها لا تنفك عنها ، لأن كل تصرف للإنسان هو خيار بين طريقين ، أحدهما طريق التقوى والآخر طريق الفجور . .

إننا لا نقول عن الحيوان إنه كائن أخلاقى ، لأن له طريقًا واحدًا لا يملك أن يحيد عنه ، هو طريق الغريزة ، فحين يلبى دافع الغريزة لا نقول عن عمله إنه خيرٌ أو شرير ، لأنه لاخيار له فيه . أما الإنسان ـ الذى منح القدرة على التمييز ، والقدرة على الاختيار ، فإننا نصف كل عمل من أعماله بأحد الوصفين لا محالة : إما خيّر وإما شرير . . وتلك هى القيمة الأخلاقية اللاصقة بأعماله ، والتى لا تنفك عنها . .

---

(١) هود : ٦١ .

(٢) الكهف : ٧ .

(٣) راجع إن شئت كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » .

(٤) الشمس : ٧ ـ ١٠ .

ليست القضية هى كون أعمال الإنسان ذات قيمة أخلاقية ، أم ليس لها قيمة أخلاقية ، كما تحاول الجاهلية المعاصرة أن تشكك فيها . . إنما القضية هى المعايير . . من الذى يحدد إن كان عمل بعينه خيرًا أو شرًا ؟! من الذى يقول : هذا حسن وهذا قبيح . هذا مباح وهذا غير مباح . هذا حلال وهذا حرام ؟

تلك هى القضية فى حقيقتها . . وهى قضية منذ منشئها مرتبطة بالإله المعبود : أهو الله أم غير الله ؟

فإذا كان الله هو المعبود ، فالمعايير التى يجب العمل بها هى المعايير الربانية ، أما إن كان المعبود غير الله - معه أو من دونه - فالمعايير تضعها الآلهة المعبودة من دون الله ، سواء كانت هى « العقل الجمعى » كما يقول دركايم ، أو الأوضاع المادية كما يقول ماركس ! أو «المصلحة » كما يقول البراجماتيون . . وهى فى جميع الحالات من صنع الشيطان فى النهاية ، فإن العبادة نوعان اثنان فى الحقيقة ، إما عبادة الله وإما عبادة الشيطان :

﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان ، إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى ، هذا صراط مستقيم ﴾ [1] .

ومن هنا تتصل الأخلاق بلا إله إلا الله . .

فالإله الذى لا إله غيره . . الخالق ، الرازق ، المهيمن ، العزيز الجبار المتكبر . . هو الذى له الأمر ، وهو الذى يحق له ، بحكم أنه الخالق ، أن يقول : حلال وحرام . حسن وقبيح . مباح وغير مباح . .

كما أنه - بحكم أنه العليم الخبير - هو الذى يحدد ما هو خير وما هو شر ، ومن ثم فهو الذى يحدد معايير الأخلاق ، بالضبط كما يحدد تعاليم الشريعة سواء بسواء ، فالمصدر فى الحالين واحد ، والاعتبارات فى الحالين واحدة .

فإذا نظرنا فى المنهج التربوى الإسلامى ، الذى يترجم تلك الأخلاق إلى واقع سلوكى ، وجدنا أن المعايير الربانية التى يعلم الله أنها هى التى تنشئ « الإنسان الصالح » فردًا وجماعة وأمة ، تنبثق فى حياة المؤمن من « الميثاق » الذى يعقده المؤمن مع الله ، حين يشهد أن لا إله إلا الله ، والذى يشتمل على كلمتين رئيسيتين : « سمعنا وأطعنا » .

---

(١) يس : ٦٠ - ٦١ .

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحدٍ من رسله ، وقالوا : سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ [1] .

﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا ﴾ [2] .

سمعنا وأطعنا . . ذلك هو الميثاق . . وهو أوثق رباط !

ولقد بحثت الجاهلية المعاصرة ـ حين أزاحت الدين تدريجيًا من حياتها ـ عن رباط تربط به قضية الأخلاق ، فجعلته العقد الاجتماعى مرة ، والطبيعة البشرية مرة ، والمصلحة مرة . .

وفى النهاية سقطت الروابط المصطنعة . . وتفككت الأخلاق !

* * *

إنه لا رباط إلا ذلك الرباط . . الميثاق مع الله . هذا هو الذى يحدد المعايير الصحيحة أولاً ، ويوثّقها ثانيًا بحيث تبقى متماسكة فى وجه الضغوط التى تحلل الأخلاق ، سواء كانت ضغوطًا داخلية من دفع الشهوات ، أو خارجية من فعل الطواغيت التى تتأله فى حياة الناس بدلاً من الله . . طواغيت السياسة ، أو طواغيت الاقتصاد ، أو طواغيت الفكر ، أو طواغيت الأعراف الفاسدة التى تملأ كل جاهلية . .

والمنهج القرآنى يشدد الوثاق بين الأخلاق وبين لا إلّه إلا الله . .

انظر إلى هذه الآية الكريمة من سورة لقمان :

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وهنًا على وهن ، وفصاله فى عامين : أن اشكر لى ولوالديك ، إلىّ المصير ﴾ [3] .

فالوصية هى وصية بالوالدين ، لإحسان معاملتهما ، والأم خاصة بما تحملت من وهن مؤهِنٍ فى الحمل والولادة والرضاعة والتربية . . ولكن كيف ينفذ الإنسان الوصية ؟ كيف يشكر والديه على ما تحملا وما أعطيا . . بشكر الله أولاً !! أى بالرجوع إلى أصل الميثاق !

الميثاق ميثاق مع الله بالسمع والطاعة له ، وتحته تندرج كل العلاقات التى تربطها الأخلاق .

---

(١) البقرة : ٢٨٥ . (٢) المائدة : ٧ . (٣) لقمان : ١٤ .

﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل . . ﴾[1] .

وكل صلة أمر الله بها أن توصل داخلة فى هذا الميثاق ، بدءًا بالصلة بالله سبحانه وتعالى : صلة العبادة الخالصة البريئة من الشرك[2] ، ثم الصلة بالوالدين :

﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولاً كريمًا . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾[3] .

ثم الصلة بأولى القربى ، ومَنْ بعدهم . .

﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ، وبالوالدين إحسانًا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالاً فخورًا ﴾[4] .

ثم تتسع الدائرة الأخلاقية فتشمل كل الناس وكل العلاقات . .

ليست الأخلاق فى المقتضى الأخلاقى الإسلامى محدودة فى نطاق معين . .

فالسياسة لها أخلاق . .

﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . . ﴾[5] .

والاقتصاد له أخلاق . . .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ، وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون . واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[6] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه . وليكتب بينكم كاتب بالعدل . ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب ، وليملل الذى عليه الحق ،

---

(١) الرعد : ٢٠ـ٢١ .

(٢) انظر « المقتضى التعبدى » و « المقتضى التشريعى » وقد مرا من قبل .

(٣) الإسراء : ٢٣ـ٢٤ .

(٤) النساء : ٣٦ .

(٥) النساء : ٥٨ .

(٦) البقرة : ٢٧٨ـ٢٨١ .

وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئًا . فإن كان الذى عليه الحق سفيهًا أو ضعيفًا أو لايستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم . فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى . ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا . ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرًا أو كبيرًا إلى أجله . ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ، إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، وأشهدوا إذا تبايعتم . ولا يضار كاتب ولاشهيد. وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم﴾ [1] .

وعلاقات الأسَرَة لها أخلاق .

وعلاقات الجنس لها أخلاق .

وعلاقات المجتمع لها أخلاق .

وعلاقات المسلم بغير المسلم لها أخلاق .

وعلاقات السلم والحرب لها أخلاق .

وهكذا تتسع دائرة الأخلاق ؛ لتشمل البشر جميعًا ، بل تشمل التصرفات جميعًا . . حتى الطعام والملبس والمسكن ، فلكل منها « آداب » . . بل تمتد الأخلاق فتشمل غير البشر كذلك ، فيقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة ، وما سرق منه له صدقة ، وما أكل السبع منه فهو له صدقة ، وما أكلت الطير فهو له صدقة ، ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة » [2] .

ويقول عليه الصلاة والسلام « فى كل كبد رطبة أجر » [3] ويقول عمر ـ رضى الله عنه ـ: لو عثرت بغلة بصنعاء (أو قال بالعراق) لكنت مسئولاً عنها لم لم أسوّ لها الطريق . .

* * *

ليس القصد من هذه العجالة تفصيل الحديث فى أخلاقيات لا إلّه إلا الله ، فموضع ذلك الدراسات المتخصصة ، وكتاب الله وأحاديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبع غزير يفيض بالتوجيهات الخلقية فى كل اتجاه . .

---

(١) البقرة : ٢٨٢ .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه الشيخان .

إنما الهدف المقصود من هذه العجالة بيان ارتباط هذه الأخلاقيات بلا إلّه إلا الله ، بحيث يصح أن نطلق عليها « أخلاقيات لا إلّه إلا الله » وبيان مدى شمولها ، ورسوخها فى بنية هذا الدين ، حتى إن أول سورة أنزلت ، وآخر آية أنزلت كانت توجيهًا عقديًا وأخلاقيًا فى ذات الوقت [1] .

لذلك كان من العجب أن تخلت هذه الأمة عن أخلاقياتها ، فأخرجتها أولاً من مقتضيات لا إلّه إلا الله ، ثم أخرجتها من دائرة السلوك العملى ، حتى أصبحت بالنسبة للجاهلية المعاصرة ذاتها معرة بين أمم الأرض [2] . .

إن الأرض اليوم كلها ـ إلا ما رحم ربك ـ تعيش بلا أخلاق :

﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ﴾ [3] .

ولكن الجاهلية المعاصرة تتظاهر ـ على الأقل ـ بأن لها أخلاقيات عالية ، تحرص عليها ، وتربى عليها أبناءها . .

ونحن لا تخدعنا أخلاقيات هذه الجاهلية ـ مهما بدا من جمالها الظاهرى ـ لأننا نعرف أنها فى حقيقتها أخلاق نفعية مصلحية (براجماتية) هدفها تحقيق المصالح الأرضية ، و«تشحيم » عجلة الحياة اليومية ؛ لتجرى أسرع ما تستطيع أن تجرى بأقل احتكاك ممكن ، وسندها الواقعى أن كل إنسان « أبيض » فى المجتمع الغربى يمد إحدى يديه بالمصافحة ، والأخرى وراء ظهره تحمل سكينًا مستعدة لرد أى اعتداء ، ويعلم أن الإنسان الأبيض الآخر يحمل ذات السكين وراء ظهره ، فمن الخير إذن ، أى من المصلحة أن يكون كل منهما مهذبًا مع الآخر إلى أقصى حد ، لتقليل الاحتكاك كما أسلفنا ، وتشحيم عجلة المجتمع . . ولكنها ليست أخلاقًا ربانية ، لأنه لا اتصال لها بالله ، ولا بدين الله . . ومن أجل ذلك لا يجد الرجل الأبيض حرجًا فى أن يعتدى على الرجل الملون ، الذى يعلم أنه لايحمل السكين التى يحملهاالرجل الأبيض ، ولا يجد القاضى الأبيض حرجًا فى تبرئة رجل الشرطة الذى يكسّر عظام الرجل الملون ، ولا يجد العالم الأبيض الذى يسمى نفسه « العالم

---

(١) آخر ما نزل ـ على الأقوال الراجحة ـ آية سورة البقرة : ﴿ واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله . . . . ﴾ [البقرة : ٢٨١].

(٢) ستتكلم فى فصل قادم عن الانحرافات التى وقعت فى مفهوم لا إلّه إلا الله .

(٣) الروم : ٤١ .

الحر » حرجًا فى أن يذبح الصربيون المسلمين من أهل البوسنة والهرسك ، ويرتكبوا أبشع المجازر ، وأن يحرّق البوذيون والهنادكة الوثنيون المسلمين فى بورما والهند . . بينما كانت أخلاق المسلمين ـ حين كانوا مسلمين حقًا ـ أخلاقًا ربانية ، لا تتصل بالمصلحة القريبة ، ولا بمبدأ أن الغاية تبرر الوسيلة . . إنما هى ذلك الميثاق مع الله . .

ومن أجل ذلك لم تكن تتغير أخلاق المسلمين حين ينتقلون من بلد إلى بلد ، ولا من مناخ إلى مناخ ، لأن الله الذى يعبدونه فى بلادهم هو الله الذى يعبدونه فى البلد الآخر ، وميثاقه هو ميثاقه ، والتزاماته هى التزاماته . .

لما فتح أبو عبيدة بن الجراح الشام ، وأخذ الجزية من أهلها اشترطوا عليه أن يحميهم من الروم (الكاثوليكَ) ؛ لأنهم كانوا يسيئون معاملتهم بسبب اختلاف المذهب وإن كانوا كلهم نصارى . فقبل أبو عبيدة الشرط وتعهد بحمايتهم من الروم مقابل أخذ الجزية . ثم سمع أن هرقل يجهز جيشًا جرارًا لاسترداد الشام من المسلمين . فرد الجزية إلى أهل الشام وقال لهم : لقد اشترطتم علينا أن نحميكم ، وقد سمعتم ما يجهز لنا ، وإنا لا نقدر على ذلك (أى على حمايتكم) ونحن لكم على الشرط إن نصرنا الله عليهم ! ونصره الله . . فعاد أهل الشام يؤدون الجزية بنفوس راضية ، وقالوا للمسلمين : أنتم ـ ولستم على ديننا ـ أرأف بنا من أهل ديننا . . ثم دخلت غالبيتهم فى الإسلام . .

وانتشر الإسلام فيما وراء الهند (إلى أندونيسيا) من خلال أخلاقيات التجار المسلمين الذين تعاملوا معهم بنظافة الإسلام وسماحة الإسلام ، فأحبوا الدين الذى يخرج هذه النماذج البيضاء الناصعة البياض ـ لا بلون الجلد وإنما بما فى القلوب ـ فدخلوا فى الإسلام . .

هكذا كانت الأمة وقت تمسكها الحقيقى بمقتضيات لا إلّه إلا الله ، وهكذا كانت ـ بأخلاقياتها ـ تنشر فى الأرض حضارة تنير الطريق للبشرية كلها ، ومنها أخذت أوربا حوافز نهضتها حين أرادت النهوض [1] . .

ولكنها اليوم ـ إلا ما رحم ربك ـ صِفْرٌ من أخلاقيات لا إلّه إلا الله ، وتبدو الجاهلية إلى جانبها أمة عالية الأخلاق !

إن أخلاقيات أوربا ـ من حيث الشكل ـ هى أخلاقيات الإسلام فى الحقيقة . .

---

(١) ستتكلم فى فقرة تالية عن « المقتضى الحضارى » للا إلّه إلا الله .

الصدق . . الأمانة . . المحافظة على الوعد . . الإخلاص فى العمل . . الجد والنشاط والمثابرة . . احترام حقوق الغير . . النظافة . . والفارق أنها فى الإسلام أخلاق يراعيها الناس لله ، وهى فى الجاهلية المعاصرة تراعى للمصلحة ، وأنها فى الإسلام شاملة لكل ميادين الحياة ، وهى فى الجاهلية المعاصرة محصورة فى دائرة التعامل الاجتماعى . أما السياسة فلا أخلاق لها ، ويباح فيها الكذب والخداع والغش . والاقتصاد لا أخلاق له ، فيباح فيه أكل أموال الناس بالباطل عن طريق الربا ، والخداع بالإعلان ، وإغراء الناس بكل الوسائل ؛ لتَنْفَقَ البضائع المكدسة سواء كان فيها فائدة للناس أو ضرر ، ولتنتفش جيوب الرأسماليون وبطونهم . وعلاقات الجنس فوضى لا مثيل لها فى التاريخ . .

ولكن أين الأمة الإسلامية اليوم من الأخلاق ؟!

إننا لا ندعو إلى أخلاقيات كأخلاقيات أوربا النفعية الجزئية . . ولكنا نتساءل : أين الأمة الإسلامية من الأخلاق إطلاقًا : نفعية أو غير نفعية . . مظهرية أو حقيقية ؟!

أنقول ردة جاهلية ؟!

حتى الجاهلية العربية ـ ودع عنك الجاهلية المعاصرة ـ كانت لها « أخلاقيات » ! أين منها اليوم مجتمعاتنا وتعاملاتنا !

إنها نكسة بئيسة انتكستها هذه الأمة ، حتى بدت الجاهليات إلى جانبها ذوات أخلاق!

ولا علاج لها إلا أن تعود فتعرف أولاً أن الأخلاق هى جزء من مقتضيات لا إلّه إلا الله ، ثم تربى أبناءها على أخلاقيات لا إلّه إلا الله ، فإن المعرفة وحدها ـ إن بقيت معلومات فى داخل الذهن ـ لا تقدم ولا تؤخر فى واقع الحياة[1]!

خامسًا : المقتضى الفكرى

للمسلم تصور خاص عن الكون والحياة والإنسان ، وصلتها جميعًا بالله الخالق البارئ المصور ، مستمد من كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، يختلف فى كلياته ـ وقد يختلف فى بعض جزئياته ـ عن تصور الجاهلية ، وينشأ عن هذا الاختلاف اختلاف فى

---

(١) سنتكلم فى فصل قادم عن واجب الصحوة الإسلامية تجاه لا إلّه إلا الله ومقتضياتها .

طريقة التفكير ، وفى منهج الحياة ، وفى النظرة إلى « القيم » . . وفى كثير من الأمور [1] .

لذلك فإن الدعوة إلى اتخاذ طريقة الغرب فى التفكير والتصور من أجل مساكنة أهل القرية الظالمة ، هى فى الحقيقة دعوة إلى التخلى عن مقوماتنا الذاتية ، والانخراط فى «القطيع البشرى » تحقيقًا لقول الشاعر القديم وإن يكن على نطاق مختلف :

وهل أنا إلا من غُزية إن غوت غويت ، وإن ترشد غزية أرشد ! !

ويصبح « الرأى العام العالمى » أو « ثورة التكنولوجيا » هما الرب الجديد فى حياتنا ، بدلا من قبيلة الشاعر العربى القديم [2] !

* * *

إن « المعلومات » الجزئية الوصفية عن تركيب الكون والحياة والإنسان قد لا تختلف بالنسبة للمؤمن والكافر ، متى أصبحت حقائق علمية نهائية [3] ، لأن مثل هذه الحقائق لا دخل فيها للرؤية الذاتية ولا « للموقف » الذاتى . . ودور « العلم » فيها هو رصدها وتسجيلها ، ومحاولة استخلاص « قانون عام » لها كلما أمكن . .

أما حين يتصدى « العلم » لتفسيرها ، فهنا يختلف الوضع . . ويختلف كثيرًا بين المؤمن والكافر . .

ونضرب مثالاً للتوضيح . .

من المتفق عليه علميًا أن جميع المواد تتقلص بالبرودة فتزداد كثافتها ويثقل وزنها ماعدا الماء ، فإنه حين يصل إلى درجة التجمد يزداد حجمه وتقل كثافته ويطفو إلى أعلى . .

والعلم يسجل هذه الظاهرة ، فلا يختلف فى تسجيلها ووصفها أحد من البشر ، مؤمنًا كان أو كافرًا ، لأنها حقيقة علمية موضوعية لا شأن لها بموقف الإنسان . . بل إنها موجودة على هذا النحو من قبل أن يُخْلَقَ الإنسانُ ذاتُه !

ولكن بينما ينظر « العالم » الجاهلى إلى هذه الظاهرة على أنها إحدى الظواهر الموجودة فى «الطبيعة » ولا يزيد على ردها إلى تلك « الطبيعة » التى لا يعلم أحد على وجه التحديد

---

(١) اقرأ بالتفصيل فى هذا الموضوع كتاب « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » بجزئيه : الخصائص والمقومات لسيد قطب .

(٢) سبقت الإشارة إليه .

(٣) يجب التفريق جيدًا بين الحقائق العلمية وبين النظريات .

ما هى ، والتى قال عنها دارون إنها تخلق كل شىء ولا حد لقدرتها على الخلق [1] ثم قال عنها بعد ذلك إنها تخبط خبط عشواء . . ! [2] فإن العالم المسلم يرى فيها تدبيرًا ربانيًا لحفظ ما خلق الله من الكائنات الحية فى مياه البحار (والأنهار والمحيطات بطبيعة الحال) ؛ لأنه لو كان الماء كبقية المواد يتقلص بالبرودة ويثقل وزنه لهبط الجمد إلى القاع ، وقتل فى طريقه كل ما يصادفه من الكائنات الحية ، أما حين جعله الله يتمدد فى حالة التجمد ويطفو على السطح ، فهو يكوّن سقفًا حافظًا للكائنات الحية طيلة فترة الشتاء !

وما أبعد فارق الرؤية بينِ النظرتين . . وما أبعد التأثير فى القلوب !

* * *

الكون والحياة والإنسان فى تصور المسلم كائنات من خلق الله . . أوجدها الله بمشيئته، ودبر شأنها بمشيئته ، وأعطاها هيئتها ، و « قوانينها » بمشيئته :

﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادًا ؟! ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا ، قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظًا ، ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ [3] .

ما أبعد هذه الرؤية ـ من جميع الوجوه ـ عن قولة من يقولون إن الكون خلق بلا خالق ! أو إنه وجد مصادفة ! أو إنه أزلى أبدى موجود دائمًا فلا يحتاج أن « يُخْلَق » !

﴿ أم خلقوا من غير شىء ؟ أم هم الخالقون ؟! أم خلقوا السموات والأرض ؟! بل لايوقنون ﴾ [4] .

حين يكون الكون قد وجد مصادفة ، والحياة وجدت فوقه مصادفة ، والإنسان ظهر على سطح الأرض مصادفة . . فما الذى يربط ذلك الإنسان بأى شىء فى الوجود ؟ وما الذى يربطه ـ بالذات ـ بأى نوع من أنواع « القيم » ؟ وكيف يكون لحياته هدف وهو قد

---

(١) ، (٢) راجع نظرية دارون فى أى مرجع من مراجعه ، واقرأ على سبيل المثال كتابه « التطور » .

(٣) فصلت : ٩ـ١٢ . (٤) الطور : ٣٥ـ٣٦ .

وجد فى الأصل بلا قصد ولا هدف ؟! وكيف يكون له فى النهاية « أخلاق » ؟ وما معنى الأخلاق بالنسبة لكائن لا هدف له ؟!

أرأيت كم تختلف النظرة ، وكم تختلف نتائج النظرة بين من يؤمن بأن الله هو الخالق البارئ المصور ، وبين من يؤمن بأن « الطبيعة » خلقت كل شيء ، وأنها تخبط خبط عشواء؟!

إنه فرق هائل يشمل كل شيء فى منهج الحياة . .

حين تنقطع صلة الإنسان بالخالق الذى خلقه وخلق الكون والحياة ، وتنطمس بصيرته عن الهدف من خلقه فما الفرق بينه وبين السائمة ، إلا أنه أضل منها :

﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون ﴾ [1].

سيجد نفسه قد وجد على الأرض ، وآخرون من نوعه معه ، وفى نفسه رغبة فى المتاع ، وفى نفوس الآخرين كذلك ، فيتصارعون أيهم يفوز بقسط من المتاع أكثر . . فيصبحون كالأنعام . ولكن الأنعام تهديها غريزتها وتحميها من الدمار . أما الإنسان حين يتخلى عن قيمه العليا ويعيش على مستوى الغريزة ، فإنها تضلله ولا تحميه ، لأنها تفقد « الضابط » الذى يضبط الانطلاق .

* * *

فى حس المؤمن حقيقة أخرى عن الكون والحياة والإنسان ، إلى جانب أنها كلها من خلق الله . .

إنها كلها ـ ماعدا فريقًا من البشر ـ عابدة لله ، مسبحة له . .

﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب . . . ﴾ [2].

﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ [3].

﴿ ألم تر أن الله يسبح له من فى السموت والأرض والطير صافات ، كل قد علم صلاته وتسبيحه ، والله عليم بما يفعلون ﴾ [4].

---

(١) الأعراف : ١٧٩ . (٢) الحج : ١٨ .

(٣) الإسراء : ٤٤ . (٤) النور : ٤١ .

﴿ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعًا وكرهًا وظلالهم بالغدو والآصال ﴾[1] .

وفرق فى الحس بين النظر إلى الكون على أنه مجرد أجرام سماوية ، وإلى الكائنات الحية على أنها مجرد أنواع من الحياة ، وبين الشعور بأن بينها رباطًا يربطها جميعًا هو التوجه إلى الله وتسبيحه . .

إحدى النظرتين تحصر الإنسان فى محيط ما تدركه الحواس ، والأخرى تفسح مجال «الرؤية » أمامه فتشمل ما يرى وما لا يرى ، وما تدركه الحواس وما لا تدركه . . فتتسع آفاقه، وتتسع اهتماماته ، وينعكس ذلك على علاقات أفراد النوع البشرى ذاته ، فلاتنحصر فى « الماديات » إنما تتسع ، لتشمل كذلك « المعنويات » . .

* * *

وأمر ثالث . . تعرض له العلم الحديث ، ولكنه لم يزل قليل التأثير فى القلوب التى صلّدتها النظرة المادية الحسية التى تبنتها الجاهلية المعاصرة ، فأفسدت كل تصوراتها . .

إن النظام الدقيق الذى يربط الكون ليس مجرد نظام « ميكانيكى » كما كان « العلم » ينظر إليه . .

إن وراءه تدبيرًا . .

وإن هذا التدبير ذو صلة بالإنسان بالذات . .

فحركة الأرض ، سواء دورانها حول نفسها أو دورتها أمام الشمس ، والمسافة بينها وبين الشمس ، والمسافة بينها وبين القمر ، وتركيب الغلاف الجوى المحيط بها ، وتوزيع المياه على سطح اليابسة ، ودورة الكربون فى جوها ، ودور النبات فى إفراز الأكسجين فى ضوء النهار . . الخ . . الخ . . كلها « محسوبة » بمقادير دقيقة غاية فى الدقة ، لتلائم حياة الإنسان !

ولو اختلت أى نسبة منها بالزيادة ،أو بالنقص كما ينذر اتساع فتحة الأوزون لحدثت من جراء ذلك نتائج مدمرة بالنسبة لحياة الإنسان على الأرض !

ما أبعد الفارق بين الإحساس بفضل الله وتدبيره فى تسخير نظام كونى بأكمله من أجل

---

(١) الرعـد : ١٥ .

تيسير حياة الإنسان على الأرض ، وبين الظن بأن كل شيء فى عمل « الطبيعة » يجرى خبط عشواء !

﴿ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (١) .

وعلى الرغم من أن العلم ذاته هو الذى دل على هذا التناسق الرائع بين النظام الكونى ومتطلبات حياة الإنسان ، فما زال على قلوب أقفالها :

﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض . وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون؟! ﴾ (٢) .

* * *

العلم هو العلم . . ولكن هناك فرقًا فى طريقة تقديمه . .

ذلك فيما يسمى « العلوم البحتة » . .

وحتى هذه « العلوم البحتة » فالنظريات فيها أكثر من الحقائق العلمية . . والعالم المسلم يرفض ابتداء كل نظرية تخرج مشيئة الله من أمر الخلق ، وتخرج تدبيره وهيمنته من تفسير الظواهر العلمية .

ومن ثم فليس كل ما يقال باسم « العلم » مقبولاً عند المسلم ، ولو طارت به الآفاق ، وطنطن به المطنطنون كنظرية داروين التى لم تزد فى الحقيقة على أن تكون فرضًا علميًا ، ولكنها راجت فى فترة من الفترات حتى ملأت أرجاء الأرض ، واعتبر من يرفضها متأخرًا جاهلاً . . حتى ظهرت اليوم « نظريات علمية » جديدة تكذب فكرتها الأساسية وتعطى تفسيرات جديدة لظهور « الإنسان » (٣) . .

أما بالنسبة لما يسمى « العلوم الإنسانية » (٤) فالشقة أوسع بكثير . .

---

(١) الجاثية : ١٢ ـ ١٣ .   (٢) يونس : ١٠١ .

(٣) راجع كتاب « ما أصل الإنسان » تأليف موريس بوكاى ترجمة مكتب التربية العربى لدول الخليج بالرياض ١٤٠٦ هـ .

(٤) لا يجوز للمسلمين ابتداء أن يستخدموا اصطلاح « العلوم الإنسانية » على الطريقة الغربية ، فليس المقصود بها فى المصطلح الأوربى « العلوم المتعلقة بالإنسان » إنما المقصود هو « العلوم التى يؤخذ العلم فيها من الإنسان وليس من الله ! » .

إنها كلها علوم تعتمد على نظرة الإنسان إلى نفسه ، ورأيه فى مقومات حياته . .

وما يسمى « العلوم الإنسانية » حاليًا فى الغرب متأثر كله بالنظرة الداروينية الحيوانية إلى الإنسان ، سواء منه علوم التربية وعلم النفس والتاريخ والأدب والاقتصاد والجغرافيا البشرية . .

والمشكلة فى تلك العلوم مزدوجة . . فهى ليست فقط ذات قاعدة داروينية فى نظرتها إلى الإنسان ، ولكن أصحابها يزعمون إلى جانب ذلك أنها أصبحت ـ مع تقدم البحث العلمى ـ علومًا بحتة ، يجب التسليم بنتائجها كما يحدث فى العلوم البحتة سواء بسواء ! وتشتد هذه الصيحة بصفة خاصة بالنسبة لعلم الاقتصاد ، والأبحاث النفسية والتربوية . . وإن كانت أخف من ذلك بالنسبة لبقية العلوم . .

والمسلم على أى حال ـ بمقتضى المنهج الفكرى الذى يستمده من الكتاب والسنة ـ يرفض كلا الاعتبارين : يرفض النظرة الداروينية الحيوانية إلى الإنسان ، ويرفض اعتبار ما تنتجه الأبحاث الغربية فى الاقتصاد وعلم النفس والتربية والتاريخ . . الخ علومًا بحتة ، نتائجها نهائية لا تحتمل الجدل !

خذ مثالاً بسيطًا من علم الاقتصاد . .

يبدأ الدرس الأول فى علم الاقتصاد الغربى بقولة منكرة : أن المشكلة الاقتصادية هى مشكلة الندرة ! !

سبحان الله ! الله يقول عن الأرض : ﴿ وبارك فيها وقدر فيها أقواتها . . ﴾ [1] وهم يقولون إن المشكلة هى مشكلة الندرة !

وكذبوا . . إن المشكلة هى مشكلة الإنسان ! الإنسان الجاهلى الذى يريد أن يستمتع بغير حد ، والذى يرفض التشريع الربانى ، ويستعبد القوى منه الضعيف ، فتبدو الأقوات أقل من حاجة البشر . . فيتقاتلون . . ويعيش كثير من الناس تحت المستوى ، لأن فئة قليلة تعيش على مستوى الترف الفاجر ، وتستهلك جهد المستضعفين وأقواتهم ، سواء فى الدولة الواحدة ، أو بين الدول المختلفة بعضها وبعض . .

والمشكلة الاقتصادية الحقيقية ليست ندرة الأقوات . . وإنما هى ضرورة تهذيب الإنسان

---

(١) فصلت : ١٠ .

ليتعامل مع رزق الله بما يرضى الله . . ولن يصنع ذلك حتى يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويرتب أمور حياته على أساس هذا الإيمان !

وخذ مثالاً آخر ما يتصايحون به من أخطار الانفجار السكانى سنة ٢٠٠٠ ، أو فى القرن الحادى والعشرين !

والعلم . . العلم البحت ذاتهُ . . يقول : إن ما استغل من خيرات البحار حتى اليوم لايزيد على عشر ما يمكن أن يستخرج منها ، وإن الأرض بيابسها ومائها تتسع لأضعاف أعداد البشر الذين يسكنونها اليوم ، حين يحسنون استغلالها . . إنما هى صيحات خبيثة يطلقها الرجل الأبيض ، ليطالب الرجل الملون بتحديد نسله المتزايد ، لكى لا يزاحمه فى متعته الفاجرة التى اختلسها فى غفلة من الرجل الملون ، والتى يخشى اليوم ضياعها حين يثور الرجل الملون ذو النسل المتزايد على من سلب أقواته ، ويطالبه برفع يده عن مقدراته . . وتأخذ الصيحة الخبيثة شكل « العلم الموضوعى » ، وتدرس فى الجامعات !

وخذ مثالاً من علم النفس . .

يدعى علماء النفس اليوم أنهم أصبحوا « تجريبيين » . . ومن ثم فالنتائج التى يصلون إليها نتائج « علمية » « موضوعية » تؤخذ بالتسليم كما تؤخذ العلوم البحتة . .

ويضع المفكر المسلم أمام ذلك ثلاثة اعتراضات « علمية » . .

الاعتراض الأول : أى عناصر الكيان النفسى هى التى يمكن إدخالها المعمل ، وإجراء التجارب عليها ؟ أهى الأمور الحسية ، أو القريبة من الحسية ، أم هى الأمور المعنوية ، وعالم القيم ، وهى أثمن ما فى الإنسان ؟

خذ إنسانًا كان ملحدًا ثم آمن . . ما الذى يستطيع المعمل التجريبى أن يجريه عليه من التجارب ؛ ليستخلص حقيقة الإيمان ، وكيف يتم فى داخل النفس ، وكيف يؤثر فى المشاعر والأفكار والتصرفات ؟!

الاعتراض الثانى : إنه من المسلم به فى التجربة « العلمية » أن تكون العينة المفحوصة ممثلة للنوع ، حتى يمكن تعميم النتائج المستخلصة منها على النوع كله . فهل يتحقق هذا فى تجارب علم النفس .

ودع عنك الآن ما يحدث من عشوائية فى اختيار العينة ، مقصودة لأهداف « علمية » ! فمن أين نختار عيناتنا ؟ أليس من هذا الجيل الذى يعيش اليوم على سطح الأرض ؟ فهل

هذا الجيل ـ فى اهتماماته وقيمه وتوجهاته وأفكاره ومشاعره وأخلاقياته ـ يمثل النوع البشرى كله خلال الأجيال كلها ، حتى تكون النتائج المستخلصة من التجارب المجراة عليه صالحة لإطلاقها على النوع البشرى كله ، وتفسير الكيان النفسى « للإنسان » على أساسها ؟!

وما قولهم فى جيل الصحابة ـ مثلاً ـ رضوان الله عليهم ؟ أليسوا واقعًا بشريًا يمكن أن تستخلص منه « معلومات » عن النفس الإنسانية فى حالة رفعتها وصفائها ؟!

والاعتراض الثالث : أنه إذا كان علم النفس قد أصبح علمًا بحتًا كما يزعمون ، فلماذا تختلف مدارس علم النفس المختلفة فى تفسير التجربة المعملية الواحدة . . وفى نفس الجيل ؟!

كلا ! ما أبعد علم النفس عن أن يكون علمًا بحتًا ، وما أبعد النتائج المستخلصة من تجاربه الحالية عن أن تعطى تفسيرًا شاملاً للكيان النفسى فى شموله وترابطه وتكامله . .

وخذ علم التاريخ . .

إن الوقائع التاريخية قد تتفق ما بين مؤرخ ومؤرخ إذا تحدث المصادر المتاحة لتحقيق الواقعة والتقت وجهات النظر فى درجات وثاقتها . .

ولكن المهم فى دراسة التاريخ ليس تحرير الوقائع فحسب ، إنما الأهم من ذلك تفسيرها، ثم إصدار الحكم عليها . وهنا تختلف المناهج فيما بينها بحسب نظرتها إلى «الإنسان » . . ما هو ؟ ما تكوينه ؟ ما حدود طاقاته ؟ ما دوره فى الأرض ؟ ما العوامل المؤثرة فيه ؟ ما موقفه من الضغوط الواقعة عليه ؟ ما السنن الجارية فى حياته ؟

وهنا يبرز المؤرخ المسلم بمنهجه الخاص ، المستمد من كتاب الله وسنة رسوله ، ويكون له تفسيره الخاص للأحداث ، وتقويمه الخاص للإنجاز البشرى حسب معايير الخاصة[1] . . وليس أقل الخلاف بينه وبين غيره من المؤرخين أن يسمى الأشياء بأسمائها فى المصطلح الإسلامى ، فما قال الله عنهُ إنه جاهليات هو فى عرف التفسير الإسلامى للتاريخ جاهليات ، وإن سميت « حضارات » فهى « حضارات جاهلية » على أى حال ، ومن ثم يقول المؤرخ المسلم : الجاهلية الفرعونية ، والجاهلية الرومانية ، والجاهلية الإغريقية ، والجاهلية الفارسية ، والجاهلية الهندوكية ، والجاهلية البوذية . . الخ ولا يكون

---

(١) اقرأ إن شئت « حول التفسير الإسلامى للتاريخ » .

الإنجاز المادى وحده ، ولا الحربى وحده ولا العلمى وحده هو المعيار الأول لتقويم إنجازات الإنسان فى كل تلك « الحضارات » . . إنما يكون هناك معيار مقدم على هؤلاء جميعًا : هل أدى الإنسان غاية وجوده التى خلق من أجلها :

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [1] .

وخذ الأدب . .

إن للمسلم منهجًا خاصًا فى التعبير ، وفى تقويم الإنتاج الأدبى والفنى ، يستمد عناصره مِن التصور الإسلامى للكون والحياة والإنسان ، ويلتزم بالقيم الإسلامية . . ويتميز عن غيره من مناهج التعبير ومناهج التقويم التى لا تلتزم بشىء على الإطلاق ، والتى تقول الفن للفن ، والحياة للحياة ، وتسفّ ـ تحت هذه الشعارات ـ ماشاء لها الإسفاف [2] . .

* * *

لا تتسع هذه العجالة للحديث المفصل . . إنما هى إشارات . .

والقصد من هذه الإشارات هو التركيز على نقطة بعينها . . هى اتصال هذه الأمور كلها بلا إلّه إلا الله . .

إن هناك مقتضى فكريًا للا إلّه إلا الله ، يجعل المسلم يفكر بمنهج معين ، لا يختلط بمناهج التفكير الجاهلى ، وإن التقت بعض جزئيات تفكيره مع أفكار غيره ، فيما يتعلق بالحقائق العلمية والتجارب المعملية ، ولكن المسلم يتناولها بطريقته الخاصة ، ويعطيها تفسيرها المستمد من مقررات الكتاب والسنة . .

أما العلوم التى تتصل « بالإنسان » . . وتعتمد أساسًا على التصور الذى نتصوره عنه ، فالمسلم ينفرد فيها بتصوره الخاص ، المستمد من الحقائق الكبرى المذكورة عن الإنسان فى كتاب الله : أنه قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله . وأنه نشأ إنسانًا من أول لحظة ، ولم يكن قط حيوانًا ثم تطور . وأنه وهب المواهب التى تصلح للمهمة التى أنشأه الله من أجلها ، وأهمها الوعى والإرادة والحرية ، وأنّ له طريقين لا طريقًا واحدًا ، وله

---

(١) الذاريات : ٥٦ .

(٢) سنتحدث فى فقرة تالية عن « المقتضى التعبيرى » للا إلّه إلا الله .

القدرة على التمييز بين الطريقين ، والقدرة على اختيار أحد الطريقين . . وهى هى المزايا التى تفرد بها الإنسان ، والتى تميزه عن عالم الحيوان :

﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرًا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾ [1] .

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ [2] .

﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ [3] .

﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ [4] .

﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ [5] .

﴿ ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾ [6] .

﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا ﴾ [7] .

* * *

بهذا المنهج الفكرى يتكون لدينا المفكر المسلم والعالم المسلم والأديب المسلم والباحث المسلم . . وقد كان هؤلاء جميعًا موجودين فى الأمة الإسلامية بكثافة ملحوظة حين كانت هذه الأمة مستمسكة بدينها . . فلما غفلت عن دينها قلت كثافتهم حتى كادت تذهب . . وفى فترة الغزو الفكرى والانسحاق تحت الضغط عجّت الساحة بمسخ مشوه يقول بضرورة « الانفتاح » على الحضارة العالمية (يقصدون الغربية !) وضرورة التبادل الثقافى (يقصدون الأخذ من الغرب ، فليس عندهم شىء ذاتى يتبادلونه مع أحد !) وضرورة مساكنة أصحاب القرية الواحدة التى صنعتها « ثورة التكنولوجيا » (يقصدون تقليد أوربا فى كل شىء !) .

إن الانفتاح مطلوب ، والتبادل الثقافى مطلوب ، والمعايشة والمساكنة مطلوبة ، ولكن بالعزة التى ينشئها الإيمان فى نفس المؤمن ، والتميز الذى يصنعه المنهج الإسلامى فى فكر المؤمن .

---

(١) ص : ٧١ ـ ٧٢ . (٢) البقرة : ٣٠ . (٣) هـود : ٦١ .
(٤) النحل : ٧٨ . (٥) البقرة : ٣١ . (٦) الشمس : ٧ ـ ١٠ .
(٧) الإنسان : ٢ .

إن العالِم الملحد ، والعلم الإلحادى ، موجود يملأ ساحة الأرض . والذى تحتاج إليه البشرية لتنجو من الدمار ليس مزيدًا من ذلك العلم ولا أولئك العلماء . إنما تحتاج البشرية إلى العلم الإيمانى ، وإلى العالم المؤمن . . وهذا هو الذى ينشئه المنهج الإسلامى ، والذى سميناه هنا « المقتضى الفكرى » للا إلّه إلا الله . .

لقد كانت الأمة الإسلامية ـ يوم كانت حقًا ـ أمة عالمة ، بل كانت هى الأمة العالمة فى الأرض ، ومنها تعلمت أوربا كثيرًا من العلوم ، وتعلمت المنهج التجريبى فى البحث العلمى . ولكنها كانتِ دائمًا أمة تؤمن بالغيب . . وهذه مزيتها : الإيمان بعالم الغيب وعالم الشهادة فى آن واحد ، بلا تناقض ولا صدام . .

سادسًا : المقتضى الحضارى

نتحدث كثيرًا عن الحضارة التى أنشأتها الأمة الإسلامية فى وقت ازدهارها ، سواء فى المشرق أو المغرب ، وخاصة فى الأندلس ، ونعدد مزاياها ، وما تفردت به عن غيرها ، وما تلاقت فيه مع غيرها ، وما برع المسلمون فى أدائه ، وما أثروا به فى نهضة أوربا . .

نتحدث عن ذلك كله على أنه من نتاج الإسلام ، ونحن صادقون فى ذلك ، فإن الأمة التى حملت الإسلام لم تكن لها قبل إسلامها مشاركة تذكر فى شئون الحضارة ، ثم صارت بعد إسلامها مصدرًا من مصادر الحضارة فى الأرض . .

ولكن الذى أريد أن أبرزه هنا ليس هذا المعنى الذى أشرت إليه فى أكثر من كتاب . . إنما أريد أن أقول إن ما حدث من الأمة المسلمة من إنتاج حضارى لم يكن أمرًا تطوعيًا تقوم به الأمة إن شاءت وتتركه إن شاءت ، إنما كان مقتضى من مقتضيات لا إلّه إلا الله ، تلتزم الأمة الإسلامية بأدائه ، وتلام إذا لم تقم به ، لأنها ـ إن لم تقم به ـ تكون مقصرة فى أداء أحد التكاليف التى كلفها الله بها وهو ينزل عليها مقتضيات لا إلّه إلا الله . .

ولقد أشار الغزالى إلى هذا المعنى حين أشار إلى فروض الكفاية ، التى تأثم الأمة إذا لم يقم بها أحد من أبنائها ، ويسقط عنها الإثم إن قام بها من يحسن القيام بها . .

الإنتاج الحضارى هو ـ على أقل تقدير ـ من فروض الكفاية المفروضة على الأمة ، وإن

إن العالِم الملحد ، والعلم الإلحادى ، موجود يملأ ساحة الأرض . والذى تحتاج إليه البشرية لتنجو من الدمار ليس مزيدًا من ذلك العلم ولا أولئك العلماء . إنما تحتاج البشرية إلى العلم الإيمانى ، وإلى العالم المؤمن . . وهذا هو الذى ينشئه المنهج الإسلامى ، والذى سميناه هنا « المقتضى الفكرى » للا إله إلا الله . .

لقد كانت الأمةَ الإسلامية ـ يوم كانت حقًا ـ أمة عالمة ، بل كانت هى الأمة العالمة فى الأرض ، ومنها تعلمت أوربا كثيرًا من العلوم ، وتعلمت المنهج التجريبى فى البحث العلمى . ولكنها كانت دائمًا أمة تؤمن بالغيب . . وهذه مزيتها : الإيمان بعالم الغيب وعالم الشهادة فى آن واحد ، بلا تناقض ولا صدام . .

سادسًا : المقتضى الحضارى

نتحدث كثيرًا عن الحضارة التى أنشأتها الأمة الإسلامية فى وقت ازدهارها ، سواء فى المشرق أو المغرب ، وخاصة فى الأندلس ، ونعدد مزاياها ، وما تفردت به عن غيرها ، وما تلاقت فيه مع غيرها ، وما برع المسلمون فى أدائه ، وما أثروا به فى نهضة أوربا . .

نتحدث عن ذلك كله على أنه من نتاج الإسلام ، ونحن صادقون فى ذلك ، فإن الأمة التى حملت الإسلام لم تكن لها قبل إسلامها مشاركة تذكر فى شئون الحضارة ، ثم صارت بعد إسلامها مصدرًا من مصادر الحضارة فى الأرض . .

ولكن الذى أريد أن أبرزه هنا ليس هذا المعنى الذى أشرت إليه فى أكثر من كتاب . . إنما أريد أن أقول إن ما حدث من الأمة المسلمة من إنتاج حضارى لم يكن أمرًا تطوعيًا تقوم به الأمة إن شاءت وتتركه إن شاءت ، إنما كان مقتضى من مقتضيات لا إله إلا الله ، تلتزم الأمة الإسلامية بأدائه ، وتلام إذا لم تقم به ، لأنها ـ إن لم تقم به ـ تكون مقصرة فى أداء أحد التكاليف التى كلفها الله بها وهو ينزل عليها مقتضيات لا إله إلا الله . .

ولقد أشار الغزالى إلى هذا المعنى حين أشار إلى فروض الكفاية ، التى تأثم الأمة إذا لم يقم بها أحد من أبنائها ، ويسقط عنها الإثم إن قام بها من يحسن القيام بها . .

الإنتاج الحضارى هو ـ على أقل تقدير ـ من فروض الكفاية المفروضة على الأمة ، وإن

كنت أرى أن بعض جزئياته هى من فروض العين ، التى يلزم أن يقوم بها كل إنسان يشهد أن لا إلّه إلا الله . .

ولننظر من أين أتى التكليف ، وكيف صار جزءًا من مقتضيات لا إلّه إلا الله .

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ [١] .

﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ [٢] .

﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه ﴾ [٣] .

﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل ، وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ [٤] .

﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه ، وإليه النشور ﴾ [٥] .

كلها تكاليف ـ صريحة أو ضمنية ـ موجهة إلى « الإنسان » ، الذى جعله الله خليفة فى الأرض . . وكلها من مهام الخلافة التى خلق الإنسان من أجلها . . وأبرزها عمارة الأرض . .

فإذا كان هذا تكليفًا للإنسان عامة ، الذى جعله الله خليفة فى الأرض ، وجزءًا من مهامه فى الأرض ، فمن أولى الناس أن يقوم بالتكليف ؟ إنه ولا شك « الخليفة الراشد » ، المؤمن بالله ، الملتزم بما جاء من عند الله . .

ولكن المهم فى التزام الإنسان المؤمن ، ليس فقط أن يقوم بعمارة الأرض ، فهذا يقوم به الكافر كذلك ، ولكن أن يقوم بعمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى . . وهذا ـ بالذات ـ هو المقتضى الحضارى للا إلّه إلا الله . .

* * *

إن الإنسان مدفوع بفطرته إلى الإنتاج . . الإنتاج الحضارى بالذات . .

إنه مفطور على الرغبة فى « تصنيع » المادة الخامة التى يجدها من حوله فى الأرض ، وتلك إحدى مزاياه التى تفرد بها عن الحيوان الذى يتناول الخامات على حالها ، وإن استخدمها

---

(١) البقرة : ٣٠ . (٢) هود : ٦١ . (٣) الجاثية : ١٣ .
(٤) الإسراء : ١٢ . (٥) الملك : ١٥ .

فى عمل مسكن ، أو عش كما تصنع الطيور فهو يجمّعها ويرتبها على نسق معين ، ولكنه لايغير طبيعتها الخامة كما يصنع بها الإنسان ، إذ يحولها بالصهر والسحب والطرق والتفاعلات الكيميائية من حالها الأصلى إلى حالة جديدة . . وقد كان هذا وحده يكفى للرد على دارون فى تفسيره الحيوانى للإنسان . . فهذا الأمر لا يحدث نتيجة « التطور » إنما هو فطرة فى كيان « الإنسان » .

ثم إنه ليس مفطورًا على الرغبة فى تصنيع الخامات فحسب ، بل مفطور كذلك على الرغبة فى « التحسين » المستمر لمصنوعاته ، والوصول بها إلى درجة الكمال أو درجة الجمال . .

والتصنيع والتحسين والتجميل كلها من مزايا الإنسان التى تفرد بها عن الحيوان . . وكلها من مقومات « الحضارة » [1] .

ولكن المعيار الحقيقى للحضارة ليس هذا ، أو ليس هذا وحده على أقل تقدير . .

إن البراعة فى التصنيع والتحسين والتجميل جهد يحسب للإنسان ، ويتفاضل فيه فرد عن فرد ، وجماعة عن جماعة ، وأمة عن أمة . . ولكنه وحده لا يكفى للحكم على الإنجاز . .

نقول للتقريب : فى مناهج التعليم مادة تسمى « مادة رسوب » بمعنى أن من رسب فيها لا يعتبر ناجحًا ولو حصل على الدرجة النهائية فى جميع المواد الأخرى (وهى فى مناهجنا مادة اللغة العربية فى الغالب) ومواد أخرى لابد من النجاح فى كل منها ، ولكن الرسوب فيها يعتبر رسوبًا جزئيًا ، يمكن أن يعوضه الطالب بإعادة الاختبار فى تلك المادة وحدها ، ولا يعيد المواد كلها كمن رسب فى « مادة الرسوب » . .

و « مادة الرسوب » فى الإنجاز الحضارى هى الرد على هذا السؤال : هل كان كل ما قام به الإنسان من تصنيع وتحسين وتجميل متمشيًا مع غاية الوجود الإنسانى ، محققًا لها ، أم كان معاكسًا لهذه الغاية ، معوقًا عن تحقيقها ؟

هذا هو المعيار الحق ، الذى تقوّم به الحضارات [2] . .

---

(١) راجع إن شئت كتاب « دراسات فى النفس الإنسانية » .

(٢) تحدثت عن هذا الموضوع فى كتاب « حول التفسير الإسلامى للتاريخ » ، فى فصل « معيار الإنجاز البشرى » .

فأين مكانه فى المقتضى الحضارى للا إلّه إلا الله ؟

آية واحدة فى كتاب الله تكفينا للدلالة ، وإن كانت الآيات الدالة كثيرة . .

﴿ **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور** ﴾[1] .

إن ذكر النشور هنا ـ فى معرض المشى فى مناكب الأرض والأكل من رزق الله ـ بما يتصل بالنشور من حساب وجزاء ، هو للتذكير « بالمنهج » الذى يلتزم به الإنسان المسلم وهو يمشى فى مناكب الأرض ويسعى فى طلب الرزق . . هو المنهج الربانى . . هو الالتزام بالحلال والحرام ، والمباح وغير المباح . . أى الالتزام بما جاء من عند الله . . وهو مقتضى لا إلّه إلا الله :

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين ﴾[2] .

ذكر الآخرة والإنسان يسعى فى مناكب الأرض ، يصنّع ويحسّن ويجمّل ، والالتزام بما ينجى الإنسان فى الآخرة ، من عبادةٍ لله وحده دون شريك ، والتزامٍ بما جاء من عند الله . . هو الذى يحقق غاية الوجود الإنسانى ، وينشئ « الحضارة » الصحيحة . .

إن « الحضارة » ليست مجرد البراعة فى الإنتاج المادى ، وإن كان هذا مطلوبًا للنجاح والتمكين فى الأرض ، ولكن هذه البراعة وحدها ، من غير الالتزام بالمنهج الصحيح لاتنشئ حضارة حقيقية ، أو قل إنها تنشئ « حضارة جاهلية » إن صح التعبير[3] . . حضارة تحقق جانبًا من كيان الإنسان ولا تحقق كيانه كله ، ولا تحقق أثمن ما فيه . . وتدمره فى النهاية !

إن التصنيع والتحسين والتجميل فى المجال المادى ، هو مما أنعم الله به على الإنسان ، وفضّله به على كثير ممن خلق . . ولكن أثمن ما منّ الله به عليه هو عالم القيم . .

﴿ وجعلناكم شعوبًا وقبائل **لتعارفوا** . إن أكرمكم عند الله **أتقاكم** ﴾[4] .

وبغير هذه التقوى ـ التى هى حصيلة الإيمان بالله الواحد ، والإيمان باليوم الآخر ـ

---

(١) الملك : ١٥ . (٢) القصص : ٧٧ .

(٣) يصح إذا أخذنا الحضارة بالمصطلح اللغوى أى فعل أهل الحضر .

(٤) الحجرات : ١٣ .

يصبح التصنيع والتحسين والتجميل فى الجانب المادى مهلكة للإنسان ـ كما هو الحادث اليوم فى الجاهلية المعاصرة ؛ لأنه يغرى بمزيد من الانطلاق مع الشهوات ، ومزيد من الصراع على المتاع الأرضى ؛ فيحدث الدمار الذى كتبه الله على الفجار :

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين ﴾ [1] .

الحضارة الحقيقية إذن هى التى تعمّر الأرض بمقتضى المنهج الربانى . هى التى تجمع أمر الدنيا والآخرة . أمر الجسد والروح . أمر العمل والعبادة . . هى التى تأخذ الإنسان كله ، بحسياته ومعنوياته ، بنشاط جسده ونشاط عقله ونشاط روحه . بإبداعه فى عالم المادة وارتفاعه فى عالم القيم . . هى حضارة « الإنسان » فى أفقه الأعلى . . يدب على الأرض بقدميه ، وقلبه معلق بالسماء . .

وقد كانت كذلك الحضارة الإسلامية حين كانت الأمة فى أوجها . .

ما من مجال من مجالات النشاط الخيّر إلا خاضه المسلمون . . بناء المدن . تعبيد الطرق . السياحة فى الأرض لكشف مجاهيلها . استغلال ما سخّر الله للناس من طاقات السماء والأرض فى البناء والتعمير. التقدم العلمى . التهذيب الخلقى . الصدق . الأمانة . الجد والجلد والمثابرة . . وكل الخصال التى تنشئ أمة عظيمة . .

ولكن انظر إلى المدينة الإسلامية . .

إن مركزها الذى يتجمع الناس فيه ، وينطلقون منه ، هو المسجد الجامع . . ويا له من جامع !

إنه ليس السوق ، وليس ملاعب اللهو الماجن كما هو اليوم مركز المدينة فى الجاهلية المعاصرة . .

إنه المكان الذى يتذكرون فيه ربهم ، ويتعبدون إليه ، وفيه يتلقون علم دينهم . . وإنهم ليمشون فى مناكب الأرض يومهم كله ، بحثًا عن رزق الله . ولكنهم ينطلقون ابتداء من هـذا المكان ، ثم يعـودون إليه على فترات متقاربة ، ليؤدوا صلاتهم ، فيذكرهم بالآخرة التى هم عائدون إليها بعد حياتهم الدنيوية القصيرة ، فيسعون لها سعيها ، ويحققون بذلك أمر الله :

---

(١) الأنعام : ٤٤ـ٤٥ .

﴿ . . فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور ﴾[1] .

﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورًا ﴾[2] .

إن المسجد لم يشدهم إليه ؛ ليمكثوا فيه ويكفوا عن السعى فى مناكب الأرض . . والسعى فى مناكب الأرض لم يلههم عن الرجوع إلى المسجد ؛ ليتزودوا فيه بالطاقة اللازمة لمسيرة الحياة :

﴿ وتزودوا ، فإن خير الزاد التقوى ﴾[3] .

وانظر إلى عمارة البيت الإسلامى فى المدينة الإسلامية . . إنه وافٍ بكل احتياجات المسلم ـ كل على قدر سعته ـ إن فيه مكانًا لاستقبال الضيوف . فالمسلم كريم ، وروابط الإخاء والمودة تربط بين الناس فيتزاورون . وفيه مكان للمعيشة وتناول الطعام . وفيه مكان للمبيت . . ولكن الفارق الأساسى بينه وبين بيت المدينة الجاهلية المعاصرة أن فيه « حرمًا مصونًا » لا يرى الأجنبى فيه أهل البيت وهن يقمن بنشاطهن اليومى المطلوب للحياة . . إنه منزل تلتقى فيه « المصلحة » بالأخلاق التى فرضها الله ؛ وتلتقى فيه الحياة الدنيا بالآخرة . .

وله آداب . .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها . ذلكم خير لكم لعلكم تذكّرون . فإن لم تجدوا فيها أحدًا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم . وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا ، هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم . ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتًا غير مسكونة فيها متاع لكم . والله يعلم ما تبدون وما تكتمون . قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن . . . ﴾[4] .

إنها آداب . . وإنها أخلاق . . وإنها حضارة . . وإنه دين !

* * *

وانظر إلى المؤسسات « الحضارية » فى المدينة الإسلامية . .

---

(١) الملك : ١٥ . (٢) الإسراء : ١٩ .

(٣) البقرة : ١٩٧ . (٤) النـور : ٢٧ ـ ٣١ .

ديوان الحسبة . ديوان القضاء . ديوان المظالم . المدارس . البيمارستانات . دور العجزة . دور الرفق بالحيوان . الحمامات العامة . المكتبات العامة . « نقابات » الصناع . الأوقاف . . الخ . . الخ . .

إنها كلها ذات دلالة حضارية واضحة . ولكن المهم فيها ـ فى المدينة الإسلامية ـ أنها مؤسسات أقيمت بدافع دينى ، ولتؤدى أهدافًا دينية . . فأنت حيثما تجولت فى المدينة ، وأيا كانت وجهتك ، فى لقاء دائم مع شىء أو شخص أو مؤسسة أو نظام يذكرك بالله ، ويذكرك باليوم الآخر ، ويذكرك أن هدف حياتك الأكبر هو عبادة الله ، بالمعنى الواسع الشامل للعبادة ، الذى يشمل فيما يشمل عمارة الأرض بمقتضى منهج الله .

وبالإضافة إلى ذلك كان المجتمع الإسلامى ـ سواء فى الريف أو البادية أو المدينة ـ أقل مجتمعات العالم جريمة ، وأقلها ـ بالذات ـ وقوعًا فى الفاحشة ، نتيجة إيمانه بالله واليوم الآخر ، ونتيجة تطبيق المنهج الربانى ، وتطبيق شريعة الله .

وهذا عنصر « حضارى » لا يجوز أن نغفله ونحن نتحدث عن المقتضى الحضارى للا إله إلا الله ، خاصة ونحن نعيش فى ظل « حضارة جاهلية » هائلة . . لا تنقطع الجريمة فيها لحظة من ليل أو نهار !

* * *

وعودة إلى عناصر « الالتزام » فى قضية الحضارة . .

لقد تحدثنا عن التكليف العام للإنسان ـ الخليفة ـ بعمارة الأرض . والتكليف الخاص للإنسان المؤمن ـ الخليفة الراشد ـ بتعمير الأرض بمقتضى المنهج الربانى . .

والآن نتحدث عن عنصر آخر من عناصر الإلزام بالنسبة لهذه الأمة بالذات . . إنه «الشهادة» على كل البشرية :

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدًا ﴾ [1] .

إن الشهادة على الناس تقتضى أن تعطى هذه الأمة المثال الصحيح فى كل شىء ، وأن تكون مبرزة فى كل أبواب الخير . .

---

(١) البقرة : ١٤٣ .

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ﴾ [1] .

إن الشهادة الكبرى هى الشهادة لهذا الدين . . تبليغ الرسالة المحمدية إلى البشر كافة، وتعليمهم ـ عن طريق القدوة العملية ـ كيف يكون التطبيق العملى لهذا الدين فى واقع الأرض . وبهذا تكون الأمة قد « شهدت »على الناس .

والشهادة تقع بين يدى الله يوم القيامة ، سواء من الأمة على الناس ، أو من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الأمة . . ولكن كيف تتم الشهادة يوم القيامة إن لم تقم ـ مثالاً واقعيًا ـ فى الحياة الدنيا ؟!

كيف يشهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الأمة يوم القيامة ؟ إنه يشهد بجهاده الدائب الذى لم يفتر لحظة خلال ثلاثة عشر عامًا فى مكة وعشر سنوات فى المدينة لتعليم الأمة أمر دينها ـ بالقدوة العملية ـ وتربيتها على مقتضيات الدين . فإذا قال يوم القيامة بين يدى مولاه : ألا إنى قد بلغت ! فقد صدق ، وهو الصدوق عليه الصلاة والسلام . وتشهد له أمته يوم القيامة كما شهدت فى حجة الوداع ، حين وقف عليه الصلاة والسلام فى حجة الوداع يخاطب الجموع : ألا هل بلغت ؟ فيؤمن الناس ، فيقول عليه الصلاة والسلام : اللهم فاشهد !

وعلى نسق ما يشهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أمته يوم القيامة وتشهد له ، تشهد هذه الأمة على « الناس » فلا يشهدون لها إلا حين تكون قد أعطت النموذج العملى ، الذى تتعلم منه البشرية حقيقة هذا الدين . .

ولقد قامت الأمة بالفعل ـ ردحًا من الزمن غير قصير ـ بتبليغ الرسالة ، والجهاد فى سبيلها ، وتعليم الناس بالقدوة العملية كيف يكون التطبيق العملى لهذا الدين . .

فهل هو دين للآخرة وحدها منقطعة عن الدنيا ؟!

أم هو دين الدنيا والآخرة :

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ [2] .

وهل هو دين الروح وحدها منفصلة عن الجسد ؟ :

---

(١) آل عمران : ١١٠ . (٢) القصص : ٧٧ .

﴿ وإن لبدنك عليك حقا . . ﴾ [1] .

وهل هو دين «عبادة» فقط ، بالمعنى المحدود للعبادة ، أى القيام بالشعائر التعبدية ؟

﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون ﴾ [2] .

إنه ـ بحكم التوجيهات الربانية ـ دين سياسة واقتصاد واجتماع وجهاد وعمل لعمارة الأرض بمقتضَى المنهج الربانى . .

فكيف تشهد الأمة الإسلامية بهذا الدين على الناس ، إن لم تطبق كل مقتضياته ـ كلها على الإطلاق ـ وتتفوق فيها لتعطى النموذج المطلوب ؟

إنه ليس تطوعًا من هذه الأمة أن تقوم بنشاطها الحضارى . . ولكنه تكليف !

* * *

ومن باب ثالث يجىء الإلزام . .

﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾ [3] .

والدين لا يظهر ـ فى عالم الواقع ـ بقوة « الكلمة » وحدها ، مهما تحدث الكتاب والخطباء عن قوة الكلمة !

كم فى البشر مثل أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ آمن بالحق بمجرد أن آمن أنه الحق؟!

وكم فى البشر مثل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ الذين آمنوا لما عرفوا الحق ، فى وجه اضطهاد لا مثيل له ؟!

إنما يتلكأ معظم الناس حتى يروا الحق قد « ظهر » ! وعندئذ يدخلون فى دين الله أفواجًا!

ولكى « يظهر » الحق لابد له من « أدوات » تسانده ، إلى جانب وجود العصبة المؤمنة ـ أى القاعدة الصلبة ـ التى تؤمن به إيمانًا راسخًا ، وتستمسك به فى وجه الاضطهاد والعذاب ، وتموت فى سبيله ، وتضحى فى سبيله بمتاع الدنيا كله . .

---

(١) أخرجه البخارى .　　(٢) الجمعة : ١٠ .

(٣) الصف : ٩ .

والقوة من هذه الأدوات . . ولذلك قال تعالى :

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ﴾ [1].

﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده . . ﴾ [2].

والوجود الحضارى كذلك من الأدوات . .

وقد انتشر الإسلام فى مساحة واسعة من الأرض بتأثير « النموذج الحضارى » الذى قدمه الإسلام . .

وحين تذكر الحضارة يتبادر إلى أذهان بعض الناس الترف الحضارى المتمثل فى أبهة القصور . .

كلا ! هذه ليست الحضارة بمفهومها الإسلامى . . إنها هذه مدمرات الحضارة !

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا ﴾ [3].

إنها الحضارة قيم قبل كل شىء . . ثم مظاهر تنظيمية ومادية بعد ذلك .

والمسلمون الأوائل الذى فتحوا قلوب الناس للإسلام لم يكونوا يملكون من مظاهر الحضارة المادية إلا النزر اليسير . . ولكنهم كانوا يملكون لب الحضارة الحقيقى . . رفعة النفس ـ نظافة المشاعر ـ العدل ـ الحب ـ التواضع لله ـ سمو المبادئ ـ نبل الأخلاق ـ التوجه الجاد للهدف النبيل ـ انضباط الحركة ـ النظام . . .

ثم جاءت المظاهر المادية للحضارة تباعًا مع استقرار الأمة وتمكنها فى الأرض . . ولكنها ظلت ـ والأمة أمة ـ خاضعة لأهداف الإسلام العليا ، فكانت النور الذى أشرق فى قلوب الناس وأفكارهم فى القارات الثلاث المعمورة يومئذ . .

حتى إذا أترفت الأمة ـ أو أترف أغنياؤها ـ وتواكل فقراؤها وقعدوا . . أصابتها السنة الربانية التى لا تتخلف . .

واليوم يجىء الغزو الحضارى الزائف من الغرب . . وتنبهر به القلوب الخاوية من حقيقة الإسلام . .

---

(١) الأنفال : ٦٠ . (٢) الحج : ٧٨ . (٣) الإسراء : ١٦ .

كلا ! ليس هذا هو الذى ينقذ الامة من تخلفها !

إنما الذى ينقذها أن تعود إلى المفهوم الإسلامى للحضارة . . مفهوم جاد . . لا عبث فيه ولا لهو ولا مجون . . مفهوم رفيع المستوى ؛ لأنه مستمد فى حقيقته من لا إلّه إلا الله ؛ لأنه من مقتضيات لا إلّه إلا الله . .

والمظاهر المادية ـ فى حدودها المعقولة ـ ضرورية للحياة البشرية « المتقدمة » . . ولكنها بغير « القيم » الحقيقية ، المستمدة من المنهج الربانى ، لا تقيم أمة ، ولا تحقق الوجود «الإنسانى » الذى يريده الله للعباد :

﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما﴾[1].

سابعًا : المقتضى التعبيرى

« قل ، وروح القدس معك » !

هكذا كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول لحسان بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ ، وهو ينافح بشعره عن الدعوة ، وعن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونفهم من هذا التوجيه النبوى لحسان بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ ، لا مجرد الإباحة ، بل الحث والتحضيض . .

بل أحس كأنه تكليف . . !

فمن حق الدعوة على الذين وهبهم الله موهبة البيان أن يعطوها حقها مما وهبهم الله . .

ولكنه على أى حال فرض كفاية . . إذا قام به البعض سقط الإثم عن بقية الأمة ، وجاز لبقية من يملكون الموهبة البيانية أن ينصرفوا لهمومهم الخاصة !

ولكنْ هناك فرض عين عليهم جميعًا . . على كل مسلم يملك الموهبة البيانية والقدرة على التعبير الفنى . . أن يلتزموا فى نشاطهم التعبيرى بمقررات الإسلام ؛ وهذا هو المقتضى التعبيرى للا إلّه إلا الله .

* * *

---

(١) النساء : ٢٧ .

ما بنا هنا أن نتحدث عن منهج التعبير الإسلامى ، فذلك بحث متخصص ، وكل حديثنا فى هذه العجالة إشارات [1] . .

ولكنا معنيون فى هذه العجالة بأمر رئيسى ، هو بيان الصلة بين كل نشاط يقوم به المسلم وبين عقيدته ، تحقيقًا لقوله تعالى :

﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له . . ﴾ [2] .

والرغبة فى التعبير عنَ مكنون النفس فى صورة جمالية رغبة فطرية ، وإليها يرجع وجود الآداب والفنون فى تراث كل أمة عاشت على الأرض منذ عهد الكهوف إلى وقتنا الحاضر . .

وإذا كان الموهوبون فى هذا المجال قلة بالنسبة لمجموع الناس ، فإن بقية الناس يشاركون بالتلقى ، والاستمتاع بالإنتاج الفنى والحفاوة به ، لأنه يعبر لهم عن مكنون نفوسهم ، فيتمثلون به وينشدونه كأنهم هم القائلون . . . !

ومادام هذا نشاطًا فطريًا ـ سواء بالإنتاج أو التلقى ـ فهو داخل فى نطاق الآية . . داخل فى « محياى » . . ويجب ـ فى الإسلام ـ أن يكون لله رب العالمين . .

ويتبادر إلى أذهان كثير من الناس حين يسمعون هذا القول أن الأدب ـ أو التعبير الفنى ـ يجب أن ينقلب كله وعظًا ، ليكون أدبًا دينيًا ، ويكون « لله رب العالمين » . .

وليس المقصود ذلك

إن للوعظ مكانه ، ومكانتهُ . . ولكن حين ينقلب كل كلامنا وعظًا فإنه يضر أكثر مما ينفع . .

يقول الصحابة رضوان الله عليهم : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتخولنا بالموعظة (أى بين الحين والحين) مخافة السآمة . .

فإذا كان هذا حال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع صحابته الكرام رضوان الله عليهم ، الذين كانوا يتلقفون كل كلمة ينطق بها ، ليتعلموها ويعملوا بها ، يقينًا منهم أنها طريقهم إلى الجنة . . فكيف بنا نحن البشر العاديين إذا حوّلنا كل قولنا إلى وعظ ؟!

كلا ! ليس الفن وعظًا . . وإن كان للموعظة مدخلها إلى الفن حين تكون كلامًا بليغًا يهز مشاعر النفوس .

---

(١) اقرأ إن شئت كتاب « منهج الفن الإسلامى » . (٢) الأنعام : ١٦٢ ـ ١٦٣ .

إنما التعبير الفنى تعبير غير مباشر ، يصل إلى نفوس الناس ويؤثر فى وجدانهم من خلال مواقف حية ، ومشاعر معروضة ، وتصرفات دالة ، لا من خلال الموعظة المباشرة . .

فما الذى يجب على المسلم الذى وهب الله له القدرة على التعبير الجمالى ؟

إن الدعوة فى حاجة دائمة لمن يذود عنها . . فالحرب عليها قائمة أبدًا لا تفتر ؛ لأنها حرب الشيطان التى توعد بها البشر :

﴿ قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ [1] .

﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ [2] .

ولابد من وجود مؤمنين يجاهدون فيدفع الله بهم قوى الشر لكى لا تفسد الأرض :

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ [3] .

والحرب على الدعوة ـ اليوم ـ تستخدم فيها كل صنوف التعبير . . سواء كانت هجومًا مباشرًا على الإسلام ومبادئه ومفاهيمه وعقيدته وشريعته وتقاليده ، أم كانت إفسادًا للأخلاق وشغلاً للناس بالتوافه وسفاسف الأمور . . فهذا وذاك جزء من الجهد المبذول لغواية الناس عن الحق ، وزحزحتهم عن طريق الله . .

والمسلمون أولو الموهبة التعبيرية عليهم أن يردوا هذا العدوان الدائم ، سواء ببيان حقيقة الإسلام ، أو بتعرية الجاهلية المعاصرة ومفاهيمها الضالة وموازينها المختلة ، وكشف ما يقوم به شياطينها من جهد تخريبى ، أو بدعوة الناس إلى الارتفاع عن اللهو والعبث وسفاسف الأمور . . وليس أقسى على الشيطان وأولياء الشيطان من أن ينصرف الناس عن اللهو والعبث وسفاسف الأمور !

﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون ﴾ [4] .

فإذا قام بهذه الفريضة فريق كافٍ من ذوى الموهبة التعبيرية ، وجاز لبقية أصحاب

---

(١) الأعراف : ١٦ ـ ١٧ .　　(٢) ص : ٨٢ ـ ٨٣ .

(٣) البقـــرة : ٢٥١ .　　(٤) النحل : ٩٩ ـ ١٠٠ .

الموهبة أن ينصرفوا إلى همومهم الخاصة ، فلهم ذلك ، بالشرط الذى أشرنا إليه آنفًا ، وهو الالتزام بمقررات الإسلام . .

إن الأديب المسلم مفروض فيه أن تكون أفكاره ومشاعره ـ كأعماله وتصرفاته ـ نابعة من الإسلام ، منضبطة بضوابط الإسلام . والأديب بشر على أى حال ، وليس البشر ملائكة ، ولا مفروضًا فيهم أن يصبحوا ملائكة . .

« كل بنى آدم خطاء . . »[1].

ولكن خير الخطائين التوابون كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم .

﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين ﴾[2].

نعم ، ليس المفروض فى الأديب المسلم أن يخرج عن بشريته . . ولكن المفروض فيه مع ذلك ألا يذيع على الناس إلا ما هو خير ؛ فإن إذاعة ما قد يقوله شاعر ، أو أديب عن لحظة من لحظات هبوطه هى « إصرار » يحجب المغفرة ، فإنما يغفر الله للذين استغفروا «ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » . .

ومن ثم يبتعد الأديب المسلم عن كل تعبير مسف ، أو دعوة إلى الإسفاف . .

وليس معنى ذلك من جانب آخر أنه يحرم عليه أن يشير إلى الإسفاف والمسفين ! ففى سورة يوسف فى كتاب الله الكريم وصف كامل دقيق للحظة من لحظات الهبوط البشرى ، ولكن كيف وردت القصة فى كتاب الله ؟

إنها لم تقف عند لحظة الهبُوط تعرضها عرضًا مفصلاً كما يفعل كتّاب « الإثارة » بحجة الفن ! ولم تعرضها العرض الذى يثير الإعجاب بفاعلها ، كما يفعل قصاصو الجنس «ببطل ! » القصة و « بطلتها ! »[3] ، ثم إن « اللقطة الأخيرة » فى القصة لم تكن لحظة الهبوط ، إنما كانت لحظة الإفاقة والعودة إلى الله :

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجة والترمذى .

(٢) آل عمران : ١٣٥ ـ ١٣٦ .

(٣) من الكيد المقصود أن يهبط « فن » بمعنى « البطولة » الذى هو أصلاً من معانى الجهاد لإعلاء كلمة الله حتى يصبح « البطل » و « البطلة » ممثلاً تافهًا ، أو راقصة ساقطة ، أو مجرمًا من المجرمين !

﴿ قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق . أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرئ نفسى ! إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ، إن ربى غفور رحيم ﴾ [1] .

كذلك يلتزم الأديب المسلم بالتصور الإسلامى للكون والحياة والإنسان . . وهو ـ كما قلت فى كتاب « منهج الفن الإسلامى » ـ تصور واسع شامل عميق ، يملأ الوجدان البشرى بالحق ، فإذا عبر عنه تعبيرًا جميلاً ، فهذا هو الفن الحقيقى الجدير بأن يكون فنًا والجدير بأن يطرد الفن الزائف من الساحة ، أو يزيحه من الطريق . .

إنه حين يقوم المسلمون ـ مَنْ وُهِبَ منهم الموهبة التعبيرية ـ بأداء « المقتضى التعبيرى » للا إلّه إلا الله ، فلن تظهر الفقاقيع التى تملأ الساحة اليوم، من حداثة، أو نحوها ، فكلها فقاقيع لا تستحق الحياة ، ولكنها وجدت ، وانتفشت ، بسبب خلو الساحة من الأدب الحقيقى الذى يؤدى مقتضيات لا إلّه إلا الله ، بالأساليب الفنية الجمالية التى يستلزمها الأداء الفنى . .

ومع أننا هنا لا نتعرض للبحث المتخصص ، فلا بأس من أمثلة سريعة تشير إلى الطريق . .

الفنان الجاهلى يرفع شعار « الفن للفن » . . وتحت هذا الشعار يعيث فسادًا فى الأرض، ويسانده نقاد من جبلته ، وجمهور يبحث أصلاً عن الفساد واللهو ، ولا يبحث عن الرفعة والاستقامة ، أفسده أولياء الشيطان من اليهود وغير اليهود ، وزينوا له الهبوط بدعوى «التحرر » و « الانطلاق » !

والفنان المسلم غايته رفع الناس إلى المستوى اللائق بكرامة « الإنسان » الذى كرمه الله وفضله على كثير ممن خلق . .

وهناك ـ فى الجاهلية المعاصرة خاصة ـ فنانون « ملتزمون » لا يقبلون شعار « الفن للفن » ويستعيضون عنه بشعار وثنى آخر: « الفن للحياة » ! أىّ حياة ؟ من الذى يقرر معاييرها ومبادئها ؟!

والفنان المسلم لا يقبل شعار « الفن للفن » ولا يقبل كذلك شعار « الفن للحياة » بمفهومه الجاهلى المعاصر . .

---

(١) يوسف : ٥١ ـ ٥٣ .

إنما الفن ـ ككل نشاط يقوم به البشر ـ غايته عبادة الله بالمعنى الواسع الشامل للعبادة ، الذى يشمل ـ فيما يشمل ـ عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى . .

إن وجود الظلم فى الأرض . . بكل أنواعه ومجالاته . . سواء الظلم السياسى ، أو الظلم الاجتماعى ، أو الظلم الاقتصادى . . الخ ، منافٍ للتعاليم الربانية ، حيث يقول تعالى فى الحديث القدسى : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا » [1] .

وعلى رأس أنواع الظلم كلهاَ الشرك بالله ، فهو منبع الظلم كله :

﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه ؛ يا بنى لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [2] .

والفنان المسلم ـ بحكم إسلامه ـ يقف موقف الإنكار لكل أنواع الظلم ، وموقف الجهاد كذلك ، فيبدع فنا يدين فيه الظلم ، ويعريه ، ويدعو إلى إزالته ، ويقدم البديل منه . . وهنا قد يبدو مشابهًا للفنان الجاهلى الذى يتصدى لمهاجمة الظلم والدعوة إلى إزالته . . ولكنه فى الحقيقة يفترق عنه فى أمور . .

يفترق عنه ابتداء فى البديل الذى يقدمه . . فليس البديل هو الاشتراكية ، ولا هو الديمقراطية ، ولا هو العلمانية ، ولا هو تحطيم كل القيود اعتباطًا والدعوة إلى الفوضوية ، ولا هو الوجودية ، ولا هو «الحداثة » التى تدعو إلى تحطيم «التراث » والتخلص من روابطه !

البديل هو المنهج الربانى . . فقد نشأ الظلم ابتداء من اتباع مناهج البشر ، وكل البدائل المعروضة فى الساحة هى من مناهج البشر . . مناهج الجاهلية التى قال الله عنها :

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يؤمنون ﴾ [3] .

ويفترق عنه كذلك فى تفسير الوقائع التى يعرضها فى إنتاجه . .

فأما إن كان من هواة التفسير المادى للتاريخ فسيرجع الأسباب كلها إلى الأوضاع الاقتصادية ، وإلى تحكم الطبقة المستغِلّة وإذلالها للطبقة الكادحة ، وسيدين المستغلين ـ الإقطاعيين ، أو الرأسماليين ـ وسيذرف الدموع على الكادحين المسحوقين ، ولكنها ليست دموعًا « أخلاقية » ولا «إنسانية » إنما هى دموع « اشتراكية ! » قوامها المادية الجدلية

---

(١) أخرجه مسلم . (٢) لقمان : ١٣ . (٣) المائدة : ٥٠ .

والتفسير المادى للتاريخ ، و الدعوة إلى سحق المستغلين ليتولى الأمر بدلاً منهم الكادحون!

وأما إن كان من هواة التحليل النفسى فسيرجع الأمور إلى الاضطرابات والعقد النفسية، وسيتعاطف مع المجرم ؛ لأنه ـ مسكين ! ـ فريسة عقدته ، ومجنىّ عليه من مجتمعه !

وأما إن كان من الوجوديين فسيرجع الأمور إلى أن الفرد لم يجد نفسه ؛ لأن قيود الدين والأخلاق والمجتمع ، أو بالأحرى ضغوط « الآخرين » قد سحقت وجوده الفردى فلم يحقق ذاته . . ولابد له أن يحقق ذاته . . وليذهب « الآخرون » إلى الجحيم [1] !

وأما إن كان من الحداثيين فالجريمة جريمة التراث ! جريمة الماضى ! جريمة عدم انعتاق الحاضر من عقابيل القيم التراثية التى تعوّق المسيرة وتكبّل السائرين ! أو «الثائرين»!

أما الفنان المسلم ، المهتدى بهدى الله ، فسيبين للناس الحقيقة . .

إن الحقيقة وراء هذه الاختلالات كلها الموجودة فى الأرض ، هى عدم إيمان الناس بالله واليوم الآخر ، ومن ثم عدم اتباع ما أنزل الله ، واتخاذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله ، ومن ثم اتباع مناهج الأرباب البشريين سواء كانوا إقطاعيين أو رأسماليين أو شيوعيين ، وانسحاق « المستضعفين » تحت جبروت تلك الأرباب . وكلهم شريك فى مسئولية الفساد: الذين استكبروا باتخاذهم أنفسهم أندادًا لله ، والذين استضعفوا باتخاذهم الذين استكبروا أربابًا من دون الله . ولاصلاح للأرض ، ولا زوال للظلم ، حتى يتخلى الأرباب المزيفون عن ربوبيتهم ، ويتخلى المستضعفون عن عبادتهم . وذلك بعبادة الله وحده دون شريك ، والجهاد المقدس لإعلاء كلمة الله و إزالة الطواغيت . .

تلك ـ كما قلنا ـ إشارات سريعة ، ليس المقصود بها الاستيعاب . . إنما هى لبيان «المقتضى التعبيرى » للا إله إلا الله فى مجال التعبير الجمالى عن مكنونات النفس . .

فإذا أضفنا « الإعلام » بوصفه جزءًا من المجال التعبيرى للأمة ، فنقول كذلك : إن إعلام الأمة الإسلامية لن يكون كله وعظًا ودروسًا دينية ، و إن كانت هذه جزءًا لا يتجزأ من الإعلام الإسلامى لتذكير الناس بالله واليوم الآخر . .

إنما الإعلام فى الأمة الإسلامية له عدة أهداف . .

---

(١) لسارتر مسرحية عنوانها « الجحيم هو الآخرون » !!

أولاً : تعريف الناس بحقيقة دينهم . . أى تعريفهم ـ تفصيلاً ـ بمقتضيات لا إلّه إلا الله ، وذلك عمل دائب لا ينقطع ، وقد استغرق من حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاثة عشر عامًا فى مكة وعشر سنوات فى المدينة لم ينقطع فيها عن تعليم الناس مقتضيات لا إلّه إلا الله .

ثانيًا : تعريف المسلمين بكيد أعدائهم ؛ ليحذروه ولا يقعوا في حبائله . . وفى السور المدنية حديث مفصل عن هؤلاء الأعداء ، وباعثهم على الموقف العدائى الذى يقفونه من لا إلّه إلا الله ، وأمة لا إلّه إلا الله ، وأساليب الكيد التى يتخذونها ، ووسائل الوقاية من هذا الكيد .

ثالثًا : إعطاء رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر : ما القوى التى تعمل فيه ؟ ما موقفها من بعضها البعض ؟ ما موقفها من الإسلام والمسلمين ؟ ما تفسير الأحداث الجارية من زاوية الرؤية الإسلامية ؟ كيف يؤثر كون الجاهلية جاهلية فيما يعيشه الناس من ضنك فى الأرض، وفى حدوث الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية التى تنتاب العالم ؟ ما السنن الربانية التى تحكم هذا الواقع وتفسره ؟ ما المخرج للناس مما هم فيه ؟

وفى هذا العرض الإعلامى لن يكون هناك ذكر ـ ولا إشادة ـ « بالدول العظمى !» إنما هى « الجاهليات العظمى » ، أو « الطواغيت » الممكّنة فى الأرض بقدر من الله ، وحسب سنة من سنن الله :

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم لا يبخسون ﴾ [1] .

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء . . ﴾ [2] .

وما مصيرها فى الدنيا والآخرة ؟

﴿ . . حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين ﴾ [3] .

﴿ أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ [4] .

---

(١) هــود : ١٥ . (٢) الأنعام : ٤٤ .

(٣) الأنعام : ٤٤ ـ ٤٥ . (٤) هــود : ١٦ .

رابعًا : تذكير الأمة برسالتها التى أخرجها الله من أجلها : الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والإيمان بالله ، والشهادة على كل البشرية . . وبيان الوسيلة التى تحقق الأمة بها رسالتها . . وبيان دور الجهاد فى حياة هذه الأمة ، وأنه ليس إكراه أحد على اعتناق الإسلام، إنما هو إزالة الفتنة من الأرض :

﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ [1] .

وحين يكون الإعلام الإسلامى على هذا النحو فما أثمنه من إعلام ، وما أجدره أن يدخل في المقتضى التعبيرىَ للا إلّه إلا الله .

* * *

كلمة أخيرة عن مقتضيات لا إلّه إلا الله فى الرسالة المحمدية . .

إن هذه المقتضيات ـ كما تبين لنا من العرض السابق ـ هائلة شاملة ، تشمل كل جوانب الكيان البشرى والحياة البشرية ، وكل متطلبات الأمة الربانية التى أخرجها الله ؛ لتكون هادية ورائدة وشاهدة على كل البشرية ، لا فى ماضيها الذى كان يوم أن أخرجت للناس ، ولكن فى حاضرها ومستقبلها إلى قيام الساعة . .

صحيح أنها ليست كلها على درجة واحدة من الارتباط بالعقيدة . .

فهناك الجذور الثلاثة الكبرى التى لا يوجد الإيمان أصلاً إذا لم تكن قائمة ، وهى «المقتضى الإيمانى » و « المقتضى التعبدى » و « المقتضى التشريعى » ؛ لأن نقضها ، أو نقض أى واحد منها ، أو عدم وجودها ، يؤدى إلى نقيضها وهو الشرك بجذوره الثلاثة الكبرى : شرك الاعتقاد ، وشرك العبادة ، وشرك التشريع . وكلها من الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله إلا بالرجوع عنه ، والتوبة منه :

﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيدًا ﴾ [2] .

﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾ [3] .

---

(١) الأنفال : ٣٩ . (٢) النساء : ١١٦ . (٣) البقرة : ١٥٩ ـ ١٦٠ .

أما بقية المقتضيات فإن التقصير فيها ، أو عدم القيام بها لا ينقض أصل الإيمان ، ولكنه ينافى تمامه ، ويلحق المقصر الإثم فيه .

هذا من جانب الأحكام المتعلقة بها ، ولم يكن هذا هدفنا فى هذا الفصل [1]. إنما هدفنا أمران :

الأول : بيان أنها **كلها** متعلقة بلا إلّه إلا الله ، وأن لا إلّه إلا الله تشملها جميعًا بلااستثناء، ولا شيء منها يخرج عن نطاق لا إلّه إلا الله .

الثانى : بيان أنها **كلها** من متطلبات قيام الأمة الربانية . . لا تقوم بدونها . . وكل نقص فى أدائها هو فى آنٍ معًا نقص فى أداء لا إلّه إلا الله ، ونقص فى مقومات الأمة التى سيسألها الله يوم القيامة عن رسالتها ، وكيف قامت بها :

﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ [2].

---

(١) ستتكلم فى فصل تالٍ عن « نواقض لا إلّه إلا الله » .

(٢) الزخرف : ٤٤ .

الانحـــرافات
التى طرأت على مفهوم
لا إلّه إلا الله

هذا المفهوم الشامل للا إلّه إلا الله فى الرسالة المحمدية ـ بمقتضياته التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق ـ هو الذى أخرج « خير أمة أخرجت للناس » .

لقد كانت هذه المقتضيات أوسع وأشمل ما ورد من مقتضياتٍ للا إلّه إلا الله فى تاريخ أى أمة سبقت . . وكان هذا طبيعيًا ومنطقيًا مع اكتمال الدين من ناحية :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا﴾[1] .

وختم الرسالة من ناحية أخرى :

﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾[2] .

وكونها رسالة موجهة للبشرية كافة من ناحية ثالثة :

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا ﴾[3] .

﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا ﴾[4] .

فإذا كانت هى التى اكتمل بها الدين ، وهو الموجهة للبشرية كافة ، وهى الباقية إلى قيام الساعة ؛ لأنه لا رسالة بعدها ولا رسول ، فقد لزم فى علم الله وتقديره أن تكون مقتضياتها شاملة لكل صغيرة وكبيرة فى حياة الأمة التى تحملها وتتحرك بها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . .

وكذلك هى فى حقيقتها كما رأينا فيما مر بنا من إشارات إلى أبرز مقتضياتها . .

---

(١) المائدة : ٣ . (٢) الأحزاب : ٤٠ .

(٣) سبأ : ٢٨ . (٤) الأعراف : ١٥٨ .

كيف انحسرت تلك المقتضيات إذن فى حس الأجيال المتأخرة ـ إلا ما رحم ربك ـ حتى صارت مجرد كلمة تنطق باللسان ؟!

تلك رحلة طويلة خلال التاريخ ، تحدثت عن بعض معالمها فى كتاب « واقعنا المعاصر»[1] . . ولكن لابد من الإشارة هنا إلى أبرزها لنعلم كيف أفرغت لا إلّه إلا الله تدريجيًا من محتواها الحيّ ، وكيف صاحب ذلك ضمور تدريجى فى حجم الأمة بمقدار ما أهملت من مقتضيات لا إلّه إلا الله ؛ حتى إذا صارت لا إلّه إلا الله فى نهاية الأمر مجرد الكلمة التى تنطق باللسان ، صارت الأمة إلى ذلك الغثاء الذى أخبر عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل »[2] :

* * *

من أبرز العوامل التى عملت على تفريغ لا إلّه إلا الله من مقتضياتها الفكر الإرجائى الذى يقول : إن الإيمان هو التصديق القلبى ، أو هو التصديق القلبى والإقرار اللسانى ، وليس العمل داخلاً فى مسمى الإيمان !!

وقد نعجب من دخول هذا الفكر ساحة الإسلام . . والإسلام كله عمل . .

لا الدعوة تقوم بغير عمل وجهاد . .

ولا الدولة تقوم بغير عمل وجهاد . .

ولا تطبيق الشريعة يقوم بغير عمل وجهاد . .

ولا إقامة مجتمع يلتزم بأوامر الله ويطبقها فى عالم الواقع يقوم بغير عمل وجهاد . .

ولا إعداد القوة التى أمر الله بإعدادها يتم بدون عمل وجهاد . .

ولا عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى تتم بدون عمل وجهاد . .

لا شيء . . لا شيء . . فكيف تدسس ذلك الفكر الدخيل إلى ساحة الإسلام ، ووُجِدَ فيه من يقول : إن الإيمان هو التصديق والإقرار وليس العمل داخلاً فى مسمى الإيمان؟!

---

(١) اقرأ إن شئت فصل « خط الانحراف » وفصل « آثار الانحراف » .

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود .

لقد جاءت البلوى من عدوى المنطق والفلسفة [1] ، حيث أريد الإتيان بتعريف «فلسفى» ، أو «منطقى» للإيمان ، فقال قائلهم : إن التعريف يجب أن يكون تحديدًا للشيء بحيث يكون هو هو لا يتغير ، ولا يزيد ولا ينقص ، وهو التصديق والإقرار !

إنها مهزلة أن تتحكم مقررات البشر ، الجاهليين منهم خاصة [2] ، فى تحديد تعريف لدين الله ، الذى حدده منزله سبحانه وتعالى ، ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وبينه الكتاب والسنةِ البيان الأوفى . . وقرر الكتاب المنزل أن المرجع فى كل أمر من أموره هو الله :

﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ [3] .

﴿ فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ [4] .

ولكن المهزلة ـ مع كونها أثرًا من آثار الغزو الفكرى اليونانى [5]ـ فقد ظلت فترة من الوقت محصورة فى دائرة علم الكلام ، أو كما نقول اليوم ، ظلت فى الأبراج العاجية لا تنزل إلى ساحة الواقع ، وظل المسلمون يتلقون أمور دينهم من كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولا يلتفتون إلى ما يلوكه علماء الكلام من قضايا لا صلة لها بعالم الواقع .

ولكن الطامة جاءت حين بدأ الناس يتفلتون من التكاليف . .

إن التفلت من التكاليف طبع بشرى صَاحَب الإنسان منذ نشأته :

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما ﴾ [6] .

ولكن الله أنزل لهذا الداء دواء ، هو التذكير :

﴿ وذكر ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ [7] .

وحين كان الناس فى الأجيال المفضلة الأولى يجدون من يذكرهم ، لا بالقول وحده ، ولكن بالقدوة العملية ، كان الأمرِ قريب التناول ، والمشكلة محصورة فى حدود لا تشكل خطرًا على كيان الأمة .

فلما زاد حجم التفلت مع تباعد الزمن عن الأجيال المفضلة ، وقل حجم التذكير

---

(١) ، (٥) سنتحدث فى ثنايا الفصل عن أثر الغزو الفكرى اليونانى فى الفكر الإسلامى .

(٢) كان اليونان أمة جاهلية و إن كانوا فلاسفة !

(٣) الشورى : ١٠ .   (٤) النســاء : ٥٩ .

(٦) طـــه : ١١٥ .   (٧) الذاريات : ٥٥ .

بالقدوة الصالحة ، هنا بدأ الفكر الإرجائى ينزل من الأبراج العاجية إلى الساحة العملية ، ليغطى المساحة التى انحسر عنها العمل بمقتضيات لا إلّه إلا الله !

ولنتصور ـ للتقريب ـ أن العمل بمقتضيات لا إلّه إلا الله كان كاملاً، أو قريبًا من الكمال فى الأجيال المفضلة ، فكان الفكر الإرجائى معلقًا فى الأبراج العاجية لا مكان له فى الساحة العملية . . فلما انحسر العمل بمقدار عشرة فى المئة ـ مثلاً ـ نزل الفكر الإرجائى ؛ ليغطى المساحة المكشوفة ، وليقول للناس : إن إيمانكم كامل على الرغم من هذا القدر من الانحسار !

فلما انحسر العمل خمسين فى المائة ، فقد اتسعت مساحة الفكر الإرجائى ؛ لتغطى الخمسين فى المائة ، ولتقول للناس : إن إيمانكم كامل على الرغم من هذا القدر من الانحسار ! فلما انحسر العمل مائة فى المائة فقد وجد من يقول : من قال لا إلّه إلا الله فهو مؤمن ، ولو لم يعمل عملاً واحدًا من أعمال الإسلام ! !

ومع كل السوء والانحراف فى هذه القولة الأخيرة ، فقد وجد فى العصر الأخير ما هو أسوأ منها ! حيث اعتبر قول لا إلّه إلا الله باللسان مانعًا من الحكم على أحد بالكفر ، ولو نقض لا إلّه إلا الله بأقواله وأفعاله فى اليوم مائة مرة [1] !

وحقيقة إن لب المشكلة كان تفلت الناس من التكاليف ، وقلة التذكير بالقدوة العملية، وانصراف كثير من « العلماء » عن مهمة التربية ، وحصرهم جهودهم فى مهمة التعليم وحدها ، فى حين كانت مهمتهم ـ وهم ورثة الأنبياء ـ تشمل التربية والتعليم معًا فى آن واحد . .

نعم ، ولكن الفكر الإرجائى قد أدى ولا شك إلى تفاقم المشكلة ، فحين يخطئ الناس ـ وكل بنى آدم خطاء ـ ولكنهم يدركون أنهم على خطأ ، فسيظل الانحراف محصورًا مهما اتسع نطاقه ، لأنه انحراف فى السلوك وحده ، بينما التصور صحيح . أما حين يكتسب الخطأ شرعية الوجود ، فكيف يقف عند حدٍّ من الحدود ؟ !

لو تفلت الناس وهم شاعرون أن إيمانهم فى خطر من ذلك التفلت ، فقد يحفزهم ذلك إلى العودة ، خاصة إذا وجدوا من يذكّرهم . . أما إذا تفلتوا ثم جاءهم من يطمئنهم إلى

---

(١) سنتحدث فى الفصل التالى عن نواقض لا إلّه إلا الله .

كمال إيمانهم رغم تفلتهم ، فمنذا الذى يجد فى ضميره رغبة فى العودة إلى تحمل التكاليف التى تفلت منها بسبب من الأسباب ؟!

لقد كان الفكر الإرجائى نوعًا من المخدر ، يوهم العصاة والمنحرفين والمقصرين والغافلين عن أداء واجباتهم أنهم بخير ، وأنه لا خطر عليهم ، ماداموا يصدقون فى دخيلة أنفسهم أن الله واحد ، وينطقون بألسنتهم لا إلّه إلا الله !

* * *

ثم جاء الاستبداد السياسى ـ الذى وقع مبكرًا فى حياة الأمة الإسلامية [1] ـ ؛ ليقتضم قضمة أخرى من مقتضيات لا إلّه إلا الله !

إن الشمول الذى يتمثل فى مقتضيات لا إلّه إلا الله فى الرسالة المحمدية له حكمته الواضحة فى المنهج الربانى الذى أنزله العليم الحكيم ، وهى أن تُحكَم الأرض بمقتضى ذلك المنهج فى كل جزئية من جزئياتها ﴿ ليقوم الناس بالقسط ﴾ [2] .

ويعلم الله أن العدل السياسى لا يقوم فى الأرض من جانب واحد ـ جانب الحكام ـ ؛ لأن السلطة تُطْغِى صاحبها ، إلا من رحم ربك ، لذلك لم يترك الله هذا الأمر لضمير الحاكم وحده ، إن شاء عدل وإن شاء طغى ، وإنما جعل الأمة مسئولة عنه مسئولية مباشرة :

« لا والذى نفسى بيده ، حتى تأطروهم على الحق أطرا » [3] .

وصحيح أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شدد فى النهى عن الخروج المسلح على الحاكم المسلم المطبق لشريعة الله ، إن وقع منه الجور ، مخافة الفتنة التى تشق صف المسلمين وتقضى على وحدتهم ، وتشغلهم عن رسالتهم العظمى فى هداية البشرية ، ولكنه لم يَدْعُ الناس للسكوت على الظلم ، بل أنذرهم إن سكتوا عليه أن يعمهم الله بعقاب . . وقد كانت هناك بالفعل وسائل أخرى غير الخروج المسلح ، اتبعت فى بعض الحالات وآتت ثمارها ، ومنها وقوف العلماء ـ ورثة الأنبياء ـ فى وجه الظلم ، وأطرهم السلاطين أطرا على الحق حتى يستقيموا عليه ، ولو ذاقوا فى سبيل ذلك ما ذاقوا كما حدث لابن حنبل وابن تيمية رحمهما الله ، وما خبر العز بن عبد السلام ببعيد . .

---

(١) إقرأ إن شئت كتاب « كيف نكتب التاريخ الإسلامى » .

(٢) الحديد : ٢٥ . (٣) أخرجه أبو داود والترمذى .

ولكن الأمويين اشتدوا فى ضرب المعارضين لهم متذرعين بشتى المعاذير ، فخوفوا «الجماهير » من « الخوض فى السياسة » !

وأيًا كانت معاذير بنى أمية ، فقد حدث ثلم فى « مقتضيات لا إلّه إلا الله » ، كانت له آثار خطيرة فى مسيرة الأمة الإسلامية خلال التاريخ ، حين صار الاستبداد بالسلطة كأنه أصل فى حياة الحكام ـ إلا من رحم ربك ـ وتزايد بعد الأمويين لدى العباسيين ثم المماليك ثم العثمانيين ، فحدث انحسارَ تدريجى فى الشمول الرائع الذى نزلت به لا إلّه إلا الله من عند الله ، وانحصر مفهوم « الدين » عند الناس تدريجيًا فى « الأمور الخاصة » بدلاً من «الأمور العامة » وفى الشعائر التعبدية وحدها بدلاً من المفهوم الشامل للعبادة . .

نعم ، حدث تركيز شديد على الشعائر التعبدية على أنها هى لب الدين ، وهى مظهره العملى كذلك . .

وتحالف الفكر الإرجائى والاستبداد السياسى معًا على تقليص مساحة الدين الحقيقية ، وتعرية كثير من مجالات الحياة عن ظله الظليل ، وبالتالى تحجيم فاعليته فى واقع الحياة العملية ، وترك عوامل الفساد تمرح فى الأرض . .

حقيقة ، لقد بقى خير كثير فى الأمة بالرغم من هذا كله . . ويرجع ذلك إلى ضخامة الأصل الكبير الذى كان عليه الدين فى حقيقته يوم أن طبق تطبيقًا كاملاً كما أنزله الله ؛ لذلك فإن كل الانحراف الذى حدث لم يستطع ـ بفضل الله ـ أن يقضى على الأمة ، أو يقضى على الدين فى حياة الأمة ، فقد سبق فى مشيئة الله أن يبقى هذا الدين إلى يوم القيامة، وأن تبقى الأمة التى تحمله مهما أصابها فى الطريق من وهن . . إذ يبعث الله لها على مدى القرون من يجدد لها أمر دينها ويدعوها إلى العودة إليه . .

هذا الخير الكثير الذى بقى جعل كثيرًا من الناس يتغاضون عن الانحسار الذى وقع ، ولكن هذا قد أدى بدوره إلى مزيد من الانحسار ، في الجوانب الاجتماعية خاصة ، مما استغله الغزو الفكرى فيما بعد ، ليقول للناس هذا هو الدين قائمًا (!) ولكن الأرض مملوءة بالفساد والظلم ، فلا تلتفتوا إلى الدين ؛ ليصلح لكم أحوالكم ، ولا ترجوا من ورائه الخير[1]!

---

(١) سنتحدث عن الغزو الفكرى وآثاره فى سياق الفصل .

لقد فرطت الأمة كثيرًا فى الأمانة التى ناطها الله بها ، حين أهملت من مقتضيات لا إلّه إلا الله ما أهملت ، وأخرجت منها ما أخرجت ، وكانت نتيجة ذلك خسرانًا كبيرًا لا فى حياتها وحدها ـ إذ صارت غثاء كغثاء السيل ـ ولكن فى حياة البشرية كلها ، التى ربطها الله بأحوال هذه الأمة منذ أخرجها للناس [1] .

* * *

ثم جاءت الصوفية ؛ لتكمل الدائرة . . دائرة الانحسار . .

لقد كانت الصوفية ـ كالفكر الإرجائى ـ شيئًا دخيلاً على الإسلام ، دين العمل والحركة فى واقع الأرض ، ودين المجابهة والجهاد لإقامة المنهج الربانى فى عالم الواقع . .

حقيقة إن الإسلام يدعو إلى الزهد فى متاع الحياة الدنيا ؛ وسيد الزهاد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، الذى كان أمامه ـ لو شاء ـ متاع الأرض كله ، فزهد فيه إلا ما يقيم الأود ويحفظ الحياة . والذى أشفقت عليه زوجه الحنون عائشة ـ رضى الله عنها ـ وهو يفترش عباءته ، فأرادت أن تخفف من قساوة الأرض تحت جنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فطبقت له العباءة طبقتين ـ ولا نقول وضعت له اللين من الفراش ـ فغضب ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال لها رديها كما كانت ! !

نعم . . إن الزهد فى متاع الحياة الدنيا ، والاكتفاء منه بأقل القليل خلق إسلامى أصيل ، أما بعد هذه النقطة فلا لقاء بين الزهد وبين الصوفية !

لقد كان عليه الصلاة والسلام زاهدًا ، فهل اعتزل الناس ليعيش فى صومعته بعيدًا عن معترك الحياة ؟

كان زاهدًا . . فهل قال لنفسه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : دع الخلق للخالق ، فإنه لو شاء لهداهم ، وعليك بخاصة نفسك ؟

كان زاهدًا . . فهل كفّ عن الجهاد لحظة ؛ لتكون كلمة الله هى العليا ، داعيًا ومربيًا ، ومحاربًا ، وحاكمًا ، وراسم خطط وساعيًا فى الأرض بجهده كله وطاقته كلها ؟ !

---

(١) اقرأ كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للشيخ أبى الحسن الندوى . واقرأ إن شئت فصلاً بهذا العنوان فى كتاب « رؤية إسلامية » .

حتى مشيته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، تقول كتب السيرة إنه كان يمشى كأنما يتقلع من الأرض تقلعًا . .

ما أبعد سلبية الصوفية وعزلتها وتواكلها عن إيجابية الزهد وفاعليته وحركته لتغيير الواقع والارتقاء به . .

إن فكرة « الفناء » ـ التى جاهدت من أجلها الصوفية ـ فكرة هندية ليست من الإسلام ، وكذلك فكرة خلاص الروحِ بتعذيب الجسد ، أو إهماله ، أو إهانته . .

وفكرة ترك الواقع يعج بما فيه من دنس واعتزاله للنجاة من أدرانه ، وتطهير الروح من دنس الجسد بقتل الشهوات من أجل الخلاص فى الآخرة فكرة مارستها الرهبانية النصرانية ، وليست من الإسلام . .

كيف دخل هذا الخليط كله فى حياة المسلمين ؟!

فى الصوفية الهندية يسعى الإنسان لتحقيق الخلود ، ولا يتم هذا إلا بالفناء فى « النرفانا » (الروح الأعظم) والاتحاد معه . وهذا بدوره لا يتم إلا بتعذيب الجسد وإهانته ؛ لتنطلق الروح من أوهاقه ، وترفرف فى عالم النور . وتتعطل بذلك دفعة الحياة ، فلا يعد هذا خسارة ولا تبديدًا للطاقة ، فالحياة الدنيا دنس من جهة ، ومن جهة أخرى قيد يعوّق انطلاق الروح . ومن ثم يكون تعطيلها ، أو حتى قتلها ـ هو الكسب الذى يرتقى به الإنسان إلى الخلود ، بالاتحاد مع النرفانا !

وفى النصرانية يؤمن الناس أن الإنسان خاطئ بطبعه ، ولا يرجى له صلاح طالما حيويته فاعلة فيه ، فتلك الحيوية ذاتها هى مكمن الشيطان . و « ملكوت الرب » [1] لا يمكن تحقيقه فى الحياة الدنيا لكون الإنسان على هذا الطبع الخاطئ الدنس . ومن ثم يجب قتل هذه الحيوية ما أمكن للتغلب على الشيطان ، والخلوص بالروح إلى الله ، لتحقق ملكوت الرب فى الآخرة ، بالخلود مع النبيين والقديسين فى عالم الصفاء الذى لا تكدره الشهوات . .

وهذا وذاك ليس من الإسلام . .

---

(١) يقصدون به الوضع الذى تتحقق فيه العبادة الخالصة لله والطاعة الكاملة لأوامره .

الخلود فى النعيم ـ الذى هو أقصى آمال الإنسان ـ لا ينال إلا بالإيمان والعمل الصالح ، والجهاد لإعلاء كلمة الله :

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً . خالدين فيها لايبغون عنها حولا ﴾ [1] .

﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ـ بعضكم من بعض ـ فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ، ولأدخلَنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ثوابًا من عند الله ، والله عنده حسن الثواب ﴾ [2].

﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين؟﴾[3].

والجسد وعاء الشهوات نعم ، والشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم من العروق ، والشهوات مطيته التى يغوى بها البشر ليخطئوا وينحرفوا عن سبيل الله . .

كل هذا صحيح . . ولكن علاج الأمر ـ فى الإسلام ـ لم يكن قط بقتل هذه الشهوات من منبعها ، واحتقار الجسد وتعذيبه . إن الله خلق هذه الدوافع فى نفس الإنسان ؛ لتكون حافِزَهُ لعمارة الأرض ، والقيام بدور الخلافة فيها . . فإذا قتلناها فما الذى يحفز ؟ ومن الذى يعمّر ؟!

إنما علاجها فى الإسلام وضع ضوابط لها تضبط منطلقها دون أن تحبسها :

﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ [4].

والضوابط هى ما أنزل الله فى كتابه ، وفى سنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حلال وحرام ، ومباح وغير مباح . .

فإذا التزمت أوامر الله فالدوافع ـ المنضبطة بالضوابط الربانية ـ ليست مباحة فقط ، بل فى إجابتها أجر :

---

(١) الكهف : ١٠٧ـ١٠٨ . (٢) آل عمران : ١٩٥ .

(٣) آل عمران : ١٤٢ . (٤) الأعراف : ٣٢ .

« قال عليه الصلاة والسلام : وإن فى بضع أحدكم لأجرًا . قالوا : يا رسول الله إن أحدنا ليأتى زوجه شهوة منه ثم يكون له عليها أجر ؟! قال أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فإذ وضعها فى حلال فله عليها أجر » [1] .

وليست دنسًا ولا شيئًا مستقذرًا :

« حبب إلىّ من دنياكم الطيب والنساء ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » [2] .

إنما الدنس هو الفاحشة ، أى تجاوز الحد . .

وعلى ذلك فالمسلم لا يسعَى إلى قتل دوافعه ليبعد عن نفسه سلطان الشيطان . إنما يلتزم بأوامر الله ، وبما أحل الله له ، فلا يجد الشيطان سبيلاً إليه . . وعندئذ يتحقق «ملكوت الله » فى الحياة الدنيا ، ولا يرجأ إلى الآخرة . .

إن الإنسان خطاء . . نعم . « كل بنى آدم خطاء » .

ولكن ذلك لا يمنع من السعى إلى إقامة ملكوت الله ـ أى الالتزام بطاعة الله ـ فى الحياة الدنيا . فهذا الإنسان ـ بكل ما يقع منه من خطأ وانحراف ـ قد كرمه الله تكريمًا ، وفضله على كثير من خلقه تفضيلاً :

﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ [3] .

وبما وهبهم من مواهب ، وما علمهم من علم ، وما سخر لهم من طاقات السموات والأرض كلفهم أن يقيموا ملك الله فى الأرض ، أى ينفذوا أوامره ويقيموا منهجه ، ويطيعوه ويعبدوه وحده بلا شريك :

﴿ قلنا اهبطوا منها جميعًا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [4] .

والذين يتبعون الهدى الربانى ، ويقولون « سمعنا وأطعنا » هم الذين يقيمون ملكوت الله فى الأرض ، ولهم الجنة فى الآخرة .

﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [5] .

---

(١) سبقت الإشارة إليه .　(٢) أخرجه النسائى وأحمد .　(٣) الإسراء : ٧٠ .
(٤) البقرة : ٣٨ .　(٥) البقرة : ٣٩ .

وهؤلاء الذين آمنوا ، وأقاموا ملكوت الله فى الأرض ، لا يخرجون عن بشريتهم ولا يصبحون ملائكة . . إنهم خطاءون ككل بنى آدم ، ولكنهم توابون :

﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين ﴾ [(١)] .

ومن فضل الله على عباده أنه لا يطردهم من رحمته حين يخطئون ، ماداموا يستغفرون ويتوبون ، ولا يقول لهم إنهم غير مؤهلين ـ بسبب أخطائهم ـ لإقامة ملكوت الله فى الأرض، بل يرضى عنهم ويباركهم :

﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه ﴾ [(٢)] .

تلك قضية الإنسان فى الأرض كما يحددها المنهج الربانى ، وهى تقتضى العمل قدر الطاقة لتحقيق ملكوت الله ، والجهاد الدائم لدفع الشر وتمكين الخير فى الأرض ، ولا تقتضى العزلة ، ولا تقتضى قتل الدوافع الحية فى نفس الإنسان .

فمن أين جاءت الصوفية بما جاءت به ، وزعمت أنها تتقرب به إلى الله ؟!

من أين اعتزال الناس ، وترك الخلق للخالق إن شاء هداهم [(٣)] ، وقهر نوازع الجسد لتخليص الروح ، والسلبية والتواكل ، وجعل « العجز » فضيلة ترجى بركتها [(٤)]!

إنها كلها لَـىٌّ لتعاليم الإسلام ، لتتلبس بشىء دخيل على الإسلام . .

وحين كانت الأزمة التى وقعت فيها الأمة الإسلامية هى الانحسار التدريجى لمقتضيات

---

(١) آل عمران : ١٣٥ ـ ١٣٦ .   (٢) البينة : ٨ .

(٣) يقول تعالى لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين ﴾ [القصص : ٥٦] ويقول تعالى : ﴿ ليس عليك هداهم ﴾ [البقرة : ٢٧٢] ولكنه أمر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبذل جهده فى توصيل الهدى إليهم ودعوتهم إليه ، ولم يقل له اقعد أنت وأنا أهديهم إذا شئت !

(٤) عدم اعتداد الإنسان بقدرته الذاتية ، ورد الأمر إلى مشيئة الله وقوته وفضله ، وطلب العون منه ، كلها فضائل إسلامية ، ولكن الصوفية حولتها إلى قعودٍ عن الأخذ بالأسباب ، ثم التماس تحقيق المراد من رب العباد بغير عمل يعمل ، بحجة العجز، أو « ببركة العجز » ! بينما الله يأمر عباده أن يتوكلوا عليه التوكل الحق وفى الوقت ذاته يتخذوا الأسباب : ﴿ وقل اعملوا . . ﴾ [التوبة : ١٠٥] ﴿ وأعدوا لهم . . ﴾ [الأنفال : ٦٠] ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ [الأنفال : ٣٩] (راجع الهامشة رقم ٣ ص ٦٠) .

لا إلّه إلا الله ، وبخاصة المقتضيات السياسية والاجتماعية منها ، والتركيز المتزايد على الجانب الفردى وعلى الشعائر التعبدية ، فقد جاءت الصوفية لتزيد الطين بلة ، إذ جاءت لتؤكد هذين الجانبين بالذات ، وتصرف النظر تمامًا عن المقتضى السياسى ، وعن «الجهاد» عامة ، سواء ما كان منه متعلقًا بصدّ أعداء الإسلام ، أو كان متعلقًا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى المجتمع الإسلامى ذاته . .

وقدمت الصوفية فى الوقت ذاته مخدرًا آخر يضاف إلى المخدر الذى قدمه الفكر الإرجائى من قبل ، يوهم أصحابه أنهم « واصلون » لا بالعمل ولا بالجهاد . . ولكن بالأوراد والأذكار ، والأضرحة والأولياء ، وبركات « الشيخ » ، والخوارق والكرامات التى تتنزل ـ ببركة العجز ـ على المشايخ والأولياء !

* * *

وأخيرًا نتحدث عن « الغزو الفكرى » وآثاره فى مقتضيات لا إلّه إلا الله . .

ويجب أن نذكر أن الغزو الفكرى كانت له جولتان اثنتان فى حياة الأمة الإسلامية لاجولة واحدة . .

فأما الأولى فقد جاءت والأمة فى عنفوانها ، نتيجة خطأ وقع فيه فريق من « مفكرى » الأمة ، إذ ظنوا أن الفلسفة الإغريقية والمنطق الإغريقى أداة يمكن أن تستخدم فى خدمة الإسلام !

وقد كان هذا عجيبًا . . ولكنه حدث على أى حال !

أقول كان عجيبًا لأن الأمة ـ فى حركة النقل الهائلة التى قامت بها من التراث الإغريقى لتبدأ حركتها العلمية ـ كانت على وعى بما ينفعها من هذا التراث وما لا ينفعها ، فكانت تنتقى ما تريده انتقاء . ودليل ذلك أنها برغم كل ما ترجمته عن اليونانية لم تترجم الأساطير اليونانية الشهيرة ؛ لأنها رأت فيها وثنية لا تتناسب مع عقيدة التوحيد التى آمنت بها ، وعبثًا من « الآلهة » لا يليق بجلال الله الذى آمنت به . . فلم تلتفت إلى تلك الأساطير إطلاقًا ، واكتفت بنقل « العلوم » فحسب . .

أما المنطق والفلسفة فقد خدع فيهما فريق من « المفكرين » ظنًا منهم أنها أدوات محايدة لا تخدم الوثنية بالذات ، وإنما يمكن أن تستخدم لخدمة الإسلام أيضًا ، وساعد على هذا أن الخلفاء العباسيين ابتدعوا بدعة سخيفة وهى أن يدعوا من « متكلمى » اليهود

والنصارى من يناظر « المفكرين » المسلمين ، فيتكلم هؤلاء فى حق الإسلام ما شاء لهم هواهم ، ثم يطلب الخلفاء من المسلمين أن يردوا عليهم ! ولما كان اللاهوت اليهودى واللاهوت النصرانى قد استخدما المنطق والفلسفة الإغريقيين فى شرح عقيدتهما ، فقد رأى « المفكرون » المسلمون يومئذ أنه لابد أن يتعلموا المنطق والفلسفة أيضًا ؛ ليتمكنوا من مناظرتهم!

إنها ـ فى نظرنا ـ عملية عبثية أكثر منها جادة . . فما أغنى الإسلام والمسلمين عن هذا العبث اللاهوتى ، وما أغنى الدين الربانى عن وسائل لشرحه وبيانه خلاف القرآن والسنة ، اللذين قال عنهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى : كتاب الله وسنتى »[1] .

وأيًا كان الأمر ، فقد كانت البلوى التى أصابت عقيدة لا إلّه إلا الله من هذا العبث هى اصطناع « لاهوت إسلامى » ، اشتهر فى التاريخ الإسلامى باسم « علم الكلام » ! ونشأة ما أطلق عليه اسم « الفرق الإسلامية » التى تصطنع تفسيرًا إغريقيًا فلسفيًا للا إلّه إلا الله ، ما أنزل الله به من سلطان !

ولقد بقيت البلوى محصورة على أى حال فى طائفة من « المفكرين » لا تمس جمهور الأمة الذى بقى على سلامة فطرته ، حتى بدأ الفساد يدب باقتطاع مقتضياتٍ من مقتضيات لاإلّه إلا الله وإخراجها من الساحة ، فهنا بدأت « الفرق » تجتذب إليها « جماهير » تصطنعهم لتحتمى بهم من النقد الموجه إليهم من العلماء الذين بقوا على الدين الحق والفطرة السليمة . وكان « الفكر الإرجائى » من أسوأ مانبع من تلك الفرق واجتذب «الجماهير »!

* * *

أما أسوأ ما حدث فى تاريخ الأمة فهو الغزو الفكرى المعاصر . .

جاء هذا الغزو والأمة فى خواء لا مثيل له من قبل . . فتوغل فى حياتها كما لم يتوغل شىء من قبل . .

جاء وقد اقتطع من لا إلّه إلا الله معظم مقتضياتها ، ولم يتبق منها إلا فتات متناثر

---

(١) أخرجه أبو داود .

لا يكون عقيدة صحيحة ولا عبادة صحيحة ولا ممارسة صحيحة . . إنما هى أقرب إلى أن تكون تقاليد ـ أو بقايا تقاليد ـ خاوية من الروح . .

حتى الشعائر التعبدية التى كان « الدين » قد انحسر إليها وانحصر فيها كانت قد تحولت إلى تقاليد . . ولم يعد للدين ـ على شدة تمسك الناس ببقاياه المتناثرة ـ تلك الروح الدافعة التى كانت له يوم أن كان دينًا حقيقيًا فاعلاً فى شتى المجالات . .

ومع هذا الانحسار كله ، كان قد بقى فى حياة المسلمين ـ كما أشرنا من قبل ـ أمران أخيران لم يصل إليهما الانحسار بعد ، وهما تطبيق الشريعة ، والصلاة ، أو قل إن شئت شعائر العبادة . .

وهذا هو الذى جاء الغزو الفكرى ليمحوه !

وعلينا ألا ننسى أولاً أن الغزو ذاته ما جاء إلا بعد انحسار لا إلّه إلا الله عن مقتضياتها ، سواء منه الغزو العسكرى ، أو السياسى ، أو الاقتصادى ، أو الفكرى . . وأنه لولا هذا الانحسار ما جرؤ الأعداء على غزو العالم الإسلامى ، وقد جربوا الهزيمة المنكرة فى الحروب الصليبية الأولى .

ولكنهم كانوا يتربصون . .

فلما وجدوا الأمة قد أخذت تغفو ـ تحت خدر الفكر الإرجائى وخدر الصوفية ـ وبدأت تغفل عن مقتضيات دينها ، فلم تعد تعدّ للأعداء من القوة ما ترهبهم به كما أمرها الله ، ولا تنشط لعمارة الأرض كما أمرها الله ، ولا تطلب العلم كما أمرها الله ، ولا تمشى فى مناكب الأرض بحثًا عن رزق الله كما أمرها الله ، ولا تسعى إلى حيازة أسباب التمكين فى الأرض كما أمرها الله ، ولا تمارس الأخوة فيما بينها كما أمرها الله ، ولا تمارس العدل الربانى فى حياتها كما أمرها الله . .

عندئذ وجدوا الفرصة سانحة فلم يضيعوها . . وجاءوا بخيلهم ورجلهم فعاثوا فسادًا فى أرض الإسلام . .

كان كل ما بقى من الإسلام هو تلك البقايا المتناثرة التى أشرنا إليها من قبل ، ولكن الأعداء لم يكونوا ليحسوا بالطمأنينة مع بقاء ذلك الفتات المتناثر ، فهم يعرفون هذا الدين جيدًا ، ويعرفون ماذا يمكن أن يحدث لو بقى أى جزء منه فاعلاً فى الأرض :

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . . ﴾[1] .

إن أشد ما يفزعهم من هذا الدين ـ كما قال المستشرق جب ـ هو قدرته على الانبعاث فجأة من حيث لا يحتسب أحد !

فإذا بقيت الشريعة مطبقة ، وبقيت الشعائر التعبدية ، فقد بقيت « الجرثومة » التى يمكن أن تنشط فجأة بغير سابق إنذار !

لابد إذن من القضاء على تلك البقية الباقية من الدين ، حتى وإن كانت ظلاً باهتًا لحقيقة الدين !

وعمل الأعداء ـ بكل ما أوتوا من كيد وجهد ـ لإزالة هذه البقايا عن طريق الغزو الفكرى ، فى القاهرة واسطنبول خاصة ، مع حرصهم فى الوقت ذاته على إزالة « الدولة » التى يلتف المسلمون حولها باعتبارها « دولة الإسلام » .

ولم يكن الأمر أمامهم سهلاً ، ولكنه كان أسهل بكثير مما كان يمكن أن يحدث لو أن الأمة كانت على وعيها السابق بحقيقة دينها ، وتطبيق صحيح لما تعيه من أمر هذا الدين . .

عندئذ كان من المستحيل على الصليبية والصهيونية مهما خططا أن يصلا إلى شىء مما يهدفون له ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، لأن الله قرر ذلك فى محكم كتابه :

﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئًا ، إن الله بما يعملون محيط ﴾[2] .

ولكنهم استطاعوا فى خلال قرن واحد أن يفعلوا بهذه الأمة ما عجزوا عنه خلال اثنى عشر قرنًا من الزمان . . وذلك بسبب ما كانت تعانيه الأمة من الخواء من حقيقة الإسلام . . الخواء من مقتضيات لا إلَه إلا الله . .

كان هجومهم كاسحًا فى جميع الميادين . . وكان نجاحهم كاسحًا فى جميع الميادين . .

ويعجب الإنسان حين يراجع تاريخ القرن الماضى كيف تغير حال الأمة هذا التغير المفزع فى قرن واحد ، حتى لكأنها أمة أخرى غير التى كانت . . ولكن جزءًا من هذا العجب ـ على الأقل ـ يزول ، حين يعلم الإنسان كيف كان حال الأمة قبل أن تمسخ هذا المسخ الأخير . إنها لم تكن « الأمة الإسلامية » التى أخرجها الله ؛ لتكون « خير أمة » . . إنها

---

(١) البقرة : ١٤٦ . (٢) آل عمران : ١٢٠ .

كانت « بقايا أمة » . . كانت بحقٍ ذلك « الرجل المريض » الذى يتربص مَنْ حوله أن يلفظ أنفاسه الأخيرة . .

وقد كان هذا الواقع السيئ ذاته سندًا لدعاة الغزو الفكرى يضللون به الناس . يقولون لهم : إن الدين هو الذى أوصلكم إلى هذا الحال البئيس . . فانبذوه ، لتتحرروا ، وتتقدموا ، وتنطلقوا فى كل مجال . .

وكذبوا . . فما كان دينَ الله إلا عزًا وكرامة وقوة وعلمًا وأخلاقًا وتقدمًا وتمكينًا فى الأرض . .

وإنما الذى كان موجودًا فى الأرض هو ما شوهه البشر من دين الله ، فلا عجب أن يكون تأخرًا وضعفًا وزراية وانتكاسًا . . ولكن الناس فى ذلك الحين لم يكونوا على وعى بما يدور حولهم . . لا هم على وعى بأن ما يحرصون عليه ويتمسكون به ليس هو دين الله الحق ، ولاهم على وعى بأن ما يُدْعَوْنَ إليه هو مخطط أعدائهم للقضاء الأخير عليهم ، لا لإحيائهم من الموات الذى كان وشيكًا أن يلحق بهم . .

وسواء كان الدعاة الأوائل إلى التغريب مخلصين فى دعوتهم أو غير مخلصين [1] ، فقد كانت النتيجة العملية واحدة ، ذلك أن العميل المستَغْفَل يؤدى للأعداء ذات الخدمة التى يؤديها العميل المأجور ، إن لم يكن أخطر فى الواقع من العميل المأجور ، لأن الناس يخدعون بطيبته الظاهرة ، فيظنون أن الدعوة التى يدعوهم إليها هى طريق الخلاص .

دعا الدعاة إلى التغيير الشامل فى كل شيء . . العادات والتقاليد والأفكار والنظم ، والصورة والمضمون !

وفى بدء الأمر لم يكونوا يجرءون بطبيعة الحال أن يهاجموا الإسلام جهرة ـ ولو كانوا عملاء مأجورين ، لأن الجماهير المستمسكة ببقايا الدين كان يمكن أن تفتك بهم حين ترى منهم هجومًا صريحًا على الدين .

أما مهاجمة « التقاليد البالية » فأمر ممكن . . وكذلك مهاجمة التخلف والرجعية والجهل والمرض . . وربط ذلك كله بجمود « رجال الدين » !

---

(١) لم يكونوا كلهم عملاء مأجورين ـ سواء كان الأجر مالاً أو شهرة أو منصبًا أو شهوات دنسة ـ وإنما كان بعضهم مخلصًا بمعنى أنه يظن حقيقة أنه يخدم بلاده ويخدم إسلامه بهذه الدعوات ، ولكنهم ـ جميعًا ـ كانوا منهزمين روحيًا أمام التفوق المادى الغربى ، فأرادوا إخضاع الإسلام لمفاهيم الغرب .

هكذا كانت نقطة البدء . . ولكنها لم تكن إلا نقطة بدء ! أما ما بعد ذلك فقد وصل الأمر إلى الهجوم العلنى ، وإلى الهجوم المقذع فى بعض الأحيان [1] !

قامت الدعوة إلى « تحرير المرأة » بمعنى السفور وخلع الحجاب ، والدعوة إلى إلغاء الشريعة ، وحصرها ـ على الأكثر ـ فى قانون الأحوال الشخصية ، والدعوة إلى إلغاء التعليم الدينى أو تقليصه فى أضيق الحدود ، والدعوة إلى إقرار الربا أساسًا لإدارة العمليات الاقتصادية ، وَالدعوة إلى تغيير الزى سواء للرجال أو النساء . . والدعوة عمومًا إلى إلغاء كل مظهر من مظاهر الحياة الإسلامية واتخاذ كل مظهر من مظاهر الحياة الغربية . . بدعوى التقدم والتحضر والقضاء على التخلف . .

أما كل « مظهر » من مظاهر الحياة الإسلامية فقد سهّلَ الأمرَ على الدعاة إلى تغييره أنه كان فى أغلب الأحوال « مظهرًا » فحسب ، دون مادة حقيقية صلبة وراء ذلك المظهر تحميه من السقوط ! وأما كل « مظهر » من مظاهر الحياة الغربية فقد سهّلَ الأمرَ على الداعين إليه أنه مجرد تقليد ، وليس صبغة حقيقية . . وما أسهل التقليد !

لا الذى قضوا عليه كان حقيقة الإسلام ، ولا الذى مارسوه كان حقيقة ما عند الغرب !

لقد كان عند الغرب فساد كبير فى كثير من مجالات الحياة ، ولكن كان عندهم على الأقل تقدم علمى وتكنولوجى وتنظيمى ، وجلد على العمل ، ومثابرة طويلة النفس للوصول إلى الغاية المطلوبة . . فهل تعلم أولئك الدعاة شيئًا من ذلك أو كانوا قادرين على تعلمه ؟ وهل كانوا من باب أولى قادرين على تعليمه للآخرين ؟ . . إنما الذى تعلمه هؤلاء وعلموه للناس كان قشورًا من كل شىء نافع . . أما الفساد فكله بلا تحفظ ولا تباطؤ . . وبإتقان !

ألا ما أتفه العبيد ! وما أصغر هممهم ! وما أضيع « النهضة » التى قاموا بها ليعالجوا أمراض العالم الإسلامى . . . !

لقد كان الأمر فى حاجة إلى بعث إسلامى جديد ، يجدد للناس أمر دينهم ، ويردهم إلى

---

(١) فى أوائل الستينيات الميلادية نشر صلاح جاهين فى صحيفة الأهرام المصرية رسمًا « كاريكاتوريًا » يشتمل على رجل بدوى يركب حمارًا فى وضع مقلوب أى وجهه إلى الخلف رمزًا للرجعية ! وفى أسفل الصورة ديك وتسع دجاجات وعنوان الرسم « محمد أفندى زوج التسعة » والتعريض برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وزوجاته واضح . . ومع هذا التوقح البشع فقد مر الأمر سهلاً فى حماية النظام القائم يومئذ .

الجادة التى تركوها أو ضلوا عنها . . ولكن الموجودين فى الساحة يومئذ ـ إلا من رحم ربك ـ لم يكونوا قادرين على ذلك ، فهم إما « متدينون » على الصورة التى وصفناها من الانحراف عن حقيقة لا إلّه إلا الله ومقتضياتها ، وإما منسلخون من الدين ، منجرفون فى تيار التغريب ، يركضون ركضًا إلى حيث يبتلعهم الضياع . . ﴿ ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ [1]!

﴿ قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم ، فلانقيم لهم يوم القيامة وزنًا ﴾ [2].

* * *

استخدمت فى عملية التغريب كل الوسائل الممكنة : مناهج التعليم ، ووسائل الإعلام، وخاصة الصحافة ، ثم المسرح والسينما ، و « المرأة المتحررة » ، والشواطئ العارية، والمدارس التنصيرية ، واستقدام « الفرق » التمثيلية ، والغنائية ، والراقصة . . وترجمة الآداب الغربية ، ونشر الفكر الداروينى « التطورى » ، والدعوة إلى الاختلاط ، والدعوة إلى القومية والوطنية بدلاً من الاجتماع تحت راية الإسلام ، و . . .

وفى خلال قرن واحد لم تعد تستطيع أن تميز بين المسلم وغير المسلم فى شىء من مظهره ولا مخبره . . إلا فى شىء واحد : أن « الخواجات » أصلاء فى فنهم ، و « المسلمون ! » مقلدون !

وإذ كان محور حديثنا فى هذه العجالة هو لا إلّه إلا الله ومقتضياتها ، فقد ذكرنا من قبل أن مقتضيات لا إلّه إلا الله كانت قد انحسرت فى نفوس المسلمين انحسارًا شديدًا فى الفترة الأخيرة ، وتحولت إلى تقاليد خاوية من الروح ، ولكن كان قد بقى على الرغم من ذلك الانحسار كله حاجز أخير وقفت عنده الأمة الإسلامية مدة طويلة ، هو التحاكم إلى شريعة الله ، وإقامة الصلاة . . وقلنا : إن هذا هو الذى جاء الأعداء ؛ ليمحوه من حياة المسلمين ، لكى يقضوا القضاء الأخير على الإسلام ، ثم لا تقوم له قائمة بعد ذلك فى الأرض . .

---

(١) الأعراف : ٣٠ .

(٢) الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٤ .

فأما الشريعة فقد اتخذوا لها الوسائل الكفيلة فى نظرهم بالقضاء عليها .

فقد أحدثوا باديْ ذى بدء واقعًا عمليًا لا تحكمه الشريعة . . إذ ألغوا المحاكم التى تحكم بالشريعة فى الأحوال المدنية والأحوال الجنائية . . ولم يبقوا إلا محاكم الأحوال الشخصية، وأطلقوا عليها وحدها اسم « المحاكم الشرعية » واستحدثوا محاكم بديلة تحكم فى الأحوال المدنية والأحوال الجنائية بالقانون الوضعى ، وفرض هذا على الناس فرضًا بقوة الاحتلال العسكرى الصليبى . ولم يكتفوا بذلك ، بل كتموا صوت الاحتجاج من ناحية ، وأفهموا الناس من ناحية أخرى أن هذا هو « التقدم » الذى يجعلنا « مثل أوربا » ! وهل يتطلع المهزومون ـ روحيًا وعسكريًا ـ إلى أبعد من أن يكونوا « مثل أوربا » فى شىء من الأشياء ؟! ثم راحوا من جهة ثالثة يتهمون الشريعة بالقصور والتخلف ، والجمود عن ملاحقة « تطورات العصر » !

وأما الصلاة ـ والشعائر كلها ـ فقد سلطوا على الناس ما يصرفهم عنها . .

السخرية الدائمة ـ فى القصة والمسرح والسينما [1] ـ من شخصية « المتدين » ، أى الذى يؤدى الشعائر (!) ، من غفلته وسذاجته وانغلاق فكره أحيانًا ، ومن نفاقه وخبثه وسوء طويته ـ مع مظهره المتدين ـ أحيانًا ! والنشر المتعمد للفساد الخلقى بكل وسائل النشر بما فيها الصحافة والقصة والمسرح والسينما والشواطئ العارية ، والإلحاح الدائم على ضرورة «التطور » و « التحرر » و تحطيم « التقاليد البالية » والانعتاق من « الأغلال » ، وتنشئة أجيال من الناس تنظر إلى الصلاة على أنها من سمات أقوام غبرت ولن تعود !!

وحين تم هذا كله ، خلال قرن من الزمان ، فماذا كان قد بقى من لا إلّه إلا الله ؟

وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لتنقضن عرى هذا الدين عروة عروة ، كلما نقضت عروة تمسك الناس بالتى بعدها ، فأولهن نقضا الحكم ، وآخرهن نقضا الصلاة»[2].

---

(١) لم يكن التليفزيون قد ظهر بعد ، فلما ظهر قام بدوره على « أعلى » مستوى !

(٢) رواه الإمام أحمد .

نواقض لا إلّه إلا الله

لست أدرى لماذا كان حديثنا عن « نواقض الوضوء » أضعاف أضعاف حديثنا عن «نواقض لا إلّه إلا الله » . . !

وأيًا كانت الأسباب التى أدت إلى ذلك ، فيجب أن نسجل ـ للحق ـ أن من العلماء من أمثال ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله من تحدثوا كثيرًا فى نواقض لا إلّه إلا الله ، سواء من أعمال الجوارح أو أعمال القلوب ، فلم يتركوا جانبًا من جوانبها إلا شملوه بالشرح والبيان . .

و إذا كان الفقهاء القدامى لم يواجهوا من المشكلة ما يواجهه الجيل المعاصر ، لأن نقض لا إلّه إلا الله في الأجيال الأولى كان أمرًا نادر الحدوث ، وكان يقابل بالعقوبة التى قررها الله لمن يرتد عن دينه ، فقد اشتد الأمر فى القرن الأخير خاصة ، وصارت القضية فى حاجة إلى تذكير وبيان . .

وقد أوضحت من قبل ـ فى كتاب « واقعنا المعاصر» وكتاب «مفاهيم ينبغى أن تصحح»ـ أننا لا نهدف من الحديث عن نواقض لا إلّه إلا الله إلى إصدار أحكام على الناس . . فهذه ليست مهمتنا . إنما مهمتنا هى تعليم الناس ما جهلوه من مقتضيات لاإلّه إلا الله ، لأنهم إن لم يتعلموا ذلك فكيف يغيرون ما بأنفسهم لكى يغيّر الله لهم ما هم فيه؟

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ [1] .

ولن يغير الناس شيئًا مما بأنفسهم إن ظلوا يظنون ـ مع الفكر الإرجائى ـ أنهم عاملون بمقتضى لا إلّه إلا الله ، ماداموا يؤمنون فى دخيلة أنفسهم أن الله واحد ، وينطقون بألسنتهم لا إلّه إلا الله !

والذين يكرهون الحديث فى نواقض لا إلّه إلا الله ليسوا فريقًا واحدًا من الناس !

---

(١) الرعد : ١١ .

فالمتفلتون من مقتضياتها ، المرتدون عن حقيقتها ، يكرهون أن يكتشفوا لأنفسهم ، أو يكتشف الناس عنهم أنهم قد ارتدوا عنها !

مازالت أذكر مرة ـ وشر البلية ما يضحك! ـ أننى حين أخرجت كتاب « هل نحن مسلمون » فى فترة سابقة [1] ، زارنى شاب فى مقتبل عمره وقال لى : سمعت أنك أخرجت كتابًا بعنوان « هل نحن مسلمون » ، وأنا أرغب فى قراءته ، فهل يمكن أن تعيرنى نسخة لأقرأها ؟! فقلت له : عن طيب خاطر ! وأعطيته نسخة من الكتاب . وإذا به بعد أيام قليلة يعيدها إلىّ قائلاً : خذ يا « عم » كتابك ! لا أريد أن أقرأه ! فقد كنت أحسب نفسى مسلمًا قبل قراءته ! فلما قرأت بعضه خشيت ألا أكون مسلمًا ! فخذ كتابك ، ودعنى على ظنى بأننى مسلم !

وعلى الرغم من سذاجة هذا الشاب وغفلته ، وبعد تصرفه هذا عن الصواب ، وعن الجد الواجب لهذا الدين ، فإنه ليس وحده الذى يصنع ذلك ، بل مئات وألوف . . يفرون من مواجهة حقيقة أنفسهم ، ويكرهون أن يذكرّهم أحد بها ، ويدفنون رءوسهم فى الرمال! رمال الفكر الإرجائى المخدر !

أما الخبثاء منهم ، فهم يعرفون حقيقة موقفهم من لا إلّه إلا الله ، ويعرفون أنهم من أعدائها ، وممن يسعون إلى هدمها ، ولكن يكرهون أن يكتشف الناس حقيقة ما يقومون به ، ويكرهون بالذات أن يكشف الناس حقيقة عمالتهم لأعداء لا إلّه إلا الله من اليهود والنصارى ، فيكرهون من ثم الأضواء الكاشفة التى تبين حقيقتهم ، ويهبّون فى وجه حامليها كالكلاب المسعورة ، يتهمونهم « بالتطرف » ، وبكل منفّر من الصفات . . لعلهم يدارون أنفسهم فى الظلام !

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ! ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء؟ ! ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ! وإذا

---

(١) ظهرت الطبعة الأولى للكتاب عام ١٣٨٠ هـ ، ١٩٥٩ م .

خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ! إنما نحن مستهزئون ! الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ [1] .

وثمة فريق آخر من « علماء السوء » الذين يريدون أن يعيشوا ، ويأكلوا ، ويتمتعوا ، ويخافوا أن يضيع هذا كله إن قالوا كلامًا يغضب من تغضبه حقائق لا إله إلا الله ! وهؤلاء قال الله فيهم :

﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنًا قليلاً ، أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ، ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم ﴾ [2] .

وفريق ثالث من « الطيبين » الذين لا يحبون أن يغضب الناس منهم لو واجهوهم بحقيقة أمرهم ، فيربتون على انحرافاتهم ، ويحسبون أن ذلك أجدى فى دعوتهم إلى الله ، وأرجى أن يستجيبوا للدعوة ، وأن ذلك هو مقتضى « الحكمة والموعظة الحسنة » التى أمر الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يدعو بها حين قال له سبحانه وتعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ [3] ، وينسون أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو أعلم البشر بمراد ربه ، وأشدهم طاعة لأمره ـ قد قال لقريش من الكلام ما جعلها تقول : إن محمدًا قد عاب آلهتنا وسفّه أحلامنا !

ونحن على أى حال ـ كما أسلفنا مرارًا ـ لا نصدر أحكامًا على أحد بعينه ، وليس من هدفنا ذلك ، إنما هدفنا الذى نشعر أنه أمانة فى أعناقنا ، وأن الله سيحاسبنا عليه يوم القيامة إن لم نقم بأدائه ، أن نبين للناس الحقائق ؛ ليعرفوا أين هم من دين الله ، وليصحح موقفه من شاء الله أن يهديه منهم إلى سواء السبيل . .

* * *

يحسب كثير من الناس ـ بتأثير الفكر الإرجائى ـ أن لا إله إلا الله إذا قيلت تظل لاصقة بصاحبها عمره كله ، لا تسقط عنه مهما قال ومهما فعل ، إلا أن يأتى عملاً واحدًا معينًا ، هو أن يعلن بملء فيه أنه كفر بالله ورسوله ، وكفر بما أنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ !!

---

(١) البقرة : ٨ـ١٦ . (٢) البقرة : ١١٤ . (٣) النحل : ١٢٥ .

وبطبيعة الحال فلن يصنع ذلك إنسان فى رأسه ذرة من عقل ـ مهما كان كفره و إلحاده ـ إلا إذا تحلل المجتمع بحيث يأمن الكافر أن يصرح بكفره على رءوس الأشهاد دون أن يناله أذى من الناس . .

فإذا لم ينطق بفمه كلمة الكفر فهو مؤمن ! وكل ما يقوم به معاصٍ مغفورة فى الفكر الإرجائى ، لأن أصحابه يقولون : لا يضر مع الإيمان معصية !

ولسنا هنا نناَقش قضية إخراج العمل من مسمى الإيمان فى الفكر الإرجائى ، الذى يناقض مناقضة صريحة قول السلف : إن الإيمان قول وعمل . إنما نناقش قضية أسوأ من ذلك ، هى الظن بأن لا إلّه إلا الله لا تنتقض إلا بالنطق الصريح بكلمة الكفر .

يقول الإمام حسن البنا رحمه الله فى البند الأخير من رسالة التعاليم « لا نكفر مسلماً أقر بالشهادتين ، وعمل **بمقتضاهما** ، وأدى الفرائض ، برأى أو معصية ، إلا إن أقر بكلمة الكفر ، أو أنكر معلومًا من الدين بالضرورة ، أو كذّب صريح القرآن ، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال ، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً إلا الكفر » .

وهو فى تلك المقالة ملتزم ـ رحمه الله ـ بقول السلف فى الإيمان ، وما يستتبعه من لزوم العمل بمقتضيات لا إلّه إلا الله ، ومذكّر بأن هناك نواقض للا إلّه إلا الله يمكن أن تنقضها من أصولها ، ولو نطق بها الإنسان بفمه ، وادعى أنه من أشد الناس إيمانًا بها ! !

إن الإيمان لم يكن قط دعوى ، ولا حتى فى الحياة الدنيا كما يتوهم بعض الناس ، أو كثير من الناس !

وحديث « هلاّ شققت عن قلبه » الذى يحتج به المرجئة لا يعطى الدلالة التى أرادوا أن يستمدوها منه . إنما هو ـ كما قلت فى كتاب « مفاهيم ينبغى أن تصحح » ـ يرفع السيف عمن قالها صادقًا أو كاذبًا ، فلا يجوز أن يقتل إنسان قال بفمه لا إلّه إلا الله محمد رسول الله ، ولو قالها متعوذًا دون أن يؤمن بها فى دخيلة نفسه . . بل لا يجوز أن يقتل بعد أن يقولها ولو كنا متأكدين فى دخيلة أنفسنا أنه لا يؤمن بها فى الحقيقة !

نعم ! ولكنها لا تعطيه صفة الإسلام إلى الأبد دون عمل بمقتضياتها ! وهنا موضع الخلاف مع الذين يظنون أنها تلصق به عمره كله !

لو قالها ، ورفع السيف عنه ، وأعطى صفة الإسلام ، ثم حان وقت أول صلاة مفروضة (أى بعد ساعات على الأكثر من نطقه بها) فدعى إلى الصلاة فأبى . . فما حكمه ؟! و إذا

طبق عليه حد الردة ـ وهو حكم الله فيه [1] ـ فقال عند تنفيذ الحد : لقد قلت لا إلّه إلا الله محمد رسول الله ! فهل تنفعه ؟ هل ترفع عنه السيف فى المرة الثانية إلا أن يلتزم بمقتضى لاإلّه إلا الله ، فيؤدى الصلاة ولو نفاقًا أمام الناس ؟!

إن هذا هو الذى يفسر قتال أبى بكر الصّديق ـ رضى الله عنه ـ للمرتدين الذين كانوا يقولون لا إلّه إلا الله محمد رسول الله ، ويصلون ، ويصومون ، ويحجون ، ولكنهم نكلوا عن مقتضىً واحدٍ من مقتضيات لا إلّه إلا الله ، وهو الزكاة . .

وحين سأله عمر ـ رضى الله عنه ـ : كيف تقاتل قومًا يقولون لا إلّه إلا الله محمد رسول الله ، وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : من قالها فقد عصم منى ماله ودمه إلا بحقها ؟ ذكّره الصديق ـ رضى الله عنه ـ بأن الزكاة حق المال . وقال : والله لأقتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة . فقال عمر رضى الله عنه : والله ما إن رأيت أبا بكر قد شرح الله صدره للقتال حتى عرفت أنه الحق .

لقد نقض أولئك لا إلّه إلا الله ، بواحد من نواقضها ، وهو إنكار معلوم من الدين بالضرورة ، فلم تعد تنفعهم ، ولا تحميهم ، ولا تعطيهم صفة الإسلام ، وهم لم يكفوا عن النطق بها خمس مرات فى اليوم والليلة على أقل تقدير !

ونعود إلى الحديث عن نواقض لا إلّه إلا الله . .

فأما النطق بكلمة الكفر فلا يحتاج إلى ذكر ، فلا أحد يناقش فى أمره ولا حتى المرجئة . . وإن كان الظن أنهم لو وجدوا إنسانًا ينطق بكلمة الكفر الصريحة فسيقولون له : لا يا شيخ ! ليس من المعقول أنك تقصد ما تقول بهذه الكلمة ! لابد أنك تقصد شيئًا آخر! . .

وأما الإتيان بأعمال لا يأتيها إلا الكافر ، فقد عدد الفقهاء منها : السجود للصنم ، وسب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وإهانة المصحف ، والتحليل والتحريم من دون الله . .

---

(١) هناك خلاف فقهى قديم بالنسبة لتارك الصلاة ، هل يقتل حدًا أم يقتل كفرًا ، ولكن ـ كما يقول ابن تيمية رحمه الله ـ لا يوجد إنسان فى قلبه ذرة إيمان يتعرض للقتل بسبب تركه للصلاة (بعد حبسه ثلاثة أيام ومحاولة استتابته) ثم يبقى مصرًا على عدم الصلاة ، إلا إذا كان كافرًا كفرًا لا شك فيه ! وأعتقد أن هذا ـ فى الواقع العملى ـ يحسم الخلاف النظرى حول تارك الصلاة المتعمد المصرّ !

وكلها إلا الأخيرة موضع اتفاق بين كل الناس فى القديم والحديث ، لأنها أوضح من أن تكون فيها شبهة لصاحب شبهة . .

أما التحليل والتحريم من دونه الله ـ أى التشريع بغير ما أنزل الله ـ فالجدل فيه هو آفة هذا العصر . .

يحتجون بقول ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ : إنه كفر دون كفر . . ليس الكفر الذى يخرج من الملة !

وقد ناقشتَ ذلك فى أكثر من موضع فى « واقعنا المعاصر » و « مفاهيم ينبغى أن تصحح» ، ولا بأس هنا من كلمة سريعة :

لما قال الناس لابن عباس ـ رضى الله عنه ـ : إن هؤلاء ـ يقصدون الأمويين ـ يحكمون بغير ما أنزل الله ، فما القول فيهم ؟ قال قولته الشهيرة : إنه كفر دون كفر . . إنه ليس الكفر الذى تعلمون . . كفر لا يخرج من الملة . .

وصدق ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ ، فما قال أحد عن الأمويين ـ بسبب ظلمهم وجورهم ومخالفاتهم : إنهم كفار !

ولكن السر فى ذلك لم يكن إبطال مفعول الآية القرآنية الكريمة ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾[1] . . معاذ الله أن يصدر ذلك عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ ولا تأويلها على أنها نزلت فى حق بنى إسرائيل وحدهم بينما لفظها عام وشامل : « ومن لم يحكم . . » أى كل من لم يحكم . . ولا أى تعلة من هذه التعلات التى يراد بها صرف تلك الآية المحكمة عن ظاهرها . . .

إنما كان الأمر أن بنى أمية لم يبطلوا العمل بشريعة الله ، ولم يناقشوها ، ولم يناقضوها ، ولم يقولوا : إن المخالفات التى يقعون فيها تشريع مضاهٍ لشرع الله ، أو مقدم على شرع الله ، أو أكثر تناسبًا مع الظروف من شرع الله . . إنما هم فقط خالفوها فى التطبيق العملى ، كما يخالف السارق والزانى أمر الله ، ولا يكفر بذلك ، لأنه لم يجعل السرقة تشريعًا ، ولم يجعل الزنا تشريعًا ، أى لم يبحها بالتشريع ، ولم يقل : إنه لا عقوبة عليهما أو إن لهما عقوبة غير التى شرعها الله . . ولو قال ذلك لكفر ولو لم يسرق ولم يزن ولم يفكر فى حياته كلها فى السرقة أو الزنا . . !

---

(١) المائدة : ٤٤ .

ليست القضية إذن فى كفر من لم يحكم بما أنزل الله متعلقة بالعمل الذى قام به مخالفًا لأمر الله ، فهذا قد يكون معصية وقد يكون كفرًا ، إنما هى متعلقة باستحلال ما حرم الله ، أو تحريم ما أحل الله ، أى متعلقة بالتشريع . . بالتحليل والتحريم من دون الله :

﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ، **ولا حرمنا من دونه من شيء** ﴾ [1] .

فالذى جعل المشركين مشركين ـ كما أشرنا من قبل ـ لم يكن عملاً بالجوارح قاموا به ، إنما كان تشريعًا شرعوه من دون الله ، أباحوا فيه شيئًا حرمه الله ، أو حرموا فيه شيئًا أحله الله ، فجعلوا من أنفسهم أندادًا لله ، كأنهم قالوا : لقد قال الله كذا ولكنا نقول غير ما قال، ونحكم فى الأمر بغير ما قرر الله . . وهذا هو « الحكم » الذى يكفر صاحبه حين يقوم به ، سواء مارسه فى عالم الواقع ، أم لم يمارسه .

إذا اتضح ذلك فقد سقطت محاولة الذين يريدون أن يحتجوا بقول ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ ، ليجعلوه منطبقًا على التشريع بغير ما أنزل الله ، وهو أمر لا يمكن أن يصدر عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ ، لأنه مخالف لصريح الكتاب :

﴿ أم لهم **شركاء شرعوا** لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ ﴾ [2] .

إنما التبس الأمر على بعض المسلمين حين هالتهم بعض تصرفات بنى أمية التى يخالفون بها أمر الله ، فظنوا أنها تصرفات تخرجهم من الإسلام ، فبين لهم ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ أن أمر الأمويين لم يصل إلى هذا الحد ، لأنهم لم يشرعوا تشريعًا مخالفًا لشرع الله ، فيكفروا بذلك كفرًا مخرجًا من الملة ، إنما هم فقط خالفوا أوامر الله متأولين ، أو غير متأولين ، فأصبحوا بذلك عصاة ، ولكنهم مسلمون . . بعبارة أخرى إنهم لم ينقضوا لا إلّه إلا الله باتخاذ شريعة غير شريعة الله ، فكان عملهم معصية ، سماها ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ « كفرًا دون كفر » . .

أما حين وقع التشريع بغير ما أنزل الله ، وهو لم يقع ـ قبل القرن الأخير ـ إلا مرة واحدة أيام التتار حين حكموا « بالياسق » بدلاً من شريعة الله ، فقد قال ابن كثير رحمه الله فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون﴾ ، قال ما نصه :

---

(١) النحل : ٣٥ .　　　(٢) الشورى : ٢١ .

« ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المشتمل على كل خير ، الناهى عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات التى يضعونها بأهوائهم وآرائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان الذى وضع لهم الياسق ، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى ، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها بمجرد نظره وهواه ، فصارت فى بنيه شرعًا متبعًا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكّم سواه فى قليل ولا كثير »[1] .

ولم يكن الفارق بين عملهم وعمل بنى أمية متعلقًا « بحجم » المخالفة عند هؤلاء وهؤلاء، إنما كان متعلقًا « بنوع » المخالفة ، فكانت مرة عصيانًا فى التطبيق ، وفى المرة الأخرى تشريعًا بغير ما أنزل الله .

* * *

إذا اتضح الأمر بهذه الصورة ، وتبين أن التشريع بغير ما أنزل الله ناقض للا إلّه إلا الله ، فقد بقى أن نعرف أن الرضا ـ مع العلم ـ بتشريع مخالف لما أنزل الله ، هو كذلك ناقض للاإلّه إلا الله :

﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيدًا﴾[2] . . . ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾[3] .

« ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لايؤمرون . فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن . ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن . ومن

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٦٨ .

(٢) النساء : ٦٠ . (٣) النساء : ٦٥ .

« ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المشتمل على كل خير ، الناهى عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات التى يضعونها بأهوائهم وآرائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان الذى وضع لهم الياسق ، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى ، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها بمجرد نظره وهواه ، فصارت فى بنيه شرعًا متبعًا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكّم سواه فى قليل ولا كثير »[1] .

ولم يكن الفارق بين عملهم وعمل بنى أمية متعلقًا « بحجم » المخالفة عند هؤلاء وهؤلاء، إنما كان متعلقًا « بنوع » المخالفة ، فكانت مرة عصيانًا فى التطبيق ، وفى المرة الأخرى تشريعًا بغير ما أنزل الله .

* * *

إذا اتضح الأمر بهذه الصورة ، وتبين أن التشريع بغير ما أنزل الله ناقض للا إلّه إلا الله ، فقد بقى أن نعرف أن الرضا ـ مع العلم ـ بتشريع مخالف لما أنزل الله ، هو كذلك ناقض للاإلّه إلا الله :

﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيدًا** ﴾[2] . . . ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾[3] .

« ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لايؤمرون . فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن . ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن . ومن

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٦٨ .

(٢) النساء : ٦٠ . (٣) النساء : ٦٥ .

جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . **وليس وراء ذلك من الإيمان حبه خردل** »[1] .

«إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون . فمن كره فقد برئ ، ومن أنكر فقد سلم ، **ولكن من رضى وتابع** »[2] .

والقضية فى أصلها واحدة ، وإن كانت ذات وجهين متقابلين . .

فإذا كان الذين يشرعون بغير ما أنزل الله قد نقضوا لا إلّه إلا الله ، لأنهم جعلوا من أنفسهم أندادًا لله ، الله يقول وهم يقولون غير ما قال ، والله يحكم فى الشىء فيحلله ، أو يحرمه ، وهم يحكمون حكمًا غيره ، فيحلون ما حرم الله ، ويحرمون ما أحل الله . . إذا كانوا هم قد نقضوا لا إلّه إلا الله بصنيعهم هذا ، فالذين يرضون هذا الصنيع ويتبعونه قد جعلوا من هؤلاء المشرعين أندادًا لله ، فنقضوا بذلك لا إلّه إلا الله ، التى تقضى بأنه لا أنداد له سبحانه ولا شركاء . ذلك بأنهم كأنهم قالوا : لقد قال الله وقال هؤلاء غير ما قال الله ، ونحن ارتضينا ما قاله هؤلاء من دون الله . وقد حكم الله فأحل وحرم ، وحكم هؤلاء فحرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله ، وقد ارتضينا نحن حكمهم واتبعناه !

وليس كلهم بالطبع يقول ذلك . . فمنهم من يقول : كنا نظن أن للحاكم أن يبطل العمل بالشريعة إذا اقتضت الظروف ذلك ! ومنهم من يقول : كنا نظن أن للحاكم أن يغير الأحكام ؛ لتناسب الظروف ! وأن هذا من « الاجتهاد » المباح له !! ومنهم من يقول : إن الحاكم « مضطر » أن يصنع ذلك ؛ لأنه لا يملك القوة التى يواجه بها أعداء الإسلام . . ومنهم . . ومنهم[3] . .

ولسنا هنا بصدد « فرز » هذه الظنون ، والبحث فى أيها يُقْبَل عذرًا عند الله وأيها لايقبل ، لأننا لسنا بصدد الحكم على قائليها . . إنما هدفنا كما قلت أن نبين للناس الحقيقة ، ليتخذوا على ضوئها مواقفهم . .

والحقيقة التى تتبين من الكتاب والسنة أن التشريع بغير ما أنزل الله ناقض للا إلّه إلا الله ، وأن الرضا بشرع غير شرع الله ناقض للا إلّه إلا الله ، وأن أضعف الإيمان فى هذه القضية هو المجاهدة بالقلب « ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن » وقد يكون ـ مع إيمانه ـ

---

(١) رواه مسلم . (٢) رواه مسلم .

(٣) فندت هذه الأباطيل كلها فى كتاب « حول تطبيق الشريعة » فليرجع إليه من أراد .

آثمًا ، إذا كان فى وسعه المجاهدة بما هو أكثر من ذلك ولم يفعل ، ولكنه رغم تقصيره لايخرج من دائرة الإيمان مادام يجاهد بقلبه . وأن الإنكار بالقلب ـ الذى هو أضعف الإيمان ـ ليس معناه أن يرفع الإنسان كفيه إلى السماء ويقول : اللهم إن هذا منكر لايرضيك، ثم ينغمس فيه ! إنما مقتضاه ـ كما قال الغزالى ـ ألا يشارك الإنسان فى ذلك المنكر ولا بمجرد الحضور فيه مادام غير مقهور على الحضور فيه !

* * *

أمر آخر يتصل بقضية التشريع بغير ما أنزل الله ، وهو ناقض كذلك للا إلّه إلا الله ، هو اعتناق « مذهب » من المذاهب التى تبعد الدين عن الحياة ، أو تحصره فى زاوية ضيقة منها ، كالشيوعية والاشتراكية والعلمانية والقومية . . والديمقراطية !

وربما لم تكن الشيوعية ولا الاشتراكية اليوم فى حاجة إلى بيان بعد سقوطها « المبين » فى ساحة المذاهب . . وإن كنت مازلت أعجب لرجل ـ طيب مفرط فى الطيبة رحمه الله ـ قال ذات يوم وهو فى موضع قيادى من العمل الإسلامى : لا نكفر أحدًا قال لا إلّه إلا الله ولو كان شيوعيًا ! رحم الله القائل وغفر له . .

كلا ، لا تحتاج الشيوعية ولا الاشتراكية إلى بيان . .

ولكن العلمانية والقومية ، والديمقراطية بالذات تحتاج إلى بيان [١] . .

العلمانية ذات دعوى عريضة أنها لا تناقض الدين ولا تحاربه . . إنما هى فقط تفصل الدين عن السياسة !!

والدين المعزول عن السياسة ، وعن حكم « المؤسسات » السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية . . قد يكون أى دين إلا أن يكون هو الدين المنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ! أما الدين الذى أنزل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو الذى قال الله فيه :

﴿ قل إن صلاتى ونسكى **ومحياى** ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له . . ﴾ [٢] .

وهو الدين ذو المقتضيات التى بيناها فى الفصل السابق وسميناها : المقتضى الإيمانى ، والمقتضى التعبدى ، والمقتضى التشريعى ، والمقتضى الأخلاقى ، والمقتضى الفكرى

---

(١) ناقشت هذه المذاهب كلها تفصيلاً فى كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » .

(٢) الأنعام : ١٦٢ ـ ١٦٣

والمقتضى الحضارى ، والمقتضى التعبيرى . . وكل « مذهب » يريد أن يحصر الدين فى مقتضاه الإيمانى وحده ، أو مقتضاه التعبدى ، أو مقتضاه الأخلاقى دون بقية المقتضيات وخاصة المقتضى التشريعى فهو مناقض للا إلَه إلا الله ، وهو ـ على وجه اليقين ـ دين غير دين الله . . ونقول المقتضى التشريعى خاصة ، لأنه أحد الجذور الرئيسية الثلاثة التى تكوّن الإيمان ، والتى ـ حين تنقض كلها أو واحد منها ـ لا يبقى بعدها شىء من الإيمان[1] .

والعلمانيون أنفسهم يعلمون فى دخيلة أنفسهم وهم يحاربون تطبيق الشريعة أشد الحرب أنهم يقوضون هذا الدين من أساسه ، وإن ضحكوا على الناس وقالوا : نحن لانحارب الدين ، لأنهم يعلمون أنهم حين ينقضون عروة الشريعة تنتقض بعد ذلك تلقائيًا بقية عرى الدين ! « فأولهن نقضًا الحكم ، وآخرهن نقضا الصلاة »[2] !

أما القومية ـ وخاصة العربية ـ فذات بريق عند فريق من الناس ، يقولون : ما التعارض بين أن يحتفظ الإنسان بقوميته ويعمل من أجلها ، وأن يحتفظ بدينه ويعمل له ؟ والعرب الذين يعتنقون القومية خاصة ذوو دعوى ظاهرها حق ـ ولكنه حق يراد به باطل ـ أن العرب هم الذين حملوا الإسلام ونشروه فى ربوع الأرض ، فما الضرر فى أن يكون الإنسان معتزًا بدينه ومعتزًا بعروبته ؟ !

وكون الإنسان عربيًا ، أو تركيًا ، أو هنديًا ، أو أندونيسيًا ، أو ما شاء الله له أن يكون مسألة تتعلق بالمولد فى قوم معينين ، يقطنون أرضًا معينة ، ولهم لسان معين . . وتلك مسألة لاإرادة للإنسان فيها ، ولا يتدخل الإسلام فى شأنها ، ولا يقول لأحد اقطع انتماءك إليها . وقد ظل سلمان ـ رضى الله عنه ـ يسمى فى الإسلام « سلمان الفارسى » ، وصهيب يسمى «صهيب الرومى » وبلال يسمى « بلال الحبشى » ؛ لأن هذه الانتماءات ذاتها اصطبغت بالإسلام ، فأصبحوا كلهم مسلمين ، وإن اختلفت ألوانهم ولغاتهم وأصولهم . . فلم تعد تلك الانتماءات حاجزًا يعزل أحد المسلمين عن الآخر ، أو يفصله عنه ، أو يثير فى نفسه شيئًا يعتز به خلاف الإسلام .

---

(١) راجع الفصل السابق .

(٢) سبقت الإشارة إليه .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ﴾ [1] .

أى بكافتكم ، وبكافة كل واحد منكم . . بكيانه كله لا يَبْقَى منه شىء خارج الإسلام . . فصاروا كلهم مسلمين ، يقفون كلهم تحت راية لا إلّه إلا الله ، ويشعرون كلهم بالانتماء إلى تلك الراية الواحدة :

﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون ﴾ [2] .

فلما كانت كذلك لم يكن فيها ضير . .

أما حين شغبَ ذلك اليهودى الخبيث ؛ ليثير الفرقة والبغضاء بين الأوس والخزرج بعد أن وحد بينهما الإسلام ، فقد خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليهم غاضبًا يقول : أبدعوى الجاهلية وأنا بين ظهرانيكم ؟! دعوها فإنها منتنة . .

وهذا هو الميزان . .

فما وضع قوميات اليوم فى هذا الميزان ؟! ألله هى ؟! أللإسلام هى ؟! أم لتفرقة المسلمين بعضهم عن بعض ، و إثارة الفرقة والبغضاء بين بعضهم وبعض ؟!

وما حكم الله فى القومية التى يقول قائلها : النصرانى العربى أقرب إلىّ من المسلم الباكستانى ؟!

ثم . . ألا يرى المسلمون أن عدوهم ـ حين أراد أن يفرقهم ويمزقهم ؛ ليبتلعهم لقما بعد أن عجز عن ابتلاعهم وهم جميع ـ قد لجأ إلى إثارة النعرات القومية فيهم ، فكان له ما أراد من تفريق وتمزيق وتطويق ؟!

أفبعد ذلك يشك أحد فى أن هذه القوميات على صورتها هذه تنقض لا إلّه إلا الله ؟!

* * *

أما الديمقراطية فهى الفتنة الكبرى !

فتنة يقع فيها كثير من الدعاة اليوم كما وقع بعضهم فى فتنة الاشتراكية من قبل . .

وما عندى شك فى إخلاص هؤلاء الدعاة إن شاء الله ـ ولا نزكيهم على الله ـ ولكنهم مع ذلك مخدوعون فى هذه الديمقراطية يحسبونها تخدم الإسلام . . ويلتبس عليهم الأمر بسبب الشبه الظاهرى بينها وبين « الشورى » التى ألزم الله بها الأمة الإسلامية ، فيحسبون

---

(١) البقرة : ٢٠٨ .　　(٢) الأنبياء : ٩٢ .

الإسلام والديمقراطية شيئًا واحدًا ، أو شيئين متجانسين يمكن مزجهما فى عجينة واحدة !

وأحسب أن الذى يجذبهم إلى الديمقراطية حتى ليحسبونها هى الصورة التطبيقية لروح الإسلام ، هو رقابة الأمة على الحاكم فى النظام الديمقراطي ومحاسبتها له ، والضمانات التى تكفلها الديمقراطية للفرد إزاء الدولة . . فإذا نظر أولئك الدعاة إلى أنفسهم فى وسط النظم الاستبدادية التى تشردهم وتعذّبهم وتقتّلهم قالوا : ياليت لنا نظامًا ديمقراطيًا يحمى الدعوة ورجالها من العسف والاستبداد !

نعم ! ولكن هذا لا يبرر الخديعة بالديمقراطية . .

إن هناك قضية كبرى في حياة المسلم، تنطلق من عقيدته ، وتسرى فى فكره وفى سلوكه العملى . . تلك هى قضية « من المعبود » ؟ الله أم آلهة أخرى معه ، أو من دونه ؟ ويتفرع عنها قضية أخرى لا تقل عنها خطرًا ، ولا تقل عنها صلة بأصل الإيمان . . تلك هى قضية « من المشرع » ؟

فأما قضية « من المعبود » فيكفى لبيانها فى الديمقراطيات أن « حق » الإلحاد مكفول فى دساتير تلك الأمم تحت عنوان « حرية العبادة » !

وأما قضية « من المشرع » فالواضح فى الديمقراطيات أن حق التحليل والتحريم هو «للأمة » مصدر السلطات ، والبرلمان الذى يمثلها ، نظريًا على الأقل ، بصرف النظر عن كون أصحاب رءوس الأموال هم الثقل الحقيقى وهم أصحاب السلطان من وراء «المسرحية» الجميلة ، مسرحية التمثيل النيابى وحرية الاختيار وحرية التعبير [(١)]! ولكن إذا أخذنا بالنظرية فالبرلمان هو الهيئة التشريعية العليا ، ولا معقب لحكمه ولو أباح الفاحشة ـ وقد أباحها ـ ولو أباح الفاحشة الشاذة ـ وقد أباحها ـ ولو أباح أى شيء وكل شيء !

هنا سيقول الدعاة الذين ينادون بالديمقراطية . . لا . . لا . . إنما نقصد الشورى الإسلامية ، الملتزمة بكتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والتى تجتهد فى المصالح المرسلة ملتزمة بمقاصد الشريعة . .

ولا شك عندى أنهم يقصدون ذلك !

---

(١) اقرأ إن شئت فصل « الديمقراطية » من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » .

ولكنى أقول لهم ـ مخلصًا ـ إن الذى ينادون به ليس هو الديمقراطية . . إنها هو الإسلام! وليس له اسم إلا الإسلام !

واسأل أى ديمقراطى « أصيل » فى الأرض ، قل له : نحن نريد أن نطبق الديمقراطية ولكنا نريد أن نحرم الخمر ! فسيقول لك على الفور : إن هذا تدخل فى الحرية الشخصية لا يجيزه الدستور ! واسأله : نريد أن نطبق الديمقراطية ولكنا نريد أن نلزم المرأة بارتداء الحجاب ! سيقولِ لك على الفور : ليس من حقك ! فالحرية الشخصية مكفولة بنص الدستور ! واسأله : نريد أن نطبق الديمقراطية ولكنا نريد أن نلتزم بتعاليم الدين ، فنلغى الربا ، ونحرم الزنا ، ونمنع وسائل الإعلام من نشر الفساد والإلحاد . . سيقول لك على الفور : إن عقليتك ليست ديمقراطية . . إنه لا إلزام فى الديمقراطية إلا لإرادة الشعب . . ولا تملك أن تفرض على الناس شيئًا بغير رضاهم . .

ما الحال يومئذ ، والله يقول :

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ [١].

إننى أقول للدعاة الذين ينادون بالديمقراطية ـ مخلصًا ـ : إن الديمقراطية بصورتها الموجودة عليها اليوم فى الأرض لن توصلهم إلى الإسلام ، لأنها تعارض معارضة أساسية مبدأ الالتزام المسبق بأى شىء ولو كان من عند الله . . بل إن أول شىء نبذته هذه الديمقراطية هو الالتزام بها جاء من عند الله !

ثم أقول لهم : مخلصًا إنها لن توصلهم إلى الإسلام من جانب آخر . فإن المشرفين على «اللعبة » الديمقراطية يفتحون الأبواب لكل عابث ولكل مفسد فى الأرض ، ولكنهم لايفتحونها للإسلام ! وقضية الجزائر مازالت حية لم تغب عن الذاكرة . . من حق أى فريق من البشر أن يحصل على أغلبية فى البرلمان . . إلا الإسلاميين !

فلنكن صرحاء مع أنفسنا ، ومع الناس . . إن الذى نريده هو الإسلام . . وليس له اسم إلا الإسلام !

---

(١) الأحزاب : ٣٦ .

ولا يحسبن أولئك الدعاة أنهم إن أخفوا « هويتهم » ولبسوا مسوح الديمقراطية فسيؤذن لهم ويمرون ! كلا ! إن كلاب الصيد ذات حاسة شم قوية . . تشم من بعيد !

﴿ فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين ﴾ [1] .

* * *

قضية أخرى فى نواقض لا إلّه إلا الله هى موالاة أعداء الله . .

﴿ لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ [2] .

وعلى الرغم من وضوح النص القرآنى وحسمه فى تلك القضية ، فإن الجاهلية المعاصرة من ناحية ، وكيد أعداء الإسلام للأمة الإسلامية من ناحية أخرى ، قد وَهّنَا فى حس المسلمين ما فى القضية من حسم ، وأوهماهم أنها كانت هكذا فى الماضى لظروف معينة ، وأن الظروف اليوم قد تغيرت ، ولم يعد للقضية فى عالم اليوم ضرورة ولا وجود .

العالمية . . الإنسانية . . القرية الواحدة . .

كلما سمعت صيحة القرية الواحدة تمثلت فى خاطرى مشاهد البوسنة والهرسك ، وما فيها من وحشية تتعفف عنها الوحوش . . ووقوف العالم كله يتفرج على المذبحة بأعصاب هادئة ، بل يصر على منع عقاب المعتدى ، وإتاحة الفرصة له لإبادة المسلمين ! وكل هذا يحدث فى داخل « القرية الواحدة » ! وفى ظل « النظام العالمى الجديد » ! !

كل الناس فى القرية الواحدة مسموح لهم أن تكون لهم ولاءاتهم الخاصة وسماتهم الخاصة . . إلا المسلمين ! هؤلاء مطلوب منهم أن يذوبوا فى الكيان العام ، وأن يعطوا مودتهم لكل الناس . . حتى الذين يقتّلونهم ويبقرون بطونهم ويمثلون بجثثهم ويهتكون أعراضهم . . وإلا فهم متعصبون !

والمستضعفون ، المنهزمون فى أعماق نفوسهم ، الذائبون فى مذلتهم ، يتنادون : لا يطّلعنّ أحد على بادرة تعصب فى تصرفاتكم ، أو أفكاركم أو حتى مشاعركم ! عيب !

---

(١) الحجر : ٩٤ . (٢) المجادلة : ٢٢ .

الناس أصبحوا كسكان قرية واحدة ! إياكم أن تشذوا أنتم فتتهموا بالتعصب ! والإسلام دين التسامح ! فاعرضوا على العالم صفحة التسامح الإسلامى ، لعلهم يرضون عن الإسلام!

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ [١] .

﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ [٢] .

الإسلام دين التسامح نعم ! ولكنه ليس دين المذلة . .

الإسلام هو الدين الوحيد فى تاريخ البشرية الذى أكرم أتباع الأديان الأخرى ولم يضطهدهم بسبب دينهم ! وحين دخل أبو عبيدة الشام قال له أهلها وهم يومئذ نصارى : أنتم ولستم على ديننا أرأف بنا من أهل ديننا ! [٣] وحين اضطهدت أوربا النصرانيةُ اليهود وطاردتهم لم يجدوا مأوىً لهم إلا الأندلس الإسلامية ، ولما سقطت الأندلس رحل اليهود مع المسلمين فرارًا من اضطهاد النصارى ، ثم آوتهم الدولة العثمانية فانتقلوا إلى سلانيك . . وهناك عاشوا حتى ردوا الجميل للدولة العثمانية بإزالة الدولة التى آوتهم وتخريبها وتمزيقها والقضاء عليها وعلى دينها ! !

الإسلام دين التسامح نعم . . ولكن فى عزة المستعلى بالإيمان ، المعتز بأنه هو الذى يعرف طريق الهدى ويتبعه على استقامة ولا يتبع طريق التائهين والضائعين . .

والإسلام يحسن معاملة الذين لم يدخلوا فيه ، ولكن بشرط ألا يكونوا معتدين :

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم **أن تبروهم وتقسطوا إليهم** ، إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، **وظاهروا على إخراجكم** أن تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ [٤].

والمسلمون اليوم مستضعفون ، يتخطفهم الناس فى أرجاء الأرض فلا يملكون أن يردوا عن أنفسهم . . وقد أباح الله لهم فى حالة الاستضعاف ألا يظهروا العداوة لأعدائهم . . ولكنه لم يبح لهم قط أن يوالوهم . . فعدم إظهار العداوة شىء ، والموالاة شىء آخر . .

---

(١) البقرة : ١٢٠ .　　(٢) البقرة : ٢١٧ .

(٣) انظر ت . و . أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وزميليه ، طبع القاهرة ، ص٥٣ .

(٤) الممتحنة : ٨ـ٩ .

الموالاة التى تشمل مودة القلب ، والتناصر ، والمحبة . . هذه لا تكون إلا بين المؤمنين بعضهم وبعض . . ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء ، إلا أن تتقوا منهم تقاة . ويحذركم الله نفسه ، وإلى الله المصير ﴾ [1].

نعم ، يحذركم الله نفسه ، وهو المطلع على دخائل نفوسكم ، وعلى مداخل الشيطان إليها ، أن يدخل إليكم من بابِ الاستضعاف والخوف ، فيقول لكم : لا عليكم أن توالوا الكفار ؛ لتأمنوهم وتصرفوا شرهم عنكم !

كلا ! لا ولاء ! حتى فى الاستضعاف لا ولاء ! إنما هو فقط عدم إظهار العداوة لهم ، وعدم استفزازهم للاعتداء عليكم وأنتم لا تستطيعون رد بأسهم . .

أما الولاء القلبى فغير جائز ، لأنه ينقض لا إلّه إلا الله ، ولأنه يذيب الحاجز النفسى الذى يفصل المؤمن عن أعداء الله ، فيميل إليهم ، فينسى دينه ويصبح مثلهم :

﴿ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة ؟! فإن العزة لله جميعًا . وقد نزل إليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلاتقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره . إنكم إذًا مثلهم . إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعًا ﴾ [2].

هذا فى ولاء القلب . . فكيف بالتعاون معهم ، لا على البر والتقوى ! ولكن على حرب الإسلام والمسلمين ؟!

* * *

تلك كلها نواقض للا إلّه إلا الله ، يقع فيها كثير من الناس فى وقتنا الحاضر دون أن يدروا . . فإذا أضيف إليها ما أشرنا إليه سابقًا من نواقض العقيدة ونواقض العبادة . . من اعتقاد بأن الله قد أشرك فى حكمه الأقطاب والأبدال ، أو ترك لهم شئون الأرض يدبرونها بمعرفتهم ! ومن توجيه ألوان من العبادة لا تنبغى لغير الله ، من دعاء واستعانة واستغاثة ونذر وذبح ، توجه إلى موتى لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا حتى حين كانوا من

---

(١) آل عمران : ٢٨ .

(٢) النســاء : ١٣٩ ـ ١٤٠ .

الأحياء . . أو اعتقاد بأن الخلق قد تم مصادفة بغير تدبير ولا غاية ، أو أن « الطبيعة » تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق . . أو أن أمور الرياح والمطر والحر والبرد والبراكين والزلازل . . تجرى حسب « قوانين الطبيعة » لا دخل فيها لإرادة الله . .

إذا أضفنا هذه الكومة إلى تلك فقد تجمع لدينا ركام هائل يغشّى على لا إلّه إلا الله ، يحتاج إلى إزالة وتنقية ، لتعود للا إلّه إلا الله شحنتها الحية الفاعلة فى حياة الناس . وتلك هى المهمة الأولى للصحوة الإسلامية .

واجب الصحوة الإسلامية

تواجه الصحوة الإسلامية مهمَة شاقة لم تتعرض لها « حركة إصلاحية » من قبل . . فإنه لم يتجمع مثل هذا الركام الذى تجمع اليوم فى أية فترة سابقة من التاريخ ، على هذا المستوى الشامل ، وعلى نطاق العالم الإسلامى كله . .

نعم ، وجدت انحرافات كثيرة فى الماضى ، وأدت إلى نتائجها حسب السنن الربانية التى لا تتبدل ولا تتغير ولا تحابى أحدًا من الخلق . . فجاء الصليبيون مرة وتوغلوا فى أجزاء من العالم الإسلامى ، وجاء التتار مرة وأطاحوا بالدولة الإسلامية ، وضاعت الأندلس ، وطرد المسلمون من أرضها . . وكانت كلها من القواصم الشديدة التى نزلت بالأمة . . ولكنها كانت ـ نسبيًّا ـ أخف مما هو حادث اليوم ، فقد كانت تصيب جانبًا من كيان الأمة دون جانب ، أو مكانًا من العالم الإسلامى دون مكان . . أما اليوم فالضياع شامل سواء فى كيان الأمة الإسلامية أو أنحاء العالم الإسلامى . .

والسبب الظاهر فى نظرنا هو موقف الأمة من لا إلّه إلا الله . .

إن لا إلّه إلا الله ، محمد رسول الله ، هى جذور هذه الأمة التى تثبت مكانتها فى الأرض :

﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء ﴾ (١) .

والقول الثابت هو شهادة التوحيد : لا إلّه إلا الله ، محمد رسول الله .

وبقدر ما تكون الأمة واعية لمدلولها ، عاملة بمقتضياتها ، تكون ممكنة فى الأرض ؛ لأن مقتضياتها شاملة لكل أدوات التمكين التى يمكّن الله بها الأمم فى الأرض ، فضلاً عن كون التمكين الذى يمنحه الله للأمة المسلمة حين تقوم بمقتضيات لا إلّه إلا الله ، هو

---

(١) إبراهيم : ٢٧ .

تمكين الرضا وليس تمكين الاستدراج ، الذى يمنحه الله للكافرين حين يتخذون الأدوات ، ولكن بغضب من الله ومحق فى نهاية المطاف :

﴿ كُلاًّ نمد ـ هؤلاء وهؤلاء ـ من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورًا ﴾ [1].

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ، نوفّ إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لايبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار . . ﴾ [2].

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين﴾ [3].

أما المؤمنون فأمرهم مختلف :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئًا ﴾ [4].

﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه ﴾ [5].

* * *

أيا كانت الأسباب التى يفسرون بها ضعف الأمة الإسلامية وتخلفها ، وزوال السلطان عنها ، وذلها وهوانها على الناس . . فهى راجعة كلها إلى سبب واحد فى النهاية ، هو تخلف الأمة عن مقتضيات لا إلّه إلا الله ، لأنه لا شىء من هذه الأسباب خارج عن نطاق هذه المقتضيات .

يقـولون ضعـف القوة العسكرية ، (أو التخلف الحربى) . . يقولون ضعف الاقتصاد ، (أو التخلف الاقتصادى) ـ يقولون التخلف العلمى . . يقولون التخلف الحضارى . . يقولون التخلف الأخلاقى . . يقولون . . يقولون ، أو ليست مقتضيات لا إلّه إلا الله التى بيناها من قبل شاملة لهذه الجوانب كلها ، سواء كانت فروض عين ، أو فروض كفاية؟!

أما الانهيار الأخير للأمة فقد كان السبب فيه هو الركام الذى تراكم خلال القرون ، فغشّى على مقتضيات لا إلّه إلا الله ، وشمل فيما شمل الجذور الثلاثة الكبرى : المقتضى

---

(١) الإسراء : ٢٠ .
(٢) هود : ١٥ـ١٦ .
(٣) الأنعام : ٤٤ـ٤٥ .
(٤) النور : ٥٥ .
(٥) البينة : ٨ .

الإيمانى ، والمقتضى التعبدى ، والمقتضى التشريعى . . فتهاوت الشجرة ، وكادت أن تجتث من فوق الأرض لولا لطف الله . .

لطف الله يتمثل فى الصحوة التى بدأت ترد الأمة لحقيقة لا إلّه إلا الله . .

هنالك كان المرض . . وهنا يكون بإذن الله الشفاء . .

ولكن الصحوة كما قلنا تواجه حملاً ثقيلاً ينبغى لها أن تدرك ثقله ، كما ينبغى لها أن تدرك مدى الجهد اللازم لمواجهته . .

إنه ليس مقتضىً واحدًا وقع العجز فيه فتسهل معالجته . . وليس عند طائفة قليلة من الأمة فيسهل عليها أن تتحرك دون أن تعوق حركتها الفئة القليلة . .

إنه عجز شامل ، وفساد كبير . . فساد فى التصور وفساد فى السلوك . .

إن الصحوة ليست بصدد « حركة إصلاحية » فى جانب واحد من جوانب الحياة ، أو بضعة جوانب بعينها . . إنما هى بصدد إعادة البناء . .

وقد كانت إقامة البناء أول مرة جهدًا شاقًا بذله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وبذله صحابته الكرام رضوان الله عليهم معه ، أما إعادة البناء . . فما أدرى . . فقد تكون مهمة أشق ، فقد قال رسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لصحابته رضوان الله عليهم : « إن من ورائكم أيام الصبر ، للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم » . قالوا : يا نبى الله ! أَوْ منهم ؟! قال : « بل منكم »[1].

وأيا كان الجهد ، وأيا كانت المشقة ، فقد قامت الصحوة بفضل الله ورحمته ، وهى ماضية فى سبيلها حتى تحقق بإذن الله أهدافها ، وتحقق موعود الله بالنصر والتمكين لأمته مرة أخرى . .

ولكن عليها أن تدرك مهمتها على وجه الدقة ، لتقوم بها بإذن الله على الوجه الأكمل . . وعليها ألا تستعجل الخطى ، ولا تستطيل الطريق ، ولا تستبطئ النصر ، ولا تنخدع ببعض البشائر فتظن أن الثمرة قد حانت ولم يبق إلا القطاف . .

بل بقى الجهد . . كل الجهد . . وبقى العرق والدماء والدموع . . وكل عقبات الطريق . . ثم يأتى النصر بمشيئة الله .

* * *

---

(١) رواه أبو داود والترمذى .

أول ما ينبغى للصحوة هو بيان مقتضيات لا إلّه إلا الله . . كما أشرنا إليها فى هذه العجالة السريعة . .

ولا شك أن الصحوة قد قامت بجهد مشكور فى هذا الاتجاه ، ثمرته هى هذا الوعى الذى أخذ ينتشر عند الشباب خاصة ، أن لا إلّه إلا الله ليست تلك الكلمة التى تنطق باللسان فحسب ، وأن الإيمان قول وعمل . . عمل بمقتضيات لا إلّه إلا الله .

ولكن الظن بأن هذه المهمة قد استوفت حقها ، فهلم ننتقل إلى غيرها ، ظن خادع يكذبه الواقع . .

إنها لا تستوفى حقها حتى يعلم الناس علمًا وافيًا نواقض لا إلّه إلا الله :

﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها . والله سميع عليم ﴾ [١] .

ولحكمة ما تقدم ذكر الكفر بالطاغوت قبل ذكر الإيمان بالله ، لأن الإنسان إذا لم يعلم ما الطاغوت ، ثم يكفر به على بصيرة ، فسيظل فى إيمانه دَخَل . . يظل إيمانه غير صاف ولا خالص لله . . ومن ثم لا يقوم عليه بناء سليم .

والطاغوت متعلق بالجذور الثلاثة الكبرى : إما الاعتقاد ، وإما العبادة ، وإما التشريع . . فإن لم يتبين الناس جيدًا نواقض لا إلّه إلا الله فى هذه المجالات الثلاثة الكبرى ، فلن يكفروا بالطاغوت كما أمر الله ، ولن يخلصوا دينهم لله كما أمر الله . .

فهل وصل البيان إلى غايته فى هذه القضية ، ومازال دعاة ـ ولا نقول « الجماهير » ـ يترددون فى كثير من القضايا المتعلقة بها ، والمترتبة عليها ، سواء بتأثير الفكر الإرجائى ، أو بتأثير الفكر الصوفى ، أو بتأثير الفكر العلمانى ؟!

* * *

وإذا كان البيان هو الواجب الأول للصحوة الإسلامية ، فإن البيان وحده لا يكفى . .

نعم . . إنه بغير البيان لا يتم شىء . . وقد كانت المهمة الأولى للأنبياء جميعًا صلوات الله وسلامه عليهم هى البيان والبلاغ :

---

(١) البقرة : ٢٥٦ .

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ (١) .

﴿ . . . وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ (٢) .

ولكن مهمة الأنبياء لم تقتصر على البيان الشفوى ، أو التبليغى ـ وحده ، لأن الله يعلم أن المعرفة الذهنية وحدها لا تصنع شيئًا فى واقع الناس ، إن ظلت قابعة فى أذهانهم فى صورة « معلومات » ، مهما كانت هذه المعلومات قوية وعميقة وباهرة ، إن لم تتحرك من الأذهان إلى القلوب فتصبح وجدانًا حيًا يملأ القلب ، ثم تنتقل من القلوب إلى الجوارح فتصبح سلوكًا عمليًا فى واقع الأرض . .

وتلك حقيقة الإيمان : اعتقاد ووجدان وعمل . .

وهذه الحركة البناءة ، التى تنقل المعلومات من الذهن إلى القلب ، ثم تحولها سلوكًا واقعيًا ، لا تتم بالبيان الشفوى ـ أو التبليغى ـ إنما تحتاج إلى نوع آخر من البيان يقوم به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، ويقوم به الدعاة من بعدهم ، هو التربية .

وليس هنا مجال بيان المنهج التربوى الذى ربى به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صحابته رضوان الله عليهم ، ولا المنهج الذى يجب أن يتخذه الدعاة اليوم فى التربية . . فهذا مجال متخصص (٣) . .

ولكنا نقول فى هذه العجالة أولاً : إنه لابد من قدوة ؛ فإن التربية لا تتم بغير قدوة . . وقد كان رسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو القدوة لصحابته رضوان الله عليهم ، وللأمة بأكملها :

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا ﴾ (٤) .

وقد كمّله الله سبحانه وتعالى بكل الصفات البشرية التى جعلته أعظم مربٍّ فى التاريخ ، ولكن الأسوة فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، هى بما يستطاع فى حدود طاقة البشر: ﴿ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها ﴾ (٥) ولكن حدها الأدنى هو الحد الأدنى من مقتضيات لاإلّه إلا الله !

---

(١) إبراهيم : ٤ .
(٢) النحل : ٤٤ .
(٣) فى النية إخراج بحث بعنوان « كيف ندعو الناس » أدعو الله أن يوفقنى لإخراجه .
(٤) الأحزاب : ٢١ .
(٥) البقرة : ٢٨٦ .

ثم إن التربية ـ فى أول حركة البناء ـ لا يمكن أن تتم على النطاق الواسع ـ نطاق «الجماهير» ـ دفعة واحدة . . إنما يتم أولاً تربية « القاعدة » . . القاعدة الصلبة التى تحمل البناء ، ثم تكون هذه القاعدة ذاتها هى القدوة التى تتربى عن طريقها بقية الناس . لذلك يلزم فى بناء هذه القاعدة أن تكون على مستوى عالٍ يصلح للقدوة ، ولا يكفى أن تكون على المستوى العادى ، لأن مهمتها ليست محصورة فى ذاتها ، أى لا يكفى أن تتربى لتستقيم فى ذات نفسها ، ولكن تتربى ؛ لتربى غيرها ، فيجب أن تكون ذات خصائص فائقة تصلح لِلقدوة وتصلح للتأثير . .

تلك إشارة سريعة للمهمة التى تواجه الصحوة . . البيان والتربية . .

ولابد أن تعلم الصحوة أن كلا الأمرين ليس بالأمر الهين ، ولا الأمر الذى يجوز الاستعجال فيه . .

فأما البيان ـ التعليمى أو التبليغى ـ فالعقبات أمامه هى ما رسب فى حس الناس من آثار الفكر الإرجائى والفكر الصوفى ثم الفكر العلمانى فى القرن الأخير . . وهى رواسب كثيرة ، مضنية فى إزالتها ، لأن كثيرًا منها أخذ فى حس الناس صورة « الحقائق » المسلمة ، فإذا جئت تردهم إلى حقائق الكتاب والسنة كما عرفها السلف الصالح ، فغر كثير من الناس أفواههم عجبًا وقالوا : من أين جئتم بهذا الفكر الذى سيخرّب الدين ! !

وليست هذه الرواسب وحدها هى العقبة . . فهناك « الإعلام » بشعبتيه : شعبة التشويش ، أو التشويه ، وشعبة الإفساد ! فأما شعبة التشويش ، أو التشويه فهى تقوم بالتشويش على الصحوة الإسلامية ، واتهامها بالتطرف حينًا ، والرجعية حينًا ، والمثالية حينًا [1] ، وبكل نقيصة فى كل حين . . وذلك ديدن الجاهلية دائمًا مع دعوة لا إله إلا الله : ﴿ وقال فرعون : ذرونى أقتل موسى ، وليدع ربه ! إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ! ! ﴾ [2] .

وأما شعبة الإفساد فهى تقوم بعمل تخريبى من نوع آخر ، هو تلهية الناس عن ذكر

---

(١) المثالية فى عرف العلمانيين نقيصة معناها التشبث بمثل غير قابلة للتطبيق فى عالم الواقع !

(٢) غافر : ٢٦ .

ربهم وذكر اليوم الآخر ، وشغلهم بما يدغدغ غرائزهم ، فيهبطون ، ثم يكرهون الصعود، ويستمرئون الحمأ الآسن ، ويقاومون من يريد أن يخرجهم منه ، كما تكره الديدان أن تخرج من الطين ، وتقاوم من يجذبها ؛ ليخرجها من الحمأ المسنون . .

وأما عملية التربية فالعقبات أمامها هى الواقع المتفلت الذى عاشت فيه الأمة قرونها الأخيرة ، وقد كان تفلتًا واسع المدى ، لم يدع مجالاً من مجالات السلوك الإسلامى إلا دخل فيه . . فإعادة الناس إلى السلوك الإسلامى السوى ، وضرورة الارتفاع ـ فى بناء القاعدة ـ عن المستوى العادى إلى المستوى الفائق جهد مُضْنٍ إلى أقصى حد . . ولابد من بذله مع ذلك . .

وليس الواقع المتفلت هو العقبة الوحيدة أمام عملية التربية ، بل هناك إلى جانبه عقبات . .

فالقدوة ماتزال قليلة فى عالمنا الإسلامى . . وفى السنوات الخمسين الماضية ، أو نحوها اتجهت الحركة ـ متعجلة ـ إلى الجماهير ، قبل أن تخرج العدد الكافى من المربين لتوجيه هذه الجماهير . . ونعانى اليوم معاناة ظاهرة من كثرة إقبال الشباب وقلة المربين ! وعلى الصحوة فى واقعها المعاصر أن تعوض ما فاتها فى نصف القرن الفائت ، فتعكف بجد على تكوين المربين الذين يوفّون بحاجة العدد المتزايد من الشباب المقبل على الإسلام . . وإلا فسيصبح لدينا فى الحركة الإسلامية « زبد » كثير يطفو على السطح ، ثم تنفثئ فقاعاته ، وتذهب جفاء مع التيار . .

﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾ [1].

وإلى جانب قلة المربين ، فإن مفهوم « التربية » ذاته غير واضح تمامًا فى ذهن كثير ممن يقومون بعمليات التربية والتوجيه . .

بعض الجماعات تهتم بالتربية « الجهادية » وحدها وتهمل بقية الجوانب ، لأن الذى يشغل حسها هو المعركة الدائرة ضد الحركة الإسلامية ، وضرورة التصدى لها بالجهاد المسلح لكف أذاها عن الحركة الإسلامية . .

وبصرف النظر عن رأيى السابق الذى أبديته فى كتاب « واقعنا المعاصر » ومازلت

---

(١) الرعد : ١٧ .

عنده، وهو أن هذه الجماعات تتعجل الدخول فى المعركة قبل أوانها . . فإننى هنا أتحدث عن «المنهج» فأقول : إن الاقتصار على جانب واحد من جوانب التربية ـ سواء كان الجانب الجهادى أو غيره ـ مخل بعملية التربية ذاتها ، ولا يبنى « القاعدة الصلبة » التى لابد من بنائها . .

وبعض الجماعات تهتم بالتربية الروحية وحدها وتهمل بقية الجوانب ، وخاصة السياسى منها . . ولاشك أن كل بناء لا يقوم على القاعدة الروحية فهو بناء منهار مهما ارتفع . . ولكن التربية الروحية ليست غاية فى ذاتها ، إنما هى وسيلة لترسيخ البناء وتعميق أسسه وتقوية أركانه . . فإذا جعلناها غاية فى ذاتها ، ولم نبن شيئًا فوق الأساس ، فماذا نكون قد صنعنا ؟!

وبعض الجماعات تهتم بالتربية العلمية وحدها ، علم الكتاب وعلم السنة ، وتهمل بقية الجوانب . .

ولاشك أن الناحية العلمية ضرورية لبناء أية حركة إسلامية . . « فالعلم » أساس هذا الدين . وقد أَقْرَأَ الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؛ ليعلمه فقال له : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ [١] وقال له سبحانه : ﴿ فاعلم أنه لا إلّه إلا الله ﴾ [٢].

ولكن العلم وحده ـ على الطريقة التى تقوم بها تلك الجماعات ـ لا يصنع شيئًا كثيرًا فى عالم الواقع ! إنما غايته أن يخرّج « فقهاء » ، أو « علماء » عالمين بأحاديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ صحيحها وضعيفها ، وبالأحكام المستمدة من الكتاب والسنة . . ولازيادة! نسخ مكررة من أحد العلماء ، أو من بعض العلماء . . ولكنها ـ كالكتب الجاثمة فوق الرفوف ـ لا تتحرك فى دنيا الواقع ! وإن تحركت ففى نطاق محدود لا يصلح ما فى الأرض من الفساد !

وبعض الجماعات تهتم بتربية الوعى السياسى ، وتهمل بقية الجوانب . . ولاشك أن الوعى السياسى ضرورة للحركة الإسلامية . وكثيرًا ما تؤتى الحركة من قلة وعيها السياسى ووعيها الحركى . . فلا تدرك مدى المؤامرات التى تحاك حولها ، والتى تستدرجها لاستنفاد

---

(١) العلق : ١ ـ ٥ .   (٢) محمد : ١٩ .

طاقتها فى أمور جانبية ؛ لتشغلها عن مهمتها الكبرى فى التربية ، ولا تتحرك الحركة الصائبة فى الوقت المناسب فتستجيب للاستفزاز فتُضرب ، أو تقع فى « مطب » يرسمه الأعداء . .

ولكن الوعى السياسى وحده لا يكفى لبناء الحركة المطلوبة . .

وتصور وجود وعى سياسى فائق عند قوم لم تصلح أخلاقهم . . مثلاً !

أو تصور وجود الوعى السياسى عند قوم لم يتجردوا لله كما ينبغى للداعية المربى . .

أو تصور وجوده بغير الصبر على الابتلاء ، أو بغير القدرة على توصيل الحق للناس ، أو بغير « الحكمة » التى تخدم الدعوة . . فماذا يفيد ذلك الوعى ، وأركان البناء كله لم تقم بعد؟!

جوانب كثيرة من التربية إما أهملتها بعض الحركات القائمة ؛ لتركز على جوانب أخرى ، وإما أهملتها لعدم شعورها بالحاجة إليها أصلاً فى عملية التربية . .

وقد ضربت بعض الأمثلة فى كتاب « واقعنا المعاصر » لجوانب من التربية لا تأخذ حظها من العناية لعدم الشعور بالحاجة إليها ، ولا بأس بذكر بعضها هنا من زاوية أنها من « مقتضيات لا إلّه إلا الله » التى يجب أن تتجه الصحوة الإسلامية إلى إحيائها فى نفوس أتباعها . .

اليقين بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، الضار النافع ، المحيى المميت ، الذى بيده الأمر كله . . كم نعطيه من اهتمامنا فى التربية ؟! إننا نكتفى ـ فى الغالب ـ باليقين الذهنى الذى يتحصل عند المؤمن فى أول مراحل إيمانه . . ولكن هذا اليقين الذهنى يتعرض للزلزلة عند الابتلاء ، والابتلاء سنة من سنن الله فى خلقه :

﴿ الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا ، وليعلمن الكاذبين ﴾ (١) .

فكم نعنى بترسيخ هذا الإيمان ، حتى يتحول من يقين ذهنى إلى يقين قلبى ، يملأ القلب حتى يطمئن إلى قدر الله ، ويواجه الابتلاء الذى يتعرض له بيقين ثابت وقدم ثابتة لا تزلزلها الأحداث . . ؟

والآثار السيئة للبيئة التى يعيش معظم المسلمين فى دائرتها : المنطقة الحارة ، والمنطقة

---

(١) العنكبوت : ١ ـ ٣ .

المعتدلة الحارة : الفوضى التى تكره النظام ، والعفوية التى تكره التخطيط ، وقصر النفس، الذى يشتعل بسرعة وينطفئ بسرعة . . تلك - كما قلت فى « واقعنا المعاصر » - من آثار البيئة التى انتشر فيها الإسلام بقدر من الله . . ولكن الإسلام تسلم الناس من هذه البيئة بواقعهم ذلك فأخرج منهم « خير أمة أخرجت للناس » . . فلما خفت قبضة الإسلام على قلوب الناس عادوا إلى عيوب بيئتهم : فوضويين يكرهون النظام ، عفويين يكرهون التخطيط ، قصار النَفَس ، يشتعلون بسرعة وينطفئون بسرعة . . فكم بذلنا من الجهد لعلاج هذه العيوب التى يسمونها « حضارية » ونقول نحن : إن علاجها هو من مقتضيات لا إلّه إلا الله ، لأن للا إلّه إلا الله مقتضى حضاريًا يعالج هذه العيوب . .

كذلك لابد أن نضع فى قائمة العقبات القائمة فى وجه التربية عنف البطش الذى تواجه به الحركات الإسلامية ، والكيد الذى تقوم به الصليبية العالمية والصهيونية العالمية وعملاؤهما فى العالم الإسلامى لتضييق الخناق عليها وكتم أنفاسها . .

تلك كلها عقبات . . سواء أمام العملية التعليمية التبليغية أو أمام العملية التربوية . .

نعم . . ولكن . . ؟!

هل ننفض أيدينا بسبب جسامة العقبات ؟!

ومن يحمل عنا مسئوليتنا أمام الله يوم القيامة ؟!

كلا ! إنما علينا أن نعرف جسامة العقبات ؛ لنعرف جسامة الجهد المطلوب . . فلانستبطئ النصر ، ولا نتعجل الخطى ، ولا نضن بالجهد ، ولا نستطيل الطريق . .

ونعرف من جانب آخر أن المبشرات أكبر من العقبات !

الصحوة ذاتها آية من آيات الله ، بعد كل ما أصاب الأمة من انحراف . . وكل ما كاده الأعداء من كيد . .

إن الناظر إلى جسامة الانحرافات التى وقعت فيها الأمة ، حتى أفرغت لا إلّه إلا الله من محتواها الحقّ كله ، فأصبحت مجرد الكلمة التى تنطق باللسان . . والناظر إلى جسامة الكيد الذى كاده الأعداء للأمة الإسلامية فى القرون الأخيرة ، والقرن الأخير خاصة ، كان يجزم أن هذه الأمة لن تعود أبدًا ، وأن هذا الدين قد انتهى من الأرض !

ولكن قدر الله الغالب كان عكس ذلك . . كان هو الصحوة الإسلامية !

والمسافة التى قطعتها الأمة ، أو قطعتها الصحوة الإسلامية - من الخواء الميت إلى الحركة

الحية ، مسافة هائلة فى حقيقة الأمر . . فإذا قلنا اليوم : إن الشوط مازال بعيدًا ، فليس هو أبعد فى حقيقته من الشوط الذى قطعته بالفعل . . وفرق بين الجهد المبذول لإيقاظ النائم من غفوته ، ووضع قدميه على الطريق ، وبين الجهد المطلوب لترشيد حركته ، وبث مزيد من النشاط فيها . .

وثمت مبشر آخر ينبغى إعطاؤه حجمه الحقيقى . . وحجمه كبير فى الحقيقة . .

لقد بدأت الصحوة والجاهلية الغربية فى أشد عنفوانها . . مسيطرة فى كل الأرض ، مسلطة أنوارها الباهرة على الساحة كلها ، قاهرة أعداءها ، مستذلة مخالفيها . . واليوم تغير الحال كثيرًا عن ذى قبل !

نصف الجاهلية قد هوى . . ومن فضل الله أن « شطأة » [1] من الصحوة الإسلامية فى الجهاد الأفغانى كانت من العوامل القوية فى هُوِىِّ هذا القسم من الجاهلية ، كما اعترف نيكسون نفسه فى كتابه الأخير : « اغتنموا الفرصة Seize the Moment » وإن كان الإعلام العربى ـ مع الأسف ـ لم يعط هذه الحقيقة حظها من الإبراز ، بل شارك فى التعتيم العالمى على القضية الأفغانية !

أما النصف الثانى فما زالت له صولة ظاهرة . . ولكنه فى الحقيقة فى طريقه إلى الانهيار بما يحمل من عوامل الفساد التى لا يمكن أن يعيش معها نظام حسب سنة الله . .

وهُوِىّ الجاهلية جانب من قدر الله الغالب ، لا يملك أعداء الإسلام منعه ، ولايملكون حجب آثاره عن واقع الأرض . . وواقع الإسلام !

ودخول مئات الألوف من الناس فى أوربا وأمريكا فى الإسلام من المبشرات . . فالكثرة الغالبة منهم من المثقفين : أطباء ومهندسون وعلماء .

ولا نقول : إن أحوال الأمة الإسلامية قد اجتذبتهم إلى الإسلام ـ فهذه الأحوال أجدر أن تنفرهم وتبعدهم ! ـ إنما الذى اجتذبهم هو الإسلام ذاته ، بما فيه من نصاعة الحق . . وهى تبدو اليوم أشد نصاعة كلما أوغلت الجاهلية فى ظلماتها . . والجاهلية تفتح فاها عجبا ـ وحنقا ـ من أبنائها الذين يقبلون على الإسلام بعد ما جهدت تلك الجاهلية قرونًا متوالية

---

(١) يقول تعالى عن المؤمنين : ﴿ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه﴾ [الفتح : ٢٩] .

لتنفيرهم منه . . ولكنها لا تستطيع أن تمنعهم رغم حنقها عليهم ـ وعلى النساء من بينهم خاصة ـ لأنهن تحدٍّ صارخ لكل دعاوى الجاهلية ضد الإسلام !

وما لنا ننسى المبشر الأول والأعظم . . أن كل الكيد الوحشى الذى يكاد للإسلام ، بما فيه من تقتيل وتشريد وتعذيب ، كانت ثمرته مزيدًا من المد الإسلامى فى كل الأرض ؟!

﴿ والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (١).

* * *

إن الإسلام قادم . .

لا نقولها نحن وحدنا . . إنما تقولها أوربا كذلك !

هم يقولونها فزعًا ، ونحن نقولها فرحًا بموعود الله :

« لا تقوم الساعة حتى يقتتل المسلمون واليهود ، فيقتل المسلمون اليهود ، حتى يقول الحجر والشجر : يا مسلم يا عبد الله ! هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله ! » (٢).

« إنه تكون فيكم نبوة ، فتبقى فى الأرض ماشاء الله لها أن تبقى ثم ترفع . ثم تكون خلافة راشدة فتبقى فى الأرض ماشاء الله لها أن تبقى ثم ترفع . ثم تكون ملكًا عاضًا فيبقى فى الأرض ما شاء الله أن يبقى ثم يرفع ، ثم تكون ملكًا جبرية ، فيبقى فى الأرض ما شاء الله له أن يبقى ثم يرفع . ثم تكون خلافة راشدة على منهاج النبوة » (٣).

ولكن هذا كله يلقى على الصحوة الإسلامية تبعة ثقيلة . . إن عليها أن تعيد للا إلّه إلا الله فى نفوس الناس شحنتها الحية التى كانت لها يوم أن كانت فاعلة فى واقع الأرض . .

عليها أن تنفض الركام كله الذى غشّى على لا إلّه إلا الله خلال قرون طويلة من التفلت والانحراف . .

عليها أن تجلوها كما كانت يوم أنزلت من عند الله . . يوم أن كانت ـ بكل مقتضياتها ـ عاملة فى حياة الأمة المسلمة ، فكانت نورًا للبشرية كلها استضاءت به وخرجت من ظلماتها، حتى من بقى منها على دينه ولم يدخل فى الإسلام . .

وإنها لكَماَ كانت يوم أنزلت من عند الله . . محفوظة فى كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، تكفل الله بحفظها فحفظت . .

---

(١) يوسف : ٢١ .   (٢) أخرجه مسلم .

(٣) أخرجه الإمام أحمد .

علينا فقط أن نفتح لها قلوبنا ، ونعمل بمقتضياتها . .

عندئذ تقبس تلك القلوب قبسات من النور ، فتصبح مشاعل تضىء للناس الطريق . .

ذلك واجب الصحوة الإسلامية . .

وإن قومًا ليستبطئون المسيرة يقولون : وماذا بعد لا إلَه إلا الله ، أما آن لنا أن ننتقل إلى موضوع آخر ؟!

وقد كتبت هذه الصفحات ؛ لأؤكد أنه ليس هناك موضوع آخر ! وأن كل موضوع يراه الناس « آخر » هو فى الحقيقة من مقتضيات لا إلَه إلا الله ، وإن بدا لأول وهلة أنه بعيد عنها . . جد بعيد !

أما الذين يقولون : دعونا من لا إلَه إلا الله ، فقد ضجرنا من حديثها . . ودعونا نبحث عن الحلول العملية . . فنقول لهم : نحن لا نعطلكم ! اعملوا ! اعملوا على النحو الذى ترونه فى نظركم محققًا للغاية التى تبتغونها ! ولكننا على يقين من أنكم ستعودون فتصرخون فى النهاية : كل جهودنا تذهب عبثًا ! الناس لا مبادئ لها ولا أخلاق ! يسرقون . . يغشون . . يرتشون . . يتظالمون . . يفتك بعضهم ببعض . . يقدمون مصالحهم الخاصة على « المصلحة العامة » فتذهب ثمرة الجهد كله ونعود كما كنا عند نقطة البدء . . أو أسوأ مما كنا عند نقطة البدء !

نحن ـ أيها الإخوة « العمليون » ـ لا نعطلكم عن العمل . .

إنما نقول لكم بما تعلمناه من كتاب الله ومن المنهج النبوى : أبدأوا بالمقتضى الإيمانى للا إلَه إلا الله ، فربوا الناس بمقتضاه . . ثم اجعلوا أهدافكم كلها « أهدافًا إيمانية » ، نابعة من لا إلَه إلا الله ، وممتزجة فى دماء الناس بلا إلَه إلا الله . . ثم انظروا كيف يكون الفرق فى النهاية بين « حلولكم العملية » حين تمارسونها خارج لا إلَه إلا الله ، وبين تلك الحلول ذاتها حين تكون منبعثة من لا إلَه إلا الله ، محكومة بمقتضياتها فى كل اتجاه . .

ولسنا نقول لكم ـ كما تزعمون عنا ـ : دعوا المعدات خاوية ، ودعوا الأرض على خرابها حتى نؤسس فى قلوب الناس لا إلَه إلا الله !

إنما نقول لكم حقيقة واقعة ، إن أعداءكم لا يريدون لهذه المعدات أن تمتلئ ، ولا لهذه الأرض أن تعمر ، لتظلوا مستذلين لهم خاضعين لأهوائهم ونزواتهم . .

ولن ينقذكم منهم إلا أن تعودوا للا إلّه إلا الله ، تربون أنفسكم على مقتضياتها ، وتجندون أنفسكم للجهاد تحت رايتها . . وعندئذ يتغير وجه الأرض . .

عندئذ ستمتلئ المعدات الخاوية حقًا ، وستعمر الأرض حقًا ، حين تتخذون الأسباب وقلوبكم مؤمنة بلا إلّه إلا الله :

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ (١) .

* * *

إن على الصحوة الإسلامية أن تعرف مهمتها ، ولا تلتفت إلى الذين يستدرجونها ؛ لتنشغل عن غايتها ، بسؤالها : أين برامجكم العملية ؟ أين حلولكم العملية للمشاكل ؟!

إنه لا يوجد حل عملى لهذه الأمة إلا الرجوع إلى الإسلام !

إن الخيرات التى أودعها الله فى الأرض التى قدّر سبحانه أن ينتشر فيها الإسلام هى أعظم خيرات على وجه الأرض . ولكنها ضاعت من أيدى المسلمين حين نكلوا عن مقتضيات لا إلّه إلا الله ، وهى اليوم ملك لأعدائهم يستمتعون بثمارها ويحرمون المسلمين منها . ولن يستعيدها المسلمون حتى يعودوا للا إلّه إلا الله ، بكل مقتضياتها ، بدءًا بالمقتضى الإيمانى ، ومرورًا بكل المقتضيات بعد ذلك ، بما فيها الجهاد فى سبيل الله .

فنحن حين نقول للناس عودوا للا إلّه إلا الله ، فإنّا ندلهم على الحل العملى الحقيقى الذى يرد لهم كيانهم ، ويرفع عنهم إصرهم ، ويعيد لهم التمكين فى الأرض . . بشرط أن يعملوا بمقتضياتها كما أمرهم الله :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئًا ﴾ (٢) .

ورضى الأعداء ، أم أبوا فإن المستقبل للإسلام !

﴿ إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾ (٣) .

---

(١) الأعراف : ٩٧ .

(٢) النــور : ٥٥ .

(٣) الطـلاق : ٣ .

بل أكاد أقول : إن الأعداء على يقين من عودة الإسلام !

ولكن بقى « المسلمون » !

ومهمة الصحوة هى زرع هذا اليقين فى قلوب الناس حتى يصبح حقيقة . . وسبيلهم أن يستنبتوا البذرة الحية من جديد . . بذرة لا إلّه إلا الله ، محمد رسول الله !

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ (١) .

ولله الحمد والشكر ، ، ،

---

(١) إبراهيم : ٢٤ ـ ٢٥ .

الفهـــرس

الصفحة



- دراسات فى النفس الإنسانية
- التطور والثبات فى حياة البشرية
- منهج التربية الإسلامية
- منهج الفن الإسلامى
- جاهلية القرن العشرين
- الإنسان بين المادية والإسلام
- دراسات قرآنية
- هل نحن مسلمون؟
- شبهات حول الإسلام
- فى النفس والمجتمع
- حول التأصيل الإسلامى للعلوم الاجتماعية
- قبسات من الرسول
- معركة التقاليد
- مذاهب فكرية معاصرة
- مغالطات
- دروس تربوية من القرآن الكريم
- مفاهيم ينبغى أن تصحح
- كيف نكتب التاريخ الإسلامى
- لا إله إلا الله عقيدة وشريعة
- دروس من محنة البوسنة والهرسك
- العلمانيون والإسلام
- هلم نخرج من ظلمات التيه
- واقعنا المعاصر
- قضية التنوير فى العالم الإسلامى
- كيف ندعو الناس؟
- المسلمون والعولمة
- ركائز الإيمان
- لا يأتون بمثله
- من قضايا الفكر الإسلامى المعاصر
- حول التفسير الإسلامى للتاريخ
- مكانة التربية فى العمل الإسلامى

6 221102 001960

دار الشروق
www.shorouk.com